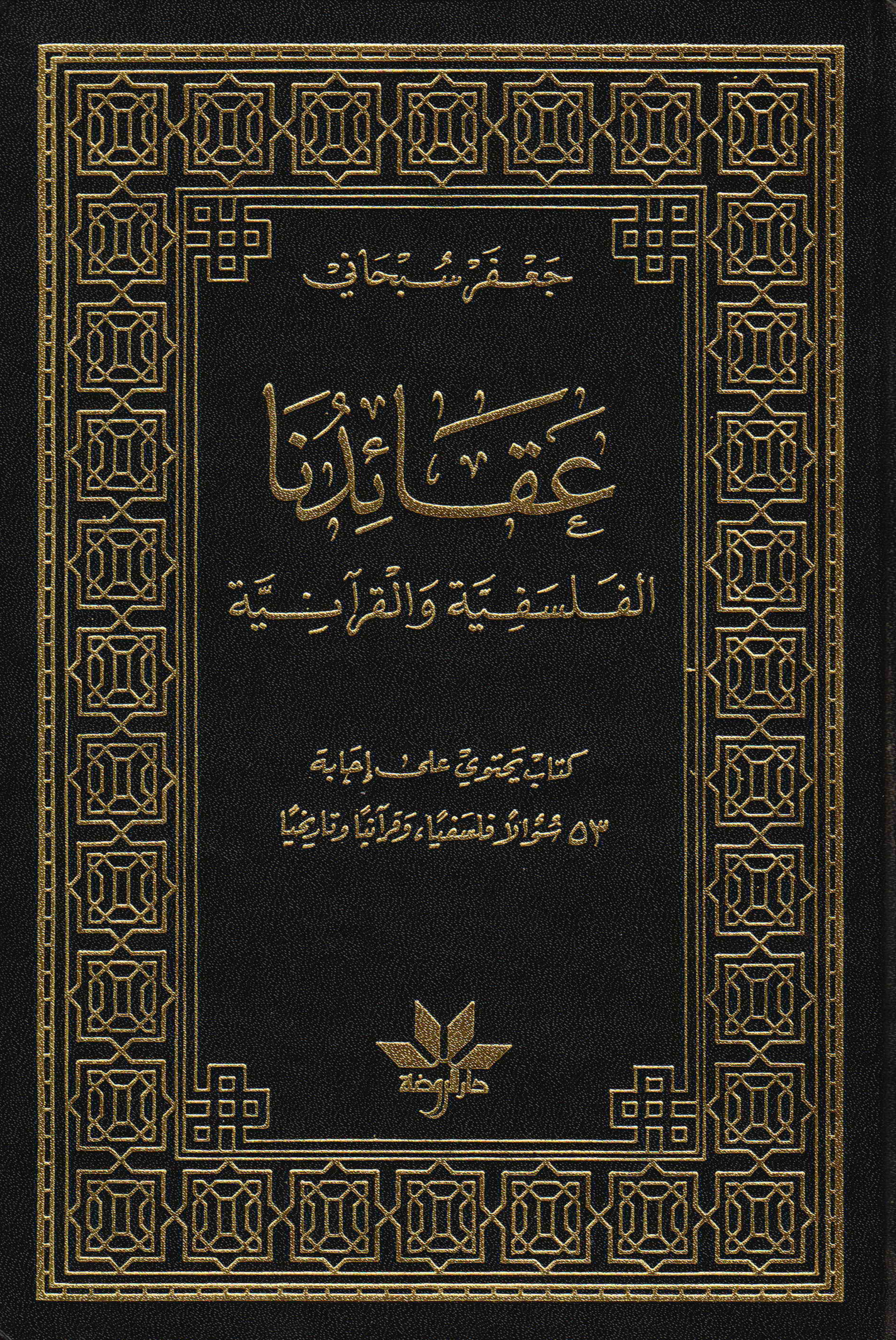
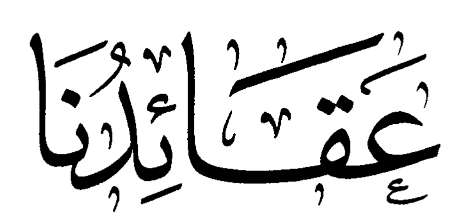

جعفر سبحاني
عقائدنا
الفلسفية والقرآنية
كتاب يحتوي على إجابة
٥٣ سؤالاً فلسفياً، وقرآنياً وتاريخياً
دار الروضة



عقائدنا

الفلسفية والقرآنية

جعفر سبحاني



الفلسفية والقرآنية

كتاب يحتوي على إجابة

٥٣ سؤالاً فلسفياً، وقرآنياً وتاريخياً

تعريب لجنة الهدى



الطبعة الأولى

١٩٩٣م ـ ١٤١٣هـ



دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع DAR AL - RAWDAH

المصيطبة شارع المتني ـ بناية فرن ديالا ـ هاتف: ٣٠٥٤٥٢ / ص.ب. ١١/٧٦٨١ بيروت لبنان

MOUSSEITBEH - METNI STR. DIALA BAIKERY BLDG. - TEL: 305452 / P.O. BOX: 11/7681 - BEIRUT

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

التحقيق والبحث في المسائل، يشكلان أحدَ الأبعاد الروحية للإنسان، والإجابة على مثل هذا البُعد، اساس التكامل النفسي، وسبب لتقدم الحضارةِ الإنسانية، ولو لم يودع الخَلْقُ مثلَ هذا البُعد في روحِ ونفس الإنسان لتوقفت قافلة العلم عن التقدم والتطور، وربما لم يظهر علم بتاتاً.

إن الطفل عندما يسمع صوتاً، يلتفتُ إلى مصدره، وهذا هو دافع البحث الذي يدفع به نحو إدراكِ الحقيقة. كما ان أي تجمعٍ صغير او كبير في مسيرة الإنسان يجذب انتباهه ويحرك فيه شعور البحث.

لقد تم إرساء اعمدةِ الحضارة الاسلامية مع تألقِ شمس الاسلام، وبدأ المسلمون يطرحون اسئلة جديدة، ويطلبون من (الرسالة) اجوبتها، ولهذا نجد في القرآن الكريم أن صيغة (**يسألونك**) خمس عشرة مرة في سور عديدة، وهذا الأمر يعكس أن الاسلام يرحب بإزدهار هذا (البُعد)، ويهتم بتطورِهِ.

وبعد رحيل النبي الأكرم (ص) وإتساع الفتوحاتِ الاسلامية، وإمتزاجِ الحضارة الاسلامية بالحضارات الايرانية والرومية، وازدياد حركة ترجمة الكتب العلمية، واجه المسلمون مسائل جديدة، واضطروا لإستخراج اجوبتها من وجهة

النظر الاسلامية، من الكتاب والسُّنة او عقلياً ومنطقياً، وفي مثل هذه الظروف تصدت المدارس العلمية والكلامية للأئمة المعصومين، خاصة الأئمة الأربعة؛ الباقر، الصادق، الكاظم، والرضا (ع) للإجابةِ على هذه الأسئلة، وفك معضلاتها، ويتلمس هذه الحقيقة كل مَن إطّلَع على احاديث هؤلاء الكبار.

اضافة إلى ذلك فإن أمير المؤمنين، الإمام علي بن ابي طالب (ع)، خلال مرحلةِ سكوتِهِ العظيم في عصر الخلفاء قبله أخذ على عاتِقه الإجابة على اسئلة مختلف الشعوب التي كانت تَقدِمُ إلى المدينة وبهدف التعرف على رسالةِ خاتم الأنبياء (ص)، وكانوا يطرحون المشاكل، وكان أمير المؤمنين يحل لهم المعضلات، ويحفظ هيبة الخلافة، وكانت احكام الإمام العجيبة هذه تشكل قسماً من الموضوعات التي طرحت قبل خلافتِهِ او اثنائها. ومن هنا نتلمس قيمة حديث رسول الله (ص) حيث يقول:

«العلم خزائن، ومفاتيحه السؤال»[1].

الكتاب الذي يُقدَّمُ إلى القرّاء الاعزاء الآن، يحتوي على اجابة علمية تحليلية لما يزيد على خمسين سؤالاً أرسلها القرّاء الأعزاء لمجلة (مكتب اسلام)، او أُرسلت من قبل المراكز العلمية المختلفة إليَّ، استلم اصحابُ الاسئلة إجابةً قصيرة ومختصرة، رغم أن الإجابة كان بالإمكان أن تكون أوسعَ واكثرتفصيلاً، (ولهذا السبب روعي أن تكون الإجابة مختصرة).

آمل أن يكون هذا الكتاب مصباحاً مضيئاً على طريق طلاّب الحقيقة، وأن يغفروا للكاتب، الذي جمع الاسئلة والأجوبة هذه خلال مشاغلهِ العلميةِ الاخرى من أي خللٍ، وأن لا يغفلوا من دعاء الخير.

جعفر سبحاني

٢٣ شوال ١٤١٠هـ

---

(١) بحار الأنوار ج ٧٧ ص ١٤٤، و (كنز العمال) حديث ٢٨٦٦٢.

لماذا العالم مخلوق ؟

العلماء الإلهيون يعتبرون (المادة) مخلوقة، بينما يـدّعي المـاديـون أنها موجودة منذ الأزل، فما هي ادلة الخلق للمادة عند الإلهيين؟

الجواب: قبل كل شيء يجب التذكر بأن مسألة اثبات وجود الله عز وجل لا يتوقف على إثبات عدم أزليةِ المادة. وبعبارة اوضح ربما كان هناك البعض ممن يعتقدون بأزلية مادة العالم وفي نفس الوقت يعترفون بوجود الله تبارك وتعالىٰ، ولكن لنفترض اننا نعترف بأزلية مادة العالم، الّا انه لا يوجد أحد يعترف بأزليةِ الموجوداتِ في هذا العالم اليوم.

فمثلاً المنظومة الشمسية، مع ما هو موجود فيها، وانواع الحيوانات الحية في الكرة الارضية، وربما في بعض الكراتِ الأخرى الموجودة في هذه المنظومة، انها جميعاً لم تكن كذلك في بدايتها، وكل واحدة من هذه الظواهر لها تاريخ خاص بها وقد اصبحت كما هي عليه الآن منذ زمن غابر او قريب.

ومن جهة أخرى فإن النظام الموجود حالياً في العالم، لا يمكن ابداً أن يكون قد وُجد صدفةً، لأن لدينا ادلة كثيرة تثبت أن النظام الموجود في الطبيعة ليس وليد الصدفة، وقد ذكرنا هذه الأدلة بالتفصيل في كتاب (الله وسر الخليقة). ولهذا السبب فإننا نرى بين الفلاسفة من يعتقـد بأزلية المادة، وفي نفس الوقت فإنهم يدخلون في صفوف الفلاسفة الإلهيين.

ولكن مما لا شك فيه أن الذين يعتقدون أن (مادة العالم) مخلوقة، لديهم دلائل اكثر في مسألة وجود الله تعالى.

والآن وبناءً على ما تقدم، نتوجه إلى مسألة خلق أو أزلية المادة، لنرى أيّاً منهما يطابق الواقع:

إن الدلائل الفلسفية والعلمية تثبت خلق المادة.

١ ـ لدى الفلاسفة ادلة على حدوث (خلق) المادة، تنبعُ كلها من مسألة الحركة، والجدير بالذكر أننا نعلم أن جميع مواد العالم في حالةِ حركة، و (الحركة) لا تعدو أن شيئاً يوجد في زَمَنين، وفي حالتين، او توجد في نقطتين، ولذا فإنه لا توجد (حركة) دون سابقة، او بعبارة أوضح؛ إن الحركة هي (حادثة ـ مخلوقة) دائماً. ومعلوم ايضاً انه اذا وُجد شيء له كيفيات خَلْقية، فإنه سيكون مخلوقاً ايضاً، وعليه فإن المادة التي تكون في حالة تغيّر وتحول وحركة دائمية هي مادة مخلوقة. وبتعبير آخر؛ إن اية مادة تكون ميداناً للحوادث، ولا يمر يوم فيه مادة دون (حادثة). فهل من الممكن أن يكون (شيء) أزلياً وتكون خاصيته الدائمة مخلوقة؟

إنه نفس الاستدلال الذي كان متداولاً بين الفلاسفة والمتكلمين على شكل جملتين معروفتين: **العالم متغيّر، وكل متغيّر حادث. فالعالم حادث**.

٢ ـ اليوم ايضاً اثبت العلماء بواسطة (العلم) حدوث العالم المادي. لأن العلم يقول لنا: إن مواد هذا العالم من جهة، وطاقاته من جهةٍ اخرى في حالة تآكل، وبعبارة اوضح؛ انه كلما مضى من عمر الزمن، فإن طاقات اكثر تتحلل، مثلاً وكما نعرف فإن كرة الشمس تفقد خلال يوم كامل حوالي ٣٠٠ مليون طن من وزنها، وهذا يعني أن معادلة هذا المقدار من المواد التي تُشكّل (الشمس) تتبدل عن طريق (التحلل الذري) إلى طاقةِ اضاءة وحرارة. ومن البديهي ان استمرار هذا الوضع سيؤدي إلى الدمار الكامل للشمس، إذ تتحول جميع موادها إلى طاقة...

طبعاً ان هذا التبديل المستمر للمادة إلى طاقة ليس مقتصراً على الشمس، بل تصدق هذه الحالة على جميع المواد التي تؤلف وتشكل هذا العالم، اي إنه يتحلل تدريجياً ويتلاشى او يتحول إلى طاقة، وهذا هو أفضل دليل على (حدوث) هذه المواد. مثلاً لو أن الشمس او المواد التي تتألف منها، او اية كرة أخرى في السماء، كانت أزلية أي انها كانت في (الزمن الذي لا ينتهي)، لكانت الآن قد فقدت كامل

وجودها ولكننا نراها حيّةً وموجودة، وهذا دليل واضح على أن لها جميعاً تاريخاً وزمناً بعيداً او قريباً وانها (حادثة)، وهذا الكلام يمكن وضعه في قـالبٍ او تعبير فلسفي كهذا.

العلم يقول لنا: إن جميع المواد المؤلِّفة لهذا العالم تتحلل وتتلاشى وهذا يعني انها ليست أزلية.

والفلسفة تقول لنا: إن الشيء الذي ليس ابدياً لا يمكن أن يكون أزلياً.

لاحظ هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ اخرى فإن (طاقات) العالم في حالة تآكل وشيخوخة، أي انها تتحول تدريجياً إلى طاقة غير فعّالة، وربما لا يمكن اطلاق اسم (طاقة) عليها. وبمثال بسيط يمكن توضيح هذا الموضوع العلمي:

افترضوا اننا وضعنا إناءً كبيراً يحتوي على ماء حار في وسط غرفة، واختلاف درجة حرارة إناء الماء الحار بالنسبةِ للجو المحيط بـه سيجعلُ من الانـاء مصدراً للطاقة الفعاّلة، مثلاً يجعل الهواء المحيط بالإناء حاراً فيتصاعد ويحل محلّه هواء بارد، فيحدث بذلك حالة حركة منظمة للهواء في اطراف الإناء وفوقه، ولكن بعد أن يبعث الإناء بحرارتِهِ في الجو، واصبحت الحرارة متساوية فإن السكون والسكوت يشمل المكان بدلاً من الفعّالية السابقة، ولن تشاهدوا أية حركة في المكان، أي أن الإناء والماء الحار سيكونان طاقةً ميتة. وهذه الحالة تنطبق على شمسنـا وجميع الكرات السماوية ومصادر الطاقة الأخرى، وبمرور الزمن سيشملهـا رتابة مميتة بدلاً من فعّالياتها، وفي هذا الوقت يجب العلم بانتهاء الطاقة تماماً، إلا إذا ظهر عامل جديد ما فوق عالم المادة، يقوم بحركةٍ جديدة ويأتي ببعثٍ جديد.

ونستنتج من كل ذلك أن الطاقات الحالية هي (حادثة)، ولها تاريخ، لأنها لو كانت أزلية، لوجب أن تكون حالة الرتابة قد حصلت لها لحد الآن.

النتيجة هي: أن مجموعة عالم المادة، وحتى (طاقاته) جميعها هي (حادثة) وليست (أزلية).

كيف ظهر العالم من العدم إلى الوجود؟

إننا قبلنا في علوم اليوم مبدأين:

١ ـ لا يمكن ظهور أو وجود شيء من العدم.

٢ ـ لم يحدث في الطبيعة أن تحولت الطاقة إلى مادة، في الوقتِ الذي نجد نماذج كثيرة من تحوّل المادة إلى طاقة.

والآن يبرز هذا السؤال: هل العالم الذي نعيش فيه قديم وأزلي؟ ام مستحدث وجديد؟!

فإذا قلنا: مُستحدث، في هذه الحالة يجب أن نقول؛ إن العالم قد وُجد من العدم، وهذا ما يخالف المبدأ الأول الثابت في العلم.

واذا قلنا؛ إنه قديم وأزلي، ففي هذه الحالة يجب أن نقول: إن دور الله سبحانه وتعالى في خلق العالم يقتصر على التغيير والتبديل وليس الخَلْق والإيجاد، وبعبارة اخرى إن نتيجة هذه الفرضية ستكون أن الله عز وجل لم يخلق المادة الأولى وأن مادة العالم قديمة وكانت موجودة، وأن الله تبارك وتعالى قد أحدثَ تغيرات فيها فجاءت على صور مختلفة.

ليس هناك شخص موحد ومعترف بالله يمكنه أن يقبل بهذه الفرضية، لأنه طبقاً لهذه الفرضية لا بد من وجود إله آخر قديم بإسم (المادة) يكون كـ (الله) عز وجل أزلياً وقديماً.

واذا قلنا إن جميع التغييرات والتحولات من خواص المادة نفسها، ففي هذه الحالة سوف لن يكون هناك دور (لله) عز وجل، لأن وجود المادة قديم وأزلي، وأن

أي نوع من التحولات سيكون نتيجة آثار ذاتية للمادة فقط، إذن ما هي الحاجة لله في هذه الحالة؟!

الجواب: نظراً لأن هذا السؤال مهم، لذا يرجى من القرّاء أن يمعنوا النظر في الجواب.

اولاً: فيما يتعلق بقولهم: لقد اثبت العلم انه لا يمكن إيجاد شيء من (العدم)، هذا القول يتعلق بالشروط الحالية، يعنى الظروف التي نعيش فيها حالياً، حيث لم ير أحد انه تم إيجاد شيء من (العدم) ولكن هل هذا المبدأ كان سارياً من اقدم الأزمان في عالم الوجود؟! ليس هناك دليل يثبت ذلك.

مثلاً العلم يقول: في الظروف الحالية لا يمكن (ايجاد) كائن حي في عالم الطبيعة من (موجود) بلا حياة، حيث أن جميع الأحياء، اعم من النبات وحتى الحيوان يتولدون من (موجود) حي. هذا في وقت تعلم انه ليس كذلك دائماً، فعندما انفصلت الكرة الأرضية عن الشمس، كانت قطعة ملتهبة وليس فيها (موجود حي) حتى تتولد منها الموجودات الحية الأخرى.

واذا قيل إن الحياة انتقلت من الكرات الأخرى إلى هذه الكرة، فإن هذا الإدعاء يتكرر بالنسبة للكرات الأخرى، لانها كانت مثل الكرة الأرضية قطعاً ملتهبة، فكيف وُجِدَ عليها (موجود حي)؟!

وبناءً على هذا الاسلوب فإنه يمكن، وتحت ظروف خاصة، أن تُصبح الموجودات غير حية، موجودات حية بتغير اشكالها، مع أن هذا الأمر ليس عملياً في الظروف الموجودة هذا اليوم.

وفي هذه الحالة إذا كنا لا نجد الآن ما يدل على (ايجاد) الموجود من العدم، فهذا لا يثبت عدم امكان ذلك، خاصة أنه لا يوجد أي دليل عقلي على عدم امكان ذلك الوجود. طبعاً عندما نقول بعدم وجود دليل على عدم وجود من العدم، فإنه لا يعني أن (وجود) شيء يظهر تلقائياً من العدم، وأن (العدَم) هو اساس (الوجود)، وبلا سبب يلبس (العدم) لباس (الوجود)، لأن ظهور (الوجود) من (العدم) في هذه الحالة، يلازم إنكار قانون (العلة) و(المعلول)، وتكون النتيجة أن شيئاً بدون

(علةٍ) (لإيجادِهِ) ينقلب من (العدم) إلى (الوجود) فيملأ الفراغَ بوجودِهِ. وإنما قصدنا من ظهور الوجود (من العدم) هو إذا كان لشيءٍ سابقة من العدم فإنه وتحت علةٍ قويةٍ يستطيع الخروج من (العدم) إلى (الوجود)، وتلك السابقة لا يمكنها أن تمنع من ظهور الشيء إلى الوجود من العدم بسبب تلك (العلة).

ثانياً: عالمُ المادة هو (حادثُ) بلا شك، ولا يمكنه أن يكون أزلياً، لأننا نعلم أن جميع انواع الذرات في العالم تأخذ تدريجياً بالتجزئةِ والتكسير، ولهذا فإن عمر العالم سيكون مقداراً ثابتاً، وبانتهاء هذا العمر تكون جميع الذرات قد تجزأت وتكسرت. واذا كان الزمن الذي ليس له نهاية قد انقضى على هذا العالم، عندها لا بد أن يكون عمر العالم قد انتهى وتجزأت الذرات جميعاً، ولما بقي شيء يسمى اليوم بـ (المادة).

مثلاً؛ اذا رأينا مصباحاً مضاءً بالزيت، فإننا نعلم بالتأكيد أنه لم يكن مضاءاً منذ الأزل في زمن بلا نهاية، لأنه لو كان مُضاءً منذ الأزل، مع ملاحظة أن مقدار الزيت محدود وليس بلا نهاية، فلا بد أن يكون قد إنطفىءمنذ مدة طويلة.

وكذلك ذرات العالم، لأنه طبقاً لنظرية (آنتروبي) فإن هذا العالم يسير نحو (الكهولة) وجميع ذراتِهِ في حالةِ الإنحلال، وسيأتي اليوم الذي تُصبح فيه جميع (الطاقات) غير فعّالة، وغير مفيدة. لأن حركة الطاقة تشبه القوة الحاصلة من حركة الماء، الذي يسقط من مكانٍ مرتفع إلى مكانٍ واطىء، واذا كان الماء الموجود في المخزن مقداره محدود (قليلاً او كثيراً) فإنه سيصل اليوم الذي يكون فيه الماء في سطح متساوي وتبطل الطاقة الحاصلة من سقوط الماء.

وعليه اذا كان العالم أزلياً، كان لا بد ـ ومنذ مدةٍ طويلة ـ قد انتهى مفعول (طاقاتِهِ)، وشمله سكوت مطلق، وظلام موحش، ورتابة واحدة، وفي الحقيقة يكون مشمولاً بنوع من (العدم).

ومما تقدم يُستنتج أن لهذا العالم بداية وتاريخ، ولا يمكنه أن يكون أزلياً. ومن الطريف أن نلاحظ أن العلم يقول: أن لهذا العالم نهاية، لأن افضل دليل على ذلك نظرية (أنتروبي)... (الكهولة) و (الإنحلال) و (تـجزئة الذرات). ولكننا نعلم

أن الشيء الذي له نهاية، لا بد أن يكون ذا بداية، لأن الشيء لو كان أزلياً لا بد أن يكون وجوده نابعاً من ذاتِهِ. وبعبارة أوضح أن لوجوده خاصيـة ذاته. وأن الشيء الذي يكون وجوده من ذاته، ووجوده له خاصية ذاته، لا يمكن أن تكون له نهاية.

وفي هذا الصدد يقول العلماء: إن الشيء الذي له نهاية، فمن المؤكد أن له بداية، والشيء الذي ليس له نهاية ولا يفنى، لا بد أن لا تكون له بداية ولا نهاية، بعبارة اوضح: ان كل موجودٍ أزلي لا بد أن يكون أبدياً، كما أن كل موجود له فناء (نهاية) فهو بالتأكيد (حادث).

ثالثاً: إن ما نلاحظه من تغيير وتحوّل ونظام خاص في هذا العالم لا يمكن أن يكون من خواصِ نفسهِ (المادة)، بينما نظام هذا العالم، خاصةً ما يتعلق بعالم الأحياء فإنه لا يمكن أن يوجد إلّا من منبعِ علمٍ وقدرة، للنظام الدقيق المحسوب الجوانب، والمنظّم فيه، وان احتمال (الصدفة) في خلق هذا العالم طبقاً لـ (حساب الاحتمالات) يساوي صفراً، وهذا يعني عملياً... المحال...

وبملاحظة هذه البنود الثلاثة تتوضح الجوانبُ المختلفة لهذا السؤال، وهي انه ليس هناك مانعٌ بتاتاً من خلق هذا العالم من (العدم)، وأن النظريات العلمية تدل على أن (مادة) هذا العالم وطاقاتِهِ (حادثة).. وحالها في النهاية الزوال والفناء. وأن الشيء الوحيد الأزلي والأبدي هو الذي ينبع وجوده من ذاته، ومثل هذا الشيء ليست له بداية ولا نهاية.

ويتضح ايضاً انه بفرضِ أن مادة العالم أزلية، فإنه لا يمكن أن يكون التغيير والتحول فيه من خواص المادة، لأن الفلسفة والعلم إتفقا وأثبتـا أن نظام العـالم واسراره العجيبة خاصةً ما يتعلق بالأحياء لا بد أن يكون لها من خالق عظيم وقادر..

* * *

ما هو الدور والتسلسل؟ ولماذا هما مستحيلان؟

يطرح العلماء الإلهيون براهين مختلفة لإثبات (الصانع)، وأحد هذه البراهين يعتمد على (امتناع الدور والتسلسل)، والآن يبرز هذا السؤال، ما هو المقصود بـ(الدور والتسلسل)؟ ولماذا هما باطلان ومستحيلان؟!

الجواب:

(الدور والتسلسل)؟ هما من المصطلحات الفلسفية والكلامية، ومفهوم لدى الاشخاص المطلعين على هذين العلمين سبب المحال فيهما، ونحن هنا نوضح للأشخاص الذين لا يعلمون شيئاً عن هذه العلوم ما هو المقصود من هذين العلمين، وما هو سبب بطلانهما.

١ ـ ما هو (الدور) ولماذا هو محال؟:

الدور.. هو أن نفرض ظاهرتين باسم (الف) و(باء)، ونعتبر كلاً منهما علة للآخر. مثلاً اذا اخذنا ظاهرة (الف)، فإن وجوده يكون متعلقاً بظاهرةٍ اخرى باسم (ب) كان موجوداً قبل ذلك ويقوم بايجاد ظاهرة (الف). وكذلك عكس ذلك، أي؛ عندما نتجه إلى ظاهرة باسم (ب) نجدُ أن وجوده يتعلق بظاهرة (الف) الذي كان موجوداً ليحقق وجود الآخر. مثل هذا الفرض باطل، لأن وجود كلٍ منهما يشترط بالآخر، وبما أن وجود أيٍ منهما يكن محققاً قبل ذلك، إذن فإن نتيجة مثل هذا الوجود هي أن أي واحدٍ منهما لم يكن موجوداً. ولتوضيح اكثر، افترضوا أن اثنان يريدا حمل شيءٍ، ويمسك كل واحد منهما بجانب ثم يشترطا أن يرفع احدهما

جانبه قبل الآخر، ففي هذه الحالة أن الشيء لن يُحملَ بتاتاً، لأن الشرط الذي اشترطه كل منهما لحمل الشيء مستحيل.

وحقيقة الدور لا يعدو ذلك، وهي أن كلاً من الحادثتين مشروط بوجودٍ قبلي لهما، وبما انهما لا وجود قبلي لهما، فمن المؤكد أن مثلَ هذا الغرض لا يتحقق.

٢ ـ ما هو (التسلسل) ولماذا هو باطل؟:

(التسلسل) لا يعدو أن تكون سلسلةُ العلة والمعلول مستمرة إلى ما لا نهاية ولا تنتهي عند نقطة معينة هي نقطة (العلة) وليس (المعلول). ومثلُ هذا الغرض، بالبيان الذي طرحنا به (الدور)، فهو الآخر ممتنع، لأنه في فرض التسلسل، فإن الحادثة الاخيرة تكون معلولة لحادثةٍ تسبقها، وهذه الحادثة ايضاً معلول لحادثة اخرى تسبقها، وهكذا.. فأول حادثةٍ تشهدها يُشترط وجود حادثة ثانية قبلها.. وهذه الثانية يُشترط وجود ثالثة، وبهذا الترتيب فكلما تقدمنا فإننا لن نصل ابداً إلى حادثةٍ لا يشترط وجود سابقة لها.. وإنما يستمر الوضع إلى ما لا نهاية، وفي هذه الحالة ليس فقط اننا لا نواجه حادثة موجودة، بل اننا لن نجد أي جزء من هذه السلسلة يتحقق فيها عنصر الوجود، لأننا من اية جهة نحقق مع أي واحدة فإن لسان حالها يقول: إنني اكون موجودة إذا تحقق وجود سابقة قبلي. واذا سألنا الموجود القبلي السؤال نفسه فإنه يجيب: انني اكون موجوداً إذا كان الموجودُ قبلي موجوداً. وبما أن أية حادثة لا تخلو من شروط، ولا نصل من خلال هذه السلسلة إلى موجود لا يشترط موجوداً قبله، فمن المؤكد أن هذه السلسلة والتسلسل لا يكون له وجود ابداً.

والآن إذا وجد بين هذه (الاحداث) موجود يقول: إن وجودي لا يشترط بوجودِ موجودٍ قبلي. ففي هذه الحالة يكون هذا الموجود، وجوداً مطلقاً غير محتاج لعلة، او بالأحرى سيكون (واجب الوجود)، وفي النتيجة ستقطع هذه السلسلة، ويدمّر التسلسل.

وفي مسألة (حمل الشيء) لو أن الشخص الأول اشترط تعاون الشخص

الثاني، وهذا اشترط تعاون شخص ثالث، واشترط الثالث آخر وهكذا إلى ما لا نهاية، ولا يظهر بينهم من لا يشترط تعاوناً من أحد، فإن (حمل الشيء) لن يتم ابداً. لأن شرط تعاون اي واحد منهم لن ينفذ، ولكن خلافاً لما هو متوقّع إذا حدث تعاون، فإننا بالتأكيد سنكتشف أن بطلاً قد ظهر في هذه الحلقة لا يشترط مساعدة من أحد، وشمّر عن ساعديه، والآخرون ايضاً، مع ملاحظة تحقق الشرط، يبدأون تعاونهم ويرفعون الشيء، وبعبارة أخرى لو أن سلسلة العلة والمعلول قبلت وجوداً فإننا ندرك في هذه الحالة أن هذه السلسلة وصلت إلى نقطةٍ أن (الوجود) وتحققه لا يشترط شرطاً، ولا (اذا)، وانه هو (واجب الوجود) المطلق.

واذا لم يصل إلى هذه النقطة، وصارت هذه السلسلة، سلسلةً مشروطة في هذه الحالة سوف لن يكون من أثرٍ للوجود في هذه السلسلة.

هذا هو معنى (الدور والتسلسل) وهذا هو سبب مُحالهما..

طبعاً أن هذا البيان العلمي والبسيط، في نفس الوقت، بإمكانِه أن يُعرِّفَ الاشخاص بواقع هذين المفهومين وسبب مُحالهما. بينما البحث في (الدور والتسلسل)، من وجهة نظر المسائل، هو بحثٌ معقد وفلسفي، وهو اعقد من أن نذكره هنا.

المرحوم صدر المتألهين في (الأسفار)، والمحقق السبزواري في شرح المنظومة، اكدوا امتناع التسلسل، برأينا أن اكثر آرائهم خاطئة، بينما نجد بينهم العلامة المرحوم الطباطبائي أوضح جميع البراهين [بالبيان التالي في هذه العبارة]: إذا كان لكل شيء خالق، فمن هو خالق الله؟

* * *

اذا كان لكل شيء خالق؛ فمن هو خالق الله؟

أحد الدلائل لاثبات الصانع، هو برهان النظم، وأحد مقدماته قانون (العلة) و(المعلول)، أي أن لكل شيء علة، وعليه بما أن العالم موجود فلا بد أن له (علة)، وبما انه يمتاز بنظام وترتيب خاص فلا بد أن يكون (لعلتِهِ) علم وقدرة. وُيستنتج من هاتين المقدمتين أن هذا العالم له خالق عالم قادر، بإسم (الله).

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه؛ إن قانون العلة والمعلول قانون كلي وواسع يشمل جميع المخلوقات، إذن لا بد أن يكون لرب العالم الذي اسمه (الله) سبب وعلة لوجوده، في الوقت الذي نعلم أن (الله) هو (علة العلل) ولا نجد له علة، رغم وسعة قانون العلة، فكيف نجيب على هذه المسألة؟!

الجواب: نحن نذكر قبل الإجابة على هذا السؤال؛ الماديُّ والالهيُّ متساويان امام هذا السؤال، فمن وجهة نظر الأفراد الإلهيين أن جميع الموجودات تعود إلى الله الذي وهبها (الوجود)، ومن وجهة نظر الماديين فإن جميع مظاهر الوجود تعود إلى المادة وهي منبع التجلي.

وهنا يقال: إذا كان هذا القانون كلياً وواسعاً إلى هذه الدرجة فلا بد أن يعين الفرد الإلهي خالقاً لله، وعلى المادي ايضاً أن يعين خالقاً للمادة. وهذا يعني انه ليس فقط على عباد الله أن يوضحوا مبدأ وجود (الله)، وإنما الماديون ايضاً مكلفون أن يعينوا مبدأ عالم (المادة)، وكل ما يجيب به الماديُّ في هذا الصدد هو ايضاً جواب الإلهيين وعباد الله.

والعجيب هو كيف أن مثل هذا السؤال المشترك بين الماديين والإلهيين يوجّه إلى الإلهيين، ويعتبر الماديون أنفسهم معفيين من الإجابة؟!!

والعجيب هنا أن عالم الرياضيات المعروف (برترانـدراسل) الـذي أوصلته السياسة إلى مقام الفيلسوف يقول في كتابه (لماذا لستُ مسيحياً):

ـ «كنت لمدة طويلة معترفاً بـالله، وأن هذا الـوجود مخلوق من قبـل الله، ولكنني رأيت فيما بعد أنني لو اعترفت بذلك فإنني أكون قد أهملت القانون العلمي للعلةِ والمعلول، لأن العلم يقول لنا: (إن كل موجود يلزمه علّة، فإذا كنتُ معتقداً بالله فلا بد أن ابحث له عن (علة) في الوقت الذي يكون فيه (الله) في هذه العقيدة (موجوداً بدون علّة)، إذن من أجل حفظ قـانون العلة والمعلول قـد خرجت من صفوف عباد الله، وإلتحقت بزمرة الماديين».

ياللعجب، كيف غفل هذا الفيلسوف أن نقض هذا القانون (بفرض صحتِه) مشترك بين الإلهيين والماديين، لأنه كما أن (الله) في مذهب عباد الله موجود قديم وبدون علّة، فإن (مادة) العالم في مذهب الماديين موجود قديم وبدون علّة. واذا كان الحفاظ على قانون العلة والمعلول يجعلنا نبتعد عن الاتجـاه إلى الله، فلا بد أن يبعدنا ايضاً عن الإتجاه إلى (المادة)، ونلتحق بجمع الشكّـاكين (سپتي سيست) وليس بجمع الملحدين والكافرين.

واما كيف غفل هذا المتفلسف عن هذه النقطة، فهذا ما لا نعرفه، والآن نجيب على السؤال.

توجد مغالطة في متن السؤال، وهي انه وضع (موجود) بدلاً من (ظاهرة)، وكلتا الكلمتين أُعتبرتا مترادفين، ولتوضيح ذلك لدينـا هنا اشـارة إلى موضـوعين احدهما صحيح والآخر خطأ:

١ ـ لكل ظاهرة علّة.

٢ ـ لكل موجود علّة.

إن ما يقوله لنا قانون العلة والمعلول هو ما ذُكر. ومعنى الظاهـرة هـو إن الشيء الذي لم يكن ثم تحقق و(وُجد)، مثلاً ابنك الذي لم يكن ثم ظهر إلى الوجود، طبعاً له (علّة)، وهذا القانون قانون عقلي وليس تـجريبي ولا يمكنه أن يكون مختصاً. والبرهان العقلي لهذا المبدأ هو مطالعة مفهوم (الممكن) الذي يكون

(الوجود) و(العدم) متساوياً بالنسبة له، وبكلمة أخرى (الممكن) هو في وسط دائرة، واندفاعه بأحد طرفي الدائرة (العدم والوجود) يحتاج إلى دليل وعلّة. والشيء الموجود هو عدم وجود (علّة) لعدم وجود ظاهرة كافية، بينما لوجود (ظاهرة) هناك حاجة لوجود (علّة)، ولا ينكر أحدٌ من الإلهيين هذا القانون، وفي الحقيقة أن هذا القانون يُشكل قاعدة براهين معرفة (الله) تبارك وتعالى.

بينما المبدأ الثاني، مبدأ باطل وغير صحيح، لأن (الموجود) يحتاج إلى (علة) إذا كان من قسمِ (الظواهر)، ولكن ذلك (الموجود) في الحقيقة ليس (ظاهرة) بتاتاً، ولم يسبق بعدم، وكان موجوداً منذ الأزل وسيكون كذلك، ومثل هذا (الموجود) ولأنه لا يحتاج إلى (علّة) ولا يمكن ذلك.

إن (الله) الذي يعتبره (عباد الله) مبدأ للممكنات ومصدراً للوجود هو موجود أزلي وأبدي، ولم يكن للحظة فاقداً للوجود ثم ظهر إلى الوجود، وعليه فإن البحث عن (علّة) لمثل هذا (الموجود) ناتج عن الغفلة لواقع وجودِهِ.

واما أن يكون بين الموجودات موجود باسم (الله) له هذه الواقعية اي أن يكون موجوداً إزلياً وأبدياً، فدليله بطلان التسلسل نفسه الذي اثبت لنا أن سلسلة الوجود يجب أن تصل إلى نقطة تكون (العلة) في تلك النقطة فقط وليس (المعلول)، يعطي الوجود وليس أن يكتسب الوجود، أن يكون مفيضاً وليس مستفيضاً، وفي غير هذه الصورة لا يمكن أن يتحقق (عالم الممكنات).

إن هذه الحقيقة العلمية التي بيّناها موضحة في كتب الفلسفة تحت قاعدة نذكرها فيما يلي. وهنا ولإكمال الموضوع للبعض الذين لديهم بعض المعلومات المختصرة عن الفلسفة نوضح ماذكرنا:

«كل ما بالعرض أن ينتهي إلى ما بالذات»

إن السؤال: من خَلَقَ الله؟ يشتمل على تناقض، لأننا عندما نقول (الله) فإننا نقصد الموجود الأزلي الابدي، الدائم الوجود الذي لم يكن له (عدم)، وهذا الغرض يقتضي الإغتناء عن (العلة) و السبب و (الخالق).

إن الذي يسأل بعد هذا الفرض: من هو خالق (الله)؟ هو بالضبط على نقيض

ذلك الفرض الذي رآه مُسَلَّماً، وإلّا لما كان (الله) طبقاً للسؤال غير أزلي وأبدي، وكان غير موجود (اي معدوم) في الماضي، ثم اكتسب الوجود لإحتياجه إلى (علّةٍ) لوجوده. وهكذا فإن الجمع بين مفهوم (الله) وسؤال (من هو خالقـه)؟ جمعٌ بين فرضين متناقضين غير متلائمين.

احياناً لإفهام الموضوع لبعض الاشخاص غير العارفين يـأتون بـأمثال: إن الطعم الحلو لكل شيء يأتي من السكر، وهذا الطعم الحلو هو من ذات السكر. كذلك ضياء كل شيء هو نور، والنور هو ضياء بذاتِهِ. هذان المثلان تقريبيان، ولا ينطبقان كلياً مع البحث، ولكن ليس امامنا من طريق للإفهام غير ذلك. ولهذا وبعد طرح المثلَيْن إجابة لهذا السؤال إن وجود كل موجود من الله، إذن وجود الله من خالقه؟! لا بد من القول: ـ إن وجود الله هو من ذاتِه، وينبع من داخل وجودِه.

* * *

ما المقصود من (الصدفة)؟

ما معنى (الصدفة)؟ من وجهة النظرةِ العالمية علمياً وفلسفياً هل (للصدفة) مفهوم منطقي ام لا؟!

من جهة يحترم العلماء قانون (العلة والمعلول)، ويقولون ان وراء كل (ظاهرة) علة لوجوده، ومن جهةٍ اخرى يفسرون وجود الظواهر عن طريق الصدفة. (مثلاً يقولون إن التغيرات والتحولات في الأرض تنتج عن طريق الصدفة، ويستخدمون احياناً عبارة (صدفة) لتفسير الحوادث والتاريخ). فهل الاعتقاد (بالصدفة) يمكنه أن يكون مناقضاً لقانون العلة؟!

الجواب: يمكن أن تكون (للصدفة) معاني، أو بالأصح، اصطلاحات مختلفة وكل اصطلاح له احكامه الخاصة، نوضحها للقرّاء الكرام:

١ ـ (الصدفة) بمعنى ـ عدم وجود علّة ـ العلل الطبيعية او غير الطبيعية، هذه (الصدفة) برأي العلماء مردود، ولا يوجد عالِمٌ يطلق عليه اسم (عالِم) أن يقبل بمثل معنى هذه (الصدفة). وكل من يستخدم (الصدفة) في التحولات الطبيعية أو التاريخية لا يقصد أن حادثةً تقع من تلقاء نفسها بدون علّة.

تطرح (الصدفة) في الفلسفة الاسلامية بعنوان (حظ) و (حَدَث) ولهاتين الكلمتين معاني خاصة، وبذكر الإصطلاحَين الآخرين يتوضح معناهما.

٢ ـ (الصدفة) بمعنى بروز (ظواهر) عن طريق سلسلة من العلل غير المتوقعة. هذه (الصدفة) هي التي يتمسك بها ماديّو العالم، فهم يقولون: إن مادّة (العالم) قد ظهرت بهذا الشكل إثر إنفجار وسلسلة كثيرة من التفاعلات أدّت إلى وجود

هذا النظام، ومن تجمع هذه الأنظمة الصغيرة، ظهر إلى الوجود مثل هذا النظام العجيب. وعليه فإن نظام العالم ليس بدون (علّة) ومن المؤكد أن له (عللاً)، ولكن ليس (عللاً) واعية محتسِبة.

والآن، هل يمكن أن تكون (الصدفة) مصدراً لهذا النظام البديع العجيب أم لا؟!

من المسلم به، أن مثل هذه الصدف الكثيرة لا يمكنها أن توجد واحد من مليارد من هذا النظام.

نعم، من الممكن احياناً أن مياه نهر تتقاذف صخرة فتتآكل الصخـرة حتى تظهر على شكل إنساني، ولكن لا يمكن أبداً أن يؤدي إنفجار مادة، حتى ولو بعلل طبيعية وداخلية إلى خلق مثل هذا النظام العجيب، هذا النظام الذي تحتاجه دراسةُ اي جانب منه إلى تخصص وخبرات.

في فرضية (داروين) التى تتعلق بتكامل الإنسان، وأن ظاهرة اسفنجية وبعد مراحل تحولت إلى شيءٍ يسمى (الانسان)، بفرض صحة ذلك، فلا يمكن ربطه بعلل طبيعية غير واعية، وإنما لا بد من وجود (علّة) واعية وخلّاقة وعالمة تشرف على تلك السلسلة من مراحل التكامل.

على أية حال، فإن تفسير المادتين لنظام العالم أو لفرضيةِ داروين حول وجود الإنسان عن طريق العلل الطبيعية غير الواعية، إن كانت صحيحة أم لا فهو احد معاني (الصدفة).

٣ ـ (الصدفة) بمعنى بروز (ظاهرة) بفعل عامل غيـر شمولي، ولا يخضـع لقاعدة.

يُردَّد على لسان الناس غالباً عبارة (لقد التقيت في سفري صدفة بصديقي) أو (حفرنا بئراً لنصل إلى الماء، فعثرنا على كنز).

إن حدوث مثل هذه (الظواهر) التى تفسّر عن طريق (الصدفة)، لا يعني أن هذه (الظاهرة) معلول بلا علّة، وإنما المقصود أن حدوث مثل هذه الظاهرة وفي مثل هذه الظروف، ليس لها جانب شمولي وقاعدة، أي ليس أنه نلتقي بالصديق في كل سفرة، وأن حفر بئر يؤدي دائماً إلى العثور على كنز.

وإنما سلسلة من العلل والظروف الخاصة أوجبت أن يكون كنز في هذا المكان وأن سلسلة من العلل أوجبت أن يسافر صديقنا ونلتقيه. إن نتيجة هاتين (الظاهرتين) أدت إلى العثور على الكنز ولقاء الصديق، ولكن لا توجد اي رابطة شاملة ودائمة بين حفر البئر والعثور على الكنز، أو سفر الصديق ولقائِه. وذلك لعدم وجود اي رابطة، إذن إن حدوث هذه الظاهرة لا يمكنه أن يكون خاضعاً لضابـط او قاعدة.

والنتيجة هي: إن (عدم وجود علّة) شيء، و(عدم الشمولية) وعدم الخضوع لقاعدة شيء آخـر أو بتعبير فلسفي؛ إن الظاهرة لا تلتزم بنوع تلك العلّـة (أي أن حفر البئر لا يؤدي بنا إلى العثور على كنز) رغم أن ذلك العثور يتعلق بهذا الشخص نفسه الذي حفر في تلك النقطة التى كانت تضم كنزاً.

إن الحـوادث التاريخيـة عن طريق الصـدفة هـو بهـذا المعنى. وقـد فسّـر المؤرخون اندلاع الحرب العالمية الأولى هكذا: لقد ادى قتل ولي عهد النمسا إلى اندلاع هذه الحرب. أي أن حدثاً صغيراً وقتل أمير أدى إلى ظهور هذه الفاجعة العالمية.

إن استخدام كلمة (صدفة) هنا لا مانع منه، طبعاً بالمعنى الـذي ذُكر أي اندلاع نار الحرب، تحت ظروف خـاصة، وهـذا يعنى أن هذا الأمـر لا يخضع لضابطة شاملة أو دائمة. لقد قتل الكثير من امثال هذا الأمير يحملون لقب (ولى عهد) ولم حدث ولم تقع مثل هذه الفاجعة الكبرى.

طبعاً هناك ظروف واضطرابات سياسية واقتصادية وتناقضات آيديولوجية هيأت الأرضيـة، وحـادثـة القتـل كـانت الشـرارة التي انـدلعت في مخـزن بـارود.

* * *

ما هو دور (الضد) في الفلسفة الإسلامية؟

ما هو المقصود من (الضد) في الفلسفة الاسلامية؟ وما هي العلاقة بين مثل هذه (الاضداد) و(الاضداد) الموجودة في (ديالكتيك) هيغل ومـاركس؟ ثم لماذا ترى الفلسفة الاسلامية اجتماع الضدين محالاً في الوقت الذي يرى (ديـالكتيك) هيغل وماركس إجتماعَ الضدين اساساً للتطور والتكامل؟!

الجواب: إن الإجابة على هذا السؤال تقتضي توضيح اصطلاحين شائعين في الفلسفة الاسلامية احدهما (تناقض) والآخر (ضد)، لأنه في الحقيقة أن عدم الفرق بين هذين الاصطلاحين فاجعة، والهيغلية والماركسية لا تفرقان بينهما.

والمقصود من (التناقض)، هـو وجود شيء وعـدم وجودِهِ في زمـان ومكان معين، أو اتصاف شيء بوصفٍ في زمانٍ ومكان خاص، وعدم إتصاف ذلك الشيء بذلك الـوصف في ذلك الـظرفين. وعقلياً لا يمكن الجمـع بين هذين الشيئين، والعقل يدرك بوضوح أن وجود (زيد) وعدم وجودِهِ في مكان معين وزمان خاص لا يمكن الجمع بينهما، مثلاً أن شخصاً يكون في دائرتِهِ، وفي غرفته في تمام الساعة الثامنة وخلف مكتبِهِ، ثم لا يكون في نفس الوقت. أو أن أرسطو يكون في حلقةِ درس أفلاطون في أثينا، ولا يكون هناك في نفس الوقت. إن هذين التقريرين لا يمكنهما أن يكونا صحيحين. ولا بد أن يكون احدهما كذباً وغير صحيح. ولا يوجد أحد له ضمير أن يعقل ويقبل بصحةِ هاتين القضيتين.

الماركسية تقول: إنه يمكن الجمع بين التقريرين، بدليـل أنه صحيـح أن نقول: إن المطر ينزل، ولا ينزل المطر.

المقصود من الأول هو نزول المطر خارج الغرفة، والمقصود من الثاني عدم نزول المطر داخل الغرفة.

إن هذا الحديث لا يعدو اكثر من مغالطة، ويدل على أن الماركسية لا تعرف ألفباء المنطق. لأن من شروط تحقق (التناقض) وحدةَ الزمان والمكان، والقضيتان تلك تفتقدان الشرط المذكور هذا. هناك شروط اخرى لتحقيق التناقض تسمى (الوحدات الثمانية) أو (التسعة) لا مجال لذكرها الآن.

ما هو الضد؟ الموضوع المهم بعد الاطلاع على معنى (التناقض) هو معرفة معنى (الضد) والفصل بين (الضد المنطقي) و (الضد الفلسفي) والاطلاعُ على الاختلافِ بين هذين الضدين يحلُّ المشكلة.

ما هو الضد المنطقي؟

عندما يكون شيئان مختلفين تماماً في الكيفية والنوعية، يقال انهما في (تضاد منطقي) أو (تضاد كيفي)، مثلاً مائدة في الوقت الذي تكون مربعة الشكل تكون مثلثة أيضاً. أو يكون طرف ورقٍ ما أبيض يكون اسود أيضاً.

إن هذين النوعين من الكيفية والنوعية في الأجسام، بحكم الاختلاف الموجود بينهما لا يمكن الجمع بينهما، وإذا ما تجاوزنا السفسطة المشابهة للسفسطة التى كانت في مسألة (التناقض)، فإن استحالة الجمع بين هذين الضدين واضحة.

ليس فقط من أجل الكيفيات الجسمانية لا يمكن الجمع، وإنما الكيفيات النفسية التي تختلف بينهما بشدة لها نفس الحالة، مثلاً إن إنساناً ما لا يمكنه بالفطرة أن يكون شجاعاً وجباناً، لئيماً وسخياً، عفيفاً ومفسداً، إن هذه الصفات بالشكل التى هي عليها لا يمكن أن تجتمع في ظروف خاصة في أي إنسان.

يقول الشاعر العارف مولانا جلال الدين الرومي:

من گريزد ضدها ازضدها   شب گريزد چون برافروزد ضياء

وترجمة هذا البيت:

- يهرب الضد من الضد، كما يهرب الليل من الضياء.

التضاد الفلسفي: التضاد الفلسفي خلافاً للتضاد المنطقي، لا يرتبط بكيفيتين

عارضتين على الجسم أو موجود آخر، وإنما بتركيب الجسم من عناصر مختلفة، أو وجود قوتين مختلفتين في شيء، تسعى كل قوة إلى إبطال الأخرى ودمارها، إن اجتماع هذين الضدين هو اساس (الخَلْق)، لأن اختلاف الموجودات يأتي من اختلاف الذرات، وتنوع العناصر، حيث تظهر من تركيبها أنواع الموجودات. طبعاً المقصود من اجتماع هذه الانواع من (التضاد) ليس اجتماعها مع حفظ الشخصية والخصوصيات التي تمتلكها، وحضورها كاملة، وإنما بروز ظاهرة جديدة إثر تحطم شخصية كل واحد من النوعين إثر تفاعل العناصر أو الطاقة.

ليس فقط الانواع الطبيعية تخضع لهذا القانون، بل حتى المحلول الكيميائي أيضاً يظهر إثر تفاعل الاجزاء المتضادة.

يقول اميرُ المؤمنين الإمام علي (ع) في خلق الإنسان:

- (خلق الله سبحانه الإنسان) معجوناً بطينة الألوان المختلفة والأشباه المؤتلفة والأضداد المتعادية والاخلاط المتباينة من الحر والبرد والبلَّةِ والجمود...»[1].

ويقول صدر المتألهين: لولا التضاد لما صح الكون والفساد[2].

وهذا يعنى اذا كان العالم من ذرة واحدة، وعنصر واحد، لما حدث فعل وإنفعال، ولما ظهرت انواع مختلفة في العالم. لقد خلق الإنسان بقوى مختلفة ورغبات متنوعة، وتتصارعُ فيه القوى الرحمانية والقوى الشيطانية وتريد كل واحدة التغلب على الأخرى.

إن منظومتنا الشمسية تستقر على قوتين مختلفتين، قوة الإنفلات من المركز، والقوة الجاذبة نحو المركز، وهاتان القوتان في صراع مستمر، وهذا النظام نفسه موجود في الذرة.

الخلاصة ان المقصود من (التضاد الفلسفي) هو مساعي الاضداد لإيجاد الحقائق، أو تنظيم الخلق.

---

(١) الخطبة الأولى - ص ٤٢ طبعة صبحي الصالح - نهج البلاغة.
(٢) الأسفار ج ٧ ص ٧٧.

التضاد وفلسفة هيغل وماركس:

يضع هيغل لكل ظاهرة، خارجية أو ذهنية، ثلاث مراحل يمكن تسميتها الولادة، النمو، والتركيب. وهو يعتقد أن الأفكار الانسانية، والظواهر الخارجية تحمل في باطنها بذور الموت أو التضاد الداخلي، تؤدي بالتدريج إلى دمارها، ومع دمارها تبرز ظاهرة جديدة.

المرحلة الأولى لكل فكرة أو ظاهرة، هي الولادة، تسمى (تز) ولا يمضي وقت طويل حتى تبدأ هذه الظاهرة بالنمو، ومع نموها ينمو مخالف باطني له يعمل ضده يُسمى (انتي تز)، ثم بعد الصراع الضدي يظهر مولود جديد من تركيب ذلك الشيئين الظاهري والباطني اللذين يموتان مع ظهور الظاهرة الجديدة التي تسمى (سنتز).

حول ذلك يأتي بمثال؛ البيضة التي تتبدل إلى فرخة: المرحلة الأولى ظهور الظاهرة باسم (البيضة)، وبعد ذلك وتحت ظروف مخالفة في داخلها تتغير البيضة وتتبدل إلى فرخة، وعندها يحل اسم (فرخة) محلها نتيجة التضاد في (السنتز). وكأنه في البيضة كانت قوتان متضادتان، تحاول احداها الاحتفاظ بالظاهرة الأولى، والقوة الثانية تريد تبديلها إلى موجود آخر، إن هذا الصراع بين (تز) و (انتي تز) في الظاهرة الثانية تسمى (سنتز).

تعتبر الهيغلية، ومن بعدها الماركسية، الحركات جميعها نتيجة للتضاد الداخلي، حتى في تكامل النباتات والحيوانات والافكار، وكذلك المجتمعات يفسرونها بهذا التفسير. كما أن تاريخ الشعوب من وجهة نظرهم هي قوى متصارعة مع بعضها لإيجاد قوة اكبر.

وكما تلاحظون، أن المقصود من (التضاد) في كلام هيغل وماركس هو (التضاد الفلسفي) أو شبيهه، حيث تتصارع قوتان داخل فكرة أو مجتمعٍ، وتسعى كل واحدة للتغلب على الأخرى، ومع انتصار (أنتي تز) على القوة المخالفة الموجودة في (تز) يحدِث تحول جديد.

والعالم في مراحل؛ الفكرة والظاهرة والمجتمع يقوم على أساس تسلسل الولادة والتنازع والتركيب.

إن هيغل يستفيد من هذا التحول في الأفكار والظواهر الطبيعية بينما كارل ماركس يستخدم ذلك في التحولات في المجتمع بالاستفادةِ من ديالكتيك هيغل لتفسير أفكاره الاجتماعية والثورية وهي رابطة تضاد هيغل وماركس مع التضاد المطروح في الفلسفة الاسلامية.

أما البحث حول تفسير التكامل في الافكار والظواهر الخارجية عن طريق التضاد الديالكتيكي، فله قصة اخرى، تحدثنا عنها في الكتب التالية:

١ ـ الفلسفة الاسلامية والمبادىء الديالكتيكية.

٢ ـ تحليل لفلسفة ماركس.

* * *

اشكالات هيوم الستة، والإجابة علىٰ إشكالين رئيسيين

إنتقد الفيلسوف الأنجليزي (هيوم) ـ برهانَ النظم ـ بستة إشكالاتٍ هي:

١ ـ إن (برهان النظم) لا يملك شروط برهان تجريبي، لأنه لم يجرب في غير هذا العالم.

٢ ـ ما المانع أن يُدارَ النظام الموجود في العالم الطبيعي من قبل علّة داخلية غير معروفة، أو بتعبير آخر، عن طريق نظام ذاتي للمادة؟!

٣ ـ من أين لنا أن نعلم أن النظام الموجود هو النظام الأكمل؟ لاننا لم نجد نظاماً مشابهاً لنقارن بينهما!

٤ ـ قبل أن يُصنع هذا العالم، من اين لنا أن نعرف، ربما صانعه قد جرب العالم عدة مرات حتى صنع العالم كما هو الآن!

٥ ـ إن هذا البرهان لو فرضنا أنه يثبت وجود خالق عالم قادر، فإن ذلك لا يدل على صفات الكمالية له مثل العدالة والرحمة و...

٦ ـ في الطبيعة توجد حوادث غير مطلوبة، كالعواصف وغيرها لا تتلاءم مع نظام العالم وحكمة الخالق.

ما هو جواب الفلاسفة المسلمين على هذه الاشكالات؟!

أجوبة إجمالية

جواب الاشكال الأول: برهان النظم ليس برهاناً تجريبياً، وإنما برهان عقلي

وان دراسة ماهية نظام العالم تدفع بالعقل إلى القول: ان مثل هذا النظام لا يمكن أن يوجد عن طريق الصدفة، ولا بد من تدخل العقل والشعور في خلقِه.

جواب الأشكال الثاني: هذا الاشكال يتعلق بإمكان إيجاد نظام بواسطة علّة داخلية غير معروفة، أو كما يصطلح عليه باسم (النظام الذاتي للمادة)، هذا الموضوع يتعلق بمسألة (المميزات أو الخواص) وقد أُجيب عنه بتفصيل[1].

اشكاله الثالث والرابع والخامس، يدل على انه لم يكن مطلعاً على رسالة (برهان النظم) وتصوّر أن برهان النظم هو البرهان الوحيد في جميع العقائد المؤمنة بـ (الله) تبارك وتعالى يمكن بواسطته اثبات ذلك، في الوقت الذي هدف برهان النظم غير ذلك، بل هو اثبات أن نظام العالم لم يكن عن طريق الصدفة، بل وُجد عن طريق تدخل العقل والشعور وببرمجة، او بالأحرى أن للعالم فاعلاً عالماً قادرٌ، وأما أن يكون هذا (الفاعل العالم القادر) هو (الله) او بالأحرى (واجب الوجود) الأزلي الابدي ام لا؟ فهذا لا يمكن اثباتُهُ بـ (برهان النظم)، هنا يجب الاستفادة من دلائل اخرى مثل (برهان الامكان) او (برهان الإمتناع) او (برهان الدور والتسلسل) وقد جاء ذلك في الإجابة على الأسئلة الماضية.

الخلاصة إن (برهان النظم) يدل على وجود العقل والإدراك في خلق العلم فقط، وأما الخصوصيات الأخرى عن الخالق فلا بد أن يُطلب من دلائل اخرى.

وعليه فقد تصور (هيوم) أن (برهان النظم) له القدرة على اثبات جميع المعتقدات لدى الإلهيين على وجود (الله) تبارك وتعالى، بينما ليس من هدف لبرهان النظم سوى أن صانع العالم هو على علم وقدرةٍ واسعة، واما أن يكون الفاعل هذا (واجباً) او (ممكناً) - (قديماً) او (حادثاً) - (واحداً) أو (كثيراً) - (محدوداً) أو (غير محدود) - (علمه وقدرتُهُ متناهية) او (غير متناهية) - جميع كمالاتِه كاملة مرة واحدة) أو (هي تدريجية) - (معلوماته تزداد بالتجربة أو لا) - (عادل وحاكم ورحيم ورؤوف ام لا)... جميع ذلك يخرج عن هدف (برهان النظم)، وهذه مسائل يجب أن تلتمس من براهين اخرى.

---

(١) كليات (فلسفتنا) - الفصل الرابع والخامس.

بهذه المقدمة يتضح جواب الاشكالات الثالث والرابع والخامس والآن نجيب بشكل أكثر تفصيلاً عنها:

جواب الاشكال الثالث: كمال النظام لا يتعلق ببرهان النظم، فهدف رسالة (برهان النظم) لا يعدو اثبات وجود هدف لخلق العالم، وإنتفاء ظهور جهاز صغير كالعين مثلاً عن طريق الصدفة، والدليل على ذلك وجود علم وقدرة (فاعل قادر عالم) في خلق العالم، إن كان يُثبتُ (كمال) فعله أم لا فإن (برهان النظم) لم يأخذ على اثبات وصف الفعل.

جواب الاشكال الرابع: هذا الاشكال يتعلق بالعلم الكامل اللامتناهي لذاتِ الله عز وجل، وإن علمَه واطلاعَه واقع بالفعل (ذاتي) ولا يمكن معه وجود الامكان غير الفاعل، لأن العلم والاطلاع لا يكتسبها ولا يجربها لكي ينتقل الكامن الساكن الى فعل فاعل. وبعبارة اخرى؛ ان جميع علمه فاعل وليس كبقية الموجدات الامكانية الذين يكتسبون العلم بالتدريج، لكي يتدرج علمه من (الامكان) الى (الفعل). للفلاسفة قاعدة في هذا الباب بأسم (واجب الوجود بالذات واجب من جميع الجهات) ومضمون هذه القاعدة له برهان واضح يجيب على سؤال الاشكال الرابع.

جواب الاشكال الخامس: هذا الاشكال يتعلق بالصفاتِ الأخرى لله تعالى، كالعدل والرحمة، في الوقت الذي ليس (لبرهان النظم) اثبات لهذه الصفات، ولذا يجب اثبات هذه الصفات عن طريق آخر، سنبحثه في قسم الصفات، وسيتضح ان واجب الوجود يحوي جميع الكمالات، ولا يوجد كمال لا يتصف به.

جواب الأشكال السادس: من الممكن أن يتعلق هذا الإشكال بـ (برهان النظم)، لأنه يمكن القول: إن الحوادث المؤسفة، كالزلازل، والعواصف، والطوفان المخرّب كيف تتلاءم مع العقل والشعور والتدبير الفاعل؟

وعليه فإن إشكالَين من الأشكالات الستة تتعلق بـ (برهان النظم) ولكي يتم تحليل هذين الاشكالين بوضوح، فإننا سنقوم بتحليل هذين الإشكالين بصورة مستقلة، لكي يتبين أن هذين الاشكالين لا يمكنهما أن يقوما بإلحاق اي ضرر صغير بـ (برهان النظم).

هل برهان النظم برهان تجريبي؟

أوضح الادلة على اثبات الصانع هو (برهان النظم)، ويشكل اساس هذا البرهان الشبه الموجود بين (مصنوعات الطبيعية) و (مصنوعات الانسان)، وخلاصة ذلك؛ إن العالم من حيث التركيب والتأليف اشبه باجزاء بيت او ماكنة، تقوم قوة بربط اجزائها للحصول على سلسلةٍ من الأهداف والفروض.

والآن يأتي هذا السؤال؛ هل اساس هذا البرهان يُشكلّه (شبه) المصنوعَين الذي يُسمى لدى المنطقيين باسم (تمثيل)؟! أَمْ (تماثل) المصنوعَين يُصطلح على قسمتها (تجربة) او (امتحان)؟! ولـدى كلا هـذين الفرضين يبقى (البـرهان) بـلا نتيجة.

وإذا استنتجت أن (العـالم مخلوق موجـود واعٍ على اساس شبـه الطبيعي بالمصنوع البشري، بغض النظر عن أن الإثنين غير كامل، يجب القول إن الشبه وحده لا يجلب العلم واليقين، ويقول علماء المنطق: (التمثيل الذي يكـون فيه استنتاج حكمٍ مشابه من حكم مشابه آخر، فإنه لن يحصل اليقين). وإذا كان مثل هذا الاستدلال استدلالاً تجريبياً وامتحانياً قائماً على اساس (التماثل)في المصنوع البشري والطبيعي فلا بد أن يكون مشتملاً على شروط التجربة بينما الأمـرُ ليس كذلك، لأن أحد شروط التجربة تكرار العمليات، أي انه يجب صنع عوالم بهذا الشكل وبهذا النظام من قبل موجودات عالِمة قادرة، ثم بمشاهدة عالم مثل العوالِم التي جُـرِّبت، ويصدرُ الحكمُ بـأن هذا العـالم له علة عـالمـة قـادرة مثـل بقيـة العـوالم أيضاً. بينما مثل هذه التجربة بـالنسبة للمصنـوعات البشـرية قـد تمت في صنع البـواخر والبيوت والمدن، ولكن بالنسبة للعالم لم تتم مثل هذه التجربة، والعالم بالنسبة لنا اول مصنوع طبيعي نواجهه ولم نشاهد من قبل نظيراً له.

الجواب: هذا الاشكال طرحه (ديفيد هيوم) الفيلسوف الانجليزي (١٧٧٦ ـ ١٧١١) في كتاب بأسم (محاورات حول الدين الطبيعي)، وهذا الإشكال ورد ضمن انتقادات اخرى في كتاب (كليات الفلسفة) بقلم (ريتشارد پاپكين) و (لوروم استرول)، ونحن هنا نجيب في هذا البحث على الانتقاد الوارد في السؤال، وإجابة الانتقادات الأخرى نتركها لما بعد.

اولاً نذكرٌ في مقدمةٍ بالتعريف عن ادوات المعرفة:

الادوات الأربعة للمعرفة:

ـ الحس: لا شك أن (الحس) هو احدى الادوات للمعرفة، و (الاستدلال الحسي) هو أن تؤخذ جميع المقدمات من (الحس)، فعندما يشاهد الإنسان، عن طريق الحس، أن تركيب عنصرين يولد الماء، وأن تركيب (الكلور) و (الصوديوم) يولد الملح، فإن مثل هذه المعرفة؛ تسمى (المعرفة الحسية). ونحن اذا قمنا بهذا العمل مرةً واحدة، فإننا نصل إلى نتيجة جزئية ولو عن الماء والملح الذين اجرينا عليهما العمليات، رغم أن وسعةَ الحُكمِ في هذا الباب تحتاج إلى عمليات مكررة.

٢ ـ التمثيل: المقصود منه، هو (القياس) في المفهوم المنطقي، أي أن نكتشف حكم فرد مشابه من مشابه آخر، مثلاً نحن نعلم أن الخمر محرمة في الاسلام، ولكن لنفترض اننا لا نعرف الحكمَ بالنسبة (للبيرة ـ الفقاع) ونظراً للشبه بين الاثنين، وهما مسكرّتان، فإننا نقول إن الثانية حرام أيضاً، إن مثل هذا الاستدلال الذي يقوم على (التشابه) نسميه (التمثيل) أو (القياس الفقهي).

٣ ـ الاستقراء: إن عماد الاستدلال في (الاستقراء) يشبه (التمثيل)، ولكن في (التمثيل) يكون الشبه بين شيئين، بينما في الاستقراء يكون شبه شيء واحد مع عدة أشياء. مثلاً عندما نشاهد شوارع مدينة ما نظيفة فإننا نعتقد أن الشوارع الأخرى التي لم نشاهدها انها كذلك، إن مثل هذا الاستدلال يُسمَى (استقراء)، وقد ثبت في المنطق أن (الاستقراء) ناقصٌ غالباً ولا يفيد اليقين، والفرق بينه وبين التجربة سيتضح الآن.

٤ ـ التجربة والامتحان: اي اجراء عمليات خاصة على افرادٍ من طبيعةٍ واحدة وليس على جميع الأفراد. واما لأن أفراداً آخرين لم يجرِ عليهم الامتحان فإنهم سيكونون (مماثلين) للأفراد الذين أُجري عليهم الامتحان، وبالتالي سيكون الحكمُ على جميع الأفراد، ولأنه من غير الممكن أن يكون شيئان متماثلين من جميع الجهات فلا يمكن أن يكون الحكم مختصاً بشخصٍ واحد. ولهذا فعندما امتحنا افراداً من مجموعة مراراً ورأينا مثلاً أن الحديد ينبسط في درجة حرارةٍ معينة ثم أعدنا التجربة مرات كثيرة فنعلم أن انبساط الحديد نتيجة للحرارة، في هذه الحالة نوفق للحصولِ على إكتشافِ قانونٍ عام.

وعليه، إن محور الحكم في (التمثيل والاستقراء) مشابه، بينما ملاكُ الحكم في التجربة، والتماثل، والوحدة وبين جميع الأفراد ذوي الطبيعة الواحدة في جميع المختصات.

تذكرُ مع ملاحظة هذه الانواع الأربعة التي تشكل ادوات المعرفة، أن (برهان النظم) الذي هو احد أوضح البراهين العامة في (علم معرفة الله)، ليس برهاناً حسياً حتى تأتي مقدماته من الحس، وليس من مقولات (التمثيل والاستقراء) حيث يكون مَلاكُ الحكم فيه (الشبه) بين مصنوعين او اكثر، وليس (برهاناً تجريبياً) حيث يكون مبدأ الاستنتاج فيه تماثل افراد ذوي طبيعة واحدة، وإنما (برهان عقلي) محض، حيث يقول شخص، بعد مطالعة ودراسةِ ماهية النظام ـ الذي سيأتي بيانه الآن ـ وبحساب دقيق : لا يمكن ايجاد اجهزة معقدة ودقيقة جداً بدون تدخل عقل وشعور، واما من اين وكيف يحكم العقل مثل هذا الحكم ويُصدرهُ فإنه سيتم شرحه في المقدمة الثانية من مقدمتي (برهان النظم).

إن تقرير (برهان النظم) بصورة (استدلال تمثيلي) أو (برهان تجريبي) لا يعدو تقريراً طفولياً كان رائجاً في عصر الحكيم الأنجليزي (هيوم) والحكماء المعاصرين له في الغرب، ونظراً للضعف الذي كان سائداً على (إلهيات) الغرب، فإن (برهان النظم) ظهر بالشكلين التاليين. ونفس هذين الشكلين او التقريرين كانا سبباً لاعتراض عالم مثل (هيوم):

أ ـ العالم من حيثُ (النظام والتنسيق) لإجزائِهِ، يشبه المصنوعات البشرية مثل (البيت) و (الباخرة)، لذا يجب مثل مشابهه (المصنوعات البشرية) أن يَكون له صانع عالَمٌ قادرٌ.

ب ـ لقد اثبتت التجربة والامتحان أن النظم في الصنائع البشرية لا يمكن أن توجد بدون تدخل العقل والشعور، ولا يمكن أن يوجد بيتٌ، او مصنع، او مدينة، او باخرة بدون علم وقدرة، بعد ذلك وعن طريق وجود (مثال) بين الطبيعة والمصنوعات البشرية لا بد من الاعتراف بتدخل الشعور في ايجاد نظام العالم.

إن هذين التقريرين عن (برهان النظم)، إن كانا على اساس (التشابه) او على اساس (التماثل)، من التقارير الناقصة والساذجة التي تُتداول في الغرب، لفقدان رسالةٍ جامعةٍ في الإلهيات.

هذا في الوقت الذي لا علاقة لبرهان النظم بأي واحدٍ من هذين التقريرين، وإنما هو برهان عقلي ومنطقي مائة بالمائة، والعقل بعد محاسبة دقيقة يُصدر حكمه بصورة قاطعة في أن هناك رابطة علمية ومنطقية بين وجود (النظم) وتدخل العقل والشعور، ولا يمكن ابداً أن تظهر نظم بدون وجود عقل.

والآن حان الوقت لكي نقدم مقدمتين لتوضيح (برهان النظم):

المقدمة الأولى: أمرٌ حسيٌ تماماً، وينتج عن المشاهدات ونتائج العلوم التجريبية، ويشكل (صغرى) البرهان.

المقدمة الثانية: برهان عقلي، وهو (كبرى) القضية، وله اهمية بالدرجة الأولى وبما أن (صغرى) البرهان حسي لا يُلحق ضرراً بعقليةِ (البرهان)، فهو تماماً مثل مثلثٍ نحصل عليه عن طريق الحس. بعد ذلك وبحكم العقل والبرهان العقلي نقول إن زواياه الثلاثة مساوية لزاويتين قائمتين، أي ١٨٠ درجة، في هذه الحالة، الموضوع، وكما يقول علماء المنطق، يأخذُ (صغرى) من الحس، بينما الحكم الكلي، او (كبرى) البرهان، ليس له من اصل غير العقل والذكاء.

والآن لنبدأ بتوضيح مقدمتي (برهان النظم)، ثم نثبت أن ماهية البرهان استدلال عقلي مائة بالمائة (أي قياس منطقي).

١ ـ العالم غارق في غطاء من النظام:

إن المشاهدات العينية وجميع النتائج للعلوم الطبيعية والفلكية تثبتُ أن نظاماً عجيباً يتحكم في هذا العالم ومن بناء أصغر ذرةٍ فيه (الذرة) مع بنائِها المعقدّ وحتى المنظومات الكبرى في السماء، وكل ما نعلم في هذا الكون يخضع لنظام دقيق وبحساب كامل، وهذا ما يؤكدُه علماء جميع الفروع في العلوم الطبيعية والفلكية.

هذه هي المقدمة الأولى حيث نستفيد لاثباتها من الحس ونتائج العلوم التجريبية. ودور (الحس) ونتائج العلوم هنا فقط لإثباتِ مبدأ (النظم) في الطبيعة وعالم المادة، ولا يتجاوز هذه المرحلة.

واما من هو خالق هذا النظام. وما هو معلول هذا النظام العجيب؟ في هذه المرحلة لا يوجد ادنى تدخل للأدواتِ المذكورة، بل إن هذه هي منطقة العقل والذكاء، لإنتخاب إحدى النظريتين.

إما أن يقول بعدم امكانية وجود نظام على شكل أجهزة معقدة ودقيقة للغاية بدون تدخل مبدأ العقل والشعور، وبدون قيادة علمية واسعة أو يقول إن هذا النظام البديع ظهر عن طريق (الصدفة).

إننا هنا، نترك الحكم للعقل والذكاء ليصدر حكمه القاطع مع طرح المقدمة الثانية.

٢ ـ الارتباط المنطقي (للنظم) بتدخل (الشعور):

إن العقل يدرك بوضوح وجود رابطة منطقية وحسّية ورياضية، بين (النظم) و (العقل)، وبين (التنسيق) و (الوعي)، وبين (الهدف) و (الشعور). ولا يعقل ابداً ظهور الأول بدون الثاني. وهذه الرابطة تتضح اكثر إذا ادركنا واقعية النظم في (عالم الطبيعة) ونتجه لتحليل (التنسيق) بين اجزاء ظاهرة لتحقيق هدف شخصي، وندرس اهداف الظواهر، في هذه الحالة يُصدرُ (العقل) حكمه القاطع بدون استعانة بأي نوع من (التشابه) او (التماثل).

والآن اليكم بيان واقع (النظم) أي ـ التنسيق الحاكم على الطبيعة ـ و (اهداف الظواهر)، التي تدخلُ جميعها في بيان مراتب (النظم):

واقع (النظم) كظاهرة طبيعية لا يعدو اجتماع اجزاء مختلفة من حيث الكيفية والكمية حول بعضها البعض لتحقيق هدف معين بالتعاون فيما بينها. و (النظم) بهذا المعنىٰ مشهود تماماً في ظاهرةٍ باسم (الرؤية) لأن جميع اجزاء العين من البؤبؤ وحتىٰ الشبكية والسوائل المختلفة واعصاب الرؤية والعضلات التي تُكمل حركات العين قد اجتمعت (كماً وكيفاً) بصورةٍ خاصة حول بعضها البعض وتتعاون بشكل منسّق لتحقيق هدفٍ معين باسم (الرؤية). ولو أن هذا التعاون والتنسيق او النسب المختلفة للأجزاء، من حيث الكيفية، لم يتحقق، او بعد التحقق أُصيب بضرر، لما تحقق (الهدف).

نفس هذه الشروط مسيطرة ايضاً بالنسبة لمقر قيادة دولة الجسم (أي المخ) والجهاز الهضمي والمراكز الأخرىٰ كالقلب والكبد والكلية واعضاء الجسم الأخرىٰ، وحتىٰ في بناء الخلية، وما تضم من عجائب محيرة، والعالم الغامض الكامن في (الذرة)، وكلّها تخضع لمراتب (النظم) منذ القدم، وكل جزءٍ في هذه الاعضاء المختلفة، من حيث الكمية والكيفية، بميزاتِها الخاصة ظهرت، وتحت ظل التعاون والتنسيق تؤدي هدفاً معيناً، وإذا لحقت بها اضرار، أو أقل ضرر، وتفقد هذه الأجزاء الانسجام فيها، عند ذاك ينتفىٰ الهدف. إذن (النظم) بهذا المعنىٰ؛ موجود في جميع الظواهر الطبيعية، ولا يمكن لأي عالِم أن ينكر ذلك.

والآن حان الوقت لكي يُصدر (العقل) حكمه علىٰ هذه (الظواهر) بعد تحقق مثل هذا الواقع فيها.

العقل في هذا الموقع يفكر هكذا ويقول: إن هيكل كل واحدة من هذه (الظواهر) يدل على نوع معين من المحاسبات والقياسات، ومن المستحيل أن تكون مثل هذه المحاسبة وليدة الصدفة العمياء، وأن تقومَ هذه الصدفة بإيجاد التناسب الموجود في الاجزاء المختلفة لهذه (الظواهر) من حيث الكمية والكيفية

وخلق التعاون والتنسيق بينها لتقوم (بالنهـاية) بتحقيق الهـدف من وجودهـا، لأن (الصـدفة) عامل غير واعٍ وأعمىٰ، والمحاسبة والقياسات ومراحل (النظم) الأخرىٰ وليدة العلم والوعي والدقة والمحاسبة، وفقط ينتج عن العلم والقدرة، وفي هذه الحالة كيف يستطيع عامل غير واعٍ أن يؤدي عمل عامل واعٍ ؟!

من جهة اخرىٰ، العقل والفكر، في كل (ظاهرة) منظّمة يلمس ثلاثة عناصر: ١ ـ التخطيط، ٢ ـ القيادة، ٣ ـ الهدف.

وهذه العناصر الثلاثة مشهودة في كل واحدةٍ من هذه الظواهر في العالم، من الذرة وحتى المنظومات في الفضاء.

هذا من جهة ومن جهة اخرى، فإن منح العينية لكل واحد من هذه العناصر الثلاثة، محاسبةً وقياساً، تحتاج لإنتخاب اجزاء (الظواهر) من حيث الكمية والكيفية والنظرة الصحيحة والتنسيق، بشكـلٍ لو أن إحـدىٰ هذه العمليـات لم تُنجز فـإن (النظم) يُصابُ بالخلل، وماهيـة مثل هـذه العمليات لا تنفـك عن الفكر والعلم والوعي، ولا يمكن تفسير مثل هذه العمليات بانها جاءت عن طريق (الصدفة) ابداً، والصدفة هي النقطة المضادة لمثل هذه العمليات.

وبناءً علىٰ هذا توجد رابطة عقلية بين نظم (الظاهرة) وتدخل الشعور، والفكر بمطالعةِ ودراسةِ ماهية وعمل وشؤون (الظاهرة) يكتشف مثل هذه الرابطة والعلاقة، ويرد أي نوع من الأفكار التي تخالف هذه النظرية بشدة.

في هذا الحكم اولاً؛ مسألة (شبه العالم) بالباخرة او البيت، غيـر واردة، ثانياً؛ ولا دخل للتجربة والامتحان في ذلك، وإنما دراسة الواقع المسلم به للنظم في العالم تقود الإنسان إلى هذه الرابطة، وتقول: إنه من المستحيل أن مثل هذا النظام البديع والعجيب، الذي يدل بكلِهِ على وجود محاسبة ومقـايسة وانتخـاب وقيادة وتعاون وتنسيق وهدف، يكون وليدة عامل أعمىٰ وأصم وجاهل، وغير واعٍ، وإنما حقق هذا الوجود عقل وشعور يسمو علىٰ (عالم المادة) بمراحل.

هذا هو منطق العقل، وفي ظل هذا الحكم؛ (الظاهرة الطبيعية) و(الظاهرة

المصنوعة) سواسية، ولا يمكن ان يصبح المصنوع البشري اساساً وطريقاً لكشف المظاهر الطبيعية المنظمة، وإنما جميعها امام حكم العقل متساوية وفي مكانةٍ واحدة، ودعامة حكم العقل دراسة ماهية النظم في جميع الموارد، الصناعية والطبيعية، وتدل ماهية النظم بوضوح علىٰ أن هذا العمل عملٌ عقلاني ومدروس وليس عن طريق (الصدفة).

وإذا لم يصدق العقلُ أن أجزاءً مختلفة مصنوعة باسم (ساعة) برزت إلى الوجود وبين هذه الأجزاء تعاون وتنسيق. وإذا لم يقبل العقل ايضاً أن جهاز محاسبة لم يظهر بدون محاسبة وتخطيط وانتخاب، وإذا لم يقبل العقل أن مصفاة لا يمكن أن توجد دون تخطيط واسع وطويل ومهندسين وخبراء وتقنيين؛ فلأن جميع هذه قد وُجِدَتْ على قاعدة كلية، وهي دراسة ماهية العمل. فإذا قام بناء بنظمٍ ومحاسبة وانتخاب وتعاون وتنسيق وهدف، فإن الماهية بلسانها التكويني، وهي أوضحُ من كل لسان يقول: في (إيجادي) للعقلِ والفكرِ والشعور والإدراك والعلم والوعي دخل في ذلك، وليس عن طريق (الصدفة).

إن العقل يُصدرُ هذا الحكم عن العالم الغامض للذرة ولخلية الإنسان، والمخ والقلب والأعصاب، وكذلك عن الارتباط والتعاون الوثيق والتنسيق بين كل واحدة من هذه الأجزاء، وحتى المنظومات الكبيرة في الفضاء.

وفي هذا الحكم ليس من حاجةٍ سوى دراسة الظاهرة الطبيعية والمصنوعة وليس شيء آخر.

حساب رياضي:

البعض يتجهون الى (حساب الاحتمالاتَ) لتوضيح حكم العقل، ومن هذا الطريق يُصبح حكمُ العقل اوضح تعبيراً، وهذه المحاسبة قام بها العالِمُ المعروف المسمى (كرسي موريسون) في كتابه (اسرار خلق الإنسان) وخلاصتُه: إن احتمال إيجاد هذا النظام الصغير في (ظاهرة) عن طريق (الصدفة) احتمالٌ ضعيف جداً امام الاحتمالات العديدة الأخرى، ولا يقبل العقل ابداً الإذعان بايجاد (نظام الوجود) عن ذاك الطريق، ولا يمكن القول: عن طريق الصدفة ومن بين مليارات الصور

التي ظهرت، كان بامكانه أن يظهر في احدى هذه الصور التي لا تؤمّن أية واحدة منها هدفاً خاصاً. وإنما الصورة الوحيدة المقبولة هي تلك الصورة التي تحقق هدفاً معيناً. مثلاً إيجاد الحياة على وجه الأرض، وهذا ما يحتاج إلى أوضاع واحوال مساعدة بحيث يستحيل معها حتى بالامكانات الرياضية تصور أن مثل هذه الاوضاع والأحوال تكون عن طريق الصدفة، او بالاحرى ليس بالامكان أن تكون الشروط والظروف جميعها، اللازمة لظهور وإستمرار الحياة، تتواجد في آن واحد فوق كوكب ما. ولهذا ترانا مجبرين أن نقول إن هناك قوة مدركة خاصة تشرف على سير الأمور، وعندما نعترف بهذه النقطة فلا بد أن نعتقد أن هناك هدفاً خاصاً لجمع وطرح ووجود الحياة.

إنه قد قام بهذه المحاسبة في اقسام من (الظاهرة). وبيّن استحالة وجود هذه النظم عن طريق (الصدفة). إنه يقول عن العين: إن جميع هذه التشكيلات العجيبة، من الحدقة وحتى الستائر المختلفة للعين واعصاب الرؤية والعضلات التي تُكمّل حركة العين، لا بد أن تكون موجودة في آنٍ واحد، لأنهِ إذا نقص واحد من هذه الأنظمة المعقدة، فإن (الرؤية) في العين تكون مفقودة، إذن كيف يمكن أن نتصور أن تجتمع هذه العوامل من تلقاء نفسها بعضها بالآخر، وأن كل واحد نظّم نفسَه بشكل يفيد القسم الآخر ويزيل ما يحتاجُهُ، إن حسابَ مثل هذه الاحتمالات ينفي هذا النوع من (الصدفة).

المعرفة الموجودة في الآيات:

لدينا في الفلسفة الاسلامية (معرفة) تسمى بـ(المعرفة الآيتية)، وهي؛ إن الإنسان من مشاهدةِ علامة (يتعرّف) على صاحبِ تلك العلامةِ، ومن معرفة (آيةٍ) يتعرّف على صاحب (الآية)، ومثل هذه المعرفة تملأ حياة الإنسان، ويعتبرها الجميع صحيحة وقوية.

وفي المعرفة الآيتية، يحدث احياناً أن تؤدي معرفة موجودٍ طبيعي إلى معرفة موجود آخر، أي أن الإحساس المستقيم بالطبيعة يدفعنا إلى معرفة فئة أخرى من تلك الطبيعة، دون أن نشاهد الثاني (الفئة الثانية). واحياناً تؤدي معرفة الطبيعة إلى

معرفة سلسلةٍ من الأمور غير الطبيعية وعالم خارج عن المادة والطبيعة، ونحن نذكر نماذج من هذين النوعين من المعرفة؛ والقرآنُ الكريم يعتمد كثيراً على هذه الأنواع من المعرفة، ويقول:

- ﴿ومن آياته أنْ خَلَقَ لكم من أنفسِكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾[1].

- ﴿ومن آياتهِ منامُكم بالليل والنهار وآبتغاؤكم من فضله﴾[2].

﴿ومن آياتهِ خَلْقُ السمواتِ والأرض وما بثَّ فيهما من دابّة﴾[3].

انكم اذا لاحظتم مجموع الآيات التي تدل على صاحب الآيات لرأيتم أن الهدف من جميع هذه الآيات هو معرفة سلسلة من المعاني والمفاهيم من خلال سلسلة من المشاهدات والمعارف الحسية، بحيث أن الانتقال من معرفة إلى معرفة أخرى لا يحتاج إلى معرفة ما وراء الطبيعة، ولكن الإنسان في معارفه لسلسلة من المعارف الطبيعية ينتقل إلى سلسلةٍ اخرى من المعارف الطبيعية (ويكون هو في تلك اللحظة خارج حدود الحس)، وهذا الانتقال يشكل أحد أعمدة العلوم الفعلية وغير التجريبية للبشر، والانتقال في الحالتين متشابه، ولا معنى أن نعتقد ان احد الانتقالين صحيح والآخر غير صحيح، وسنثبت الآن أن معارفنا في هذا العالم، هي من امثال (المعارف الآيتية)، أي من نفس نوع المعرفة الذي نتعرف بها على الروح، والملائكة، والله سبحانه وتعالى، وإذا كانت نماذج من امثال هذه المعارف موجودة في ادراكاتنا (انتقال من معرفة الأمور الطبيعية إلى المعارف الطبيعية الأخرى) فلا يجب أن نشك في صحة تلك المجموعة من المعارف (انتقال من معارف الأمور الطبيعية إلى معارف امور غير طبيعية).

وسنرى الآن ان هاتين المجموعتين من المعرفة ليس لهما ارتباط بالمعرفة التجريبية، لأن التوسع في هاتين الحالتين هو في عمق المعرفة وليس في عرضها وطولها والمعارف التجريبية ترتبط بذلك النوع من المعرفة التي تتوسع افقياً وليس عمقياً.

---

(١) سورة الروم الآية «٢١».
(٢) سورة الروم الآية «٢٣».
(٣) سورة الشورى الآية «٢٩».

والآن نذكر نماذج من هذه الحالة:

نماذج من المعارف الآيتية والعلامات:

١ ـ إذا كان وجود شيء دليل على وجود (علّة) و (ظاهرة) ذلك الشيء فإن صفات ذلك الشيء ايضاً دليلٌ و (آية) من خصوصيات ومميزات (علّة) الشيء نفسهِ.

٢ ـ مثلاً لم ير أحدٌ منا الفردوسي وسعدي وحافظ، ولكن من مطالعتنا المؤلفات الأدبية والاجتماعية والعرفانية لهم نتعرف على ذوقِهم الخلّاق الذي ترك لنا مثل هذه الآثار القيمة التي لا مثيل لها.

لم يتلمس احدٌ منا ذوقَ سعدي، وقريحة السرد القصصي للفردوسي والذوق العرفاني الجذاب جداً لحافظ، كما لم ندرك بالحواس الأخرى، ولكن من بين اثارِهم ادركنا المميزات النفسية لهم، ونقول: إنه من المستحيل أن يترك افراد عاديون ولا يملكون قريحة شعرية، ولا يعرفون شيئاً عن القصص وكيفية سرد القصص، او اشخاص بعيدون عن المسائل الاخلاقية والاجتماعية والمعاني اللطيفة للعرفان، أن يتركوا مثل هذه الآثار النفسية وراءهم.

٣ ـ كتاب (الثناء) وكتاب (القانون) لأبي علي بن سينا، الأول في الفلسفة والثاني في الطب، ما آية نبوغِه في الفلسفة، وعلامة على معلوماتِه الواسعة في الطب، ونحن بمشاهدتنا لآثارِه العلمية نصلُ إلى حقيقة تكمن وراءها، وهي اطلاعه الواسع على الفلسفة والطب. وهذا النوع من الاستدلال نعتبره متقناً.

٤ ـ نتحدث عن الماضين وندرك من خلال لقائنا اجتماعياً مع افراد آخرين، صفاتِهم مثل العلم والإيمان والعاطفة والصدق او عكسها. مثل هذه المعرفةليست معرفة حسيةً مباشرة، ولا من قبيل المعارف التجريبية، وإنما يستدل الإنسان من خلال تصرفات الاشخاص على معنوياتهم وخصائصهم الروحية فيُعمق معرفته.

الحقيقة لا يمكِن تجربة وامتحان حُسن وقُبح صداقة وعداوة الأشخاص وإنما عن طريق استدلالي (وآيتي) نقف على وجودهم المؤثر وصفاتهم، يقول الشاعر العربي:

إن آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

برهان النظم هو معرفة آيتية:

يدرك الإلهيون عن طريق المشاهدة لنظم العالم، وعجائب الطبيعة والنظم البديع الموجود في عالم المادة بإحكام، يدركون خالق (النظم) والعقل الواسع والمدبِّر لخالق النظام والعلم والقدرة.

إن مشاهدة (اهداف العالم وتنسيق الظواهر المختلفة) عن طريق تربية الإنسان او ذوات الحياة[1]، تدل على أن العالم له فاعِلٌ عالِم ومدير واعٍ، خلق اجزاء العالم بانسجام بحيث انها مرةً واحدة ظهرت واوجدت نطفةَ الحياةِ وبقاء الإنسان وذوات الحياة.

إن المادي، امام هذا الاستدلال، يغالط ويستخدم منطقاً طفولياً ويقول:

- في محيط العلم لا يوجد أثرٌ لله (سبحانه وتعالى).

كما يقول عن الروح ونفس الإنسان: لا يوجد اثر للنفس تحت سكين الجراحين، او يقولون: اننا لم نجرب هذه المسألة في الطبيعة.

إن هذه المجموعة قد قبلت في محيط حياتها آلاف العلوم غير التجريبية كالأمثلة السابقة ومئات النماذج الأخرىٰ، وبنوا آمال حياتِهم على هذه العلوم. ولكن عندما يأتي الكلام الى (الله) عز وجل واثبات وجودِه عن طريق هذه العلوم والمعارف فانهم يلجأون فوراً إلى البحث والجدل، ويكررون مغالطاتهم القديمة من قبيل (عدم الرؤية دليل على عدم الوجود)، في الوقت الذي أن مجموع تاريخ البشر، ومعرفة الشخصيات السياسية والعلمية والعسكرية في التاريخ غير ملموسة لنا ولا محسوسة ولا عن طريق التجربة والامتحان، وإنما عن طريق الآثار والعلامات الدالة على وجودِهم ثبت لنا وجودُهم.

مميزات برهان النظم:

١ ـ برهان النظم، من حيث أن له اساساً حسياً من جهة، ومن جهةٍ اخرىٰ

(١) المقصود كل ما فيه حياة، من انسان وحيوان ونبات. (المترجم).

واضح لدرجة يمكن اثباته بعمليةٍ رياضيةَ، وهـو من البراهين الـواضحة حتىٰ أن المترددين في الاستدلالات الفلسفية يمكن أن يقتنعوا به.

٢ ـ برهان النظم لا يحتاج إلى إثبات النظم في سائر ارجاء العالم، حتىٰ عند اكتشاف نظام دقيق في جهةٍ ما، تكفينا لاستخلاص النتائج رغم أن بقية الجهات تبقىٰ مجهولة لنا.

عندما ندخل إلى مكتبة كبيرة، ونأخذ كتاباً يدرس ويستنتج موضوعاً مهماً، علمياً او أدبياً او رياضياً في فصوله وابوابهِ المختلفة، فإننا نتأكد أن هذا الكتاب نتيجة ذهن قادر، وليس كتاباً مشوشاً وجاء مصادفة من قلم شخصٍ أُمّي، رغم اننا لم نطالع بقية كتب المكتبة.

٣ ـ برهان النظم هو بـرهان بحت تمـاماً، ويـواكب التكامـل والإكتشافـات الجديدة، ويضع (الآيات) و (العلامات الجديدة) كدليل لاثبات الصانع أمامنا.

٤ ـ هـذا البرهـانُ برهـانٌ عام، ويمكن لأي شخص وحسب فكـرهِ ودرجةِ معلوماته أن يستفيد منه. وفي الحقيقة هو دليل مشترك بين ابسط الأذهان واذهان العلماء.

٥ ـ برهان النظم بإزالةِ الحجب عن المواهب العظيمة عن (الخلق) يُـوجد رابطة (عشق) عميق بين (المخلوق) و (الخالق)، ويفتح لسانَ المخلوق ويُشغـل فكرهُ، دون اختيار، بحمدِ وتسبيحِ الله سبحانه وتعالىٰ.

٦ ـ القرآن الكريم في ابحاثِهِ التوحيدية يعتمد قبل كل شيء على (بـرهان النظم) ليس في إثبات وجود الصانع، وإنما في اثبـات توحيـد الخالق، وتـوحيد الرب، ايضاً يعتمد على ذلك.

احياناً يمسك بيدنا ويدعونا للسير في الآفاق والانفس ويقول:

ـ ﴿سنريهم آياتنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم﴾[1].

---

(١) سورة فصلت الآية (٥٣).

- ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسِكم افلا تُبصرون﴾[1].

- ﴿إن في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلاف الليل والنهار... لآياتٍ لقوم يعقلون﴾[2].

٧ ـ بدليل إتساعِهِ وحضوره في جميع ذرات العالم، فإن الإنسان يغفل عنه يقولُ القرآن الكريم عن ذلك:

- ﴿وكأين من آية في السمواتِ والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾[3]

إن هذا البرهان بسيط وواسع لدرجة ان بعض الأشخاص لا يتوجهون إليه، مثل سقوط تفاحة من الشجرة التي لم ينتبه إليها أحدٌ واستطاع نيوتون أن يستفيد منه.

٨ ـ برهان النظم مثل بعض براهين (معرفة الله) يوضحّ بعض نواحي البحث أي أن لهذا العالم خالقاً عالماً وقادراً، وهذا يغلبُ على ما يقوله الماديون إن العالم مخلوق طبيعة تفتقد الشعور والعقل. وأما خالق العالم هو واجب الوجود او ممكن الوجود؟ يُرى ام لا؟ وامثال هذه الابحاث فإنها خارج عن نطاق (برهان النظم) ولا ترتبط به، وإنما يجب الإستفادة من براهين اخرى مثل (الامكان والوجوب) أو إبطال (الدور والتسلسل).

وفي (حساب الاحتمالات) فإن التأكد واليقين في مثل هذه المسائل لا يعني عدم وجود أي إحتمال مخالف، وإنما يعني وجود احتمال مخالف إلى جانب المخالف ضعيف لدرجة لا يحسب له العقل السليم حساباً، ومثل هذا الاحتمال في جميع العلومِ يساوي صفراً، وإذا اعتمد احد على مثل هذا الاحتمال فإنه يُعدّ غير عاقلٍ. مثلاً احتمال ان (القانون) و(الشفاء) لأبنِ سينا، وديوان حافظ، ومثنوي

---

(١) سورة الذاريات الآية (٢٠ ـ ٢١).

(٢) سورة البقرة الآية (١٦٤).

(٣) سورة يوسف الآية (١٠٥).

مولانا من تأليف شخص غير واع في الطب والفلسفة والعرفان وإنما أمسكوا القلم وكتبوا على الورق بالصدفة، وهذا احتمال يوضع إلى جانب احتمالات الصفر التي لو وضعت إلى جانبٍ بعض لوصلت إلى القمر، والإعتماد على مثل هذا الاحتمال جنون محض.

فرضيات العلوم:

يطرحُ العلماء اليوم فرضيات مختلفة عن خلق العالم، ظهور الأرض والموجودات الحية وامثالها لا تخرج كلّها عن نطاق الفرضيات، ويُتصَوَّر احياناً انه بقبول هذه الفرضيات لن تكون هناك حاجة لقبول أنَّ العالم وحياة الإنسان وَجدا بإرادة حكيم.

والآن نشير إلى فرضيتين، احداهما عن العالم، والآخر عن ظهور الحياة، ونثبتُ أولاً: إن هذه الفرضيات لا تعدوا كونها احتمالية، وثانياً بفرض صحتها فإنها ليس فقط لا تنافي (معرفة الله) بل انها دليل على إشرافِ عقل كلي على مثل هذه التحولات. إليكم شرح هذين الدليلين:

١ ـ **فرضية لايلاس**: يقول لايلاس: إن الأرض والكواكب الأخرى هي قطعات انفصلت عن الشمس إثر اقتراب كوكب عظيم من الشمس ثم بدأت بالدوران حول الشمس. والآن هل طبقاً لهذه الفرضية، يمكن أن يحدث هذا النظام دون اشراف فاعل، عالم وقادر؟!

وحول ايجاد الحياة على الأرض، إننا للوهلة الأولى نقبل أية فرضية تقترحونها، ولكن لا يمكن ابداً أن يقوم هذا النظام دون إشراف عقل كبير وحول هذا الموضوع يقول (كرسي موريسون): بعض الفلكيين يعتقدون إن احتمال اقتراب كوكبين لدرجة حدوث انفعالات فيهما وانجذاب احدهما للآخر هو احتمال واحد إلى عدة ملايين، واحتمال اصطدام كوكبين يؤدي الى تجزءتها وتلاشيها نادر لدرجة تخرج عن المحاسبة، ورغم هذا وطبقاً لنظرية مجموعة من العلماء الفلكيين إنه في زمن سحيق جداً، مثلا مليارا عام، ان كوكباً اقترب من الشمس لدرجة حدث جزر

ومدَ عظيم فوق سطحها فتطايرت قطعات منها في الفضاء الواسع، هذه القطعات هي كواكب المنظومة الشمسية، ورغم انها تظهر عظيمة لنا ولكنها في علم الهيئة لا أهمية لها (من حيث الصغر)، ومن جملة القطعات المنفصلة عن الشمس قطعة صغيرة نسميها نحن باسم (الأرض) ورغم انها في عالم الأفلاك كحبة خردل صغيرة، ولكنها في نظرنا نحن الارضيين أهم دنيا لنا أُكتشفت لحد الآن.

٢ ـ **ضجة الداروينية**: بعد ظهور نظرية تحوّل الأنواع اعتقد الماديون انهم حصلوا على قلعةٍ حصينة، وانهم يستطيعون عن هذا الطريق تفسير نظام العالم، وانه نظراً لأن مسألة التكامل تتم تدريجياً وخلال ملايين السنوات اذن فلا حاجة لقيادة عقل كلي.

إن قبول (التكامل التدريجي) لا يجعلنا مستغنين عن الاعتقاد بحاجة العقل، وإنما نظامُ تكامل الأحياء نفسه يدل على سلسلة من التخطيط حيث أن الموجود العاجز يصلُ الى تكامِله طبقاً لبرنامج وتخطيط. صحيح أن نظرية؛ التكامل التدريجي (الداروينية)، أو بشكل كلي ومرة واحدة (موتاسيون) تدعي أن قسماً من الأعضاء الجديدة يَظهر (صُدفةٍ)، وأحياناً يساعد هذا العضو بصورةٍ مؤثرة على بقاء النسل، ويعتبر، في غربال الانتخاب الطبيعي، بالنسبةِ لغيره الذين يفتقدون لمثل هذا العضو، وفي النتيجة يبقى هذا النوع بينما تزول الأنواع الأخرى، وبهذا الشكل فإن الأنواع تتكامل.

وأما الأشكال الكبيرة فتكون كما يلي؛ إذا كان هيكل جميع الأعضاء على شكل الغشاء البسيط الموجود بين أصابع البط، فإن هذه الحديث يدفع إلى تأمل، ولكن يحدث أن الأعضاء تكون معقدة ومتشابكة، وتكون مفيدة عندما يظهر العضو بشكل كامل، كجهاز العين، وعليه فإن الظهور التدريجي وبالصدفة لهذا العضو لا يساعدُ أبداً في بقاء ذلك الموجود لكي يخرج من غربال الانتخاب الطبيعي سالماً.

في هذا الباب، فإن لكتاب (اسرار خلق الإنسان) مواضيع مفيدة عن ظهور العين تثبت أن التكامل التدريجي ليس سبباً للنجاح في معركة الحياة.

الخالق الحكيم واسرار البلايا والمصائب

احد أهم البراهين المهمة لإثبات الصانع، هو وجود نظم ومحاسبة وقانون وبرنامج في عالم الطبيعة، وهذا ما يدل على أن (واجِد) العالم موجود عالم وقادر، ولكننا نشاهد إلى جانب (النظم) ـ اللانظم ـ وحوادث مؤسفة، لا تتلاءَم مع تدبير الصانع. مثل العواصف والزلازل و(المعارك) التي تنشبُ بين قسم من الطبيعة وقسم آخر من الطبيعة نفسها، وهذا ما يمنع أن نقول إن العالم ناشىء من عقلٍ سليم[1].

الجواب:

هذا هو الإشكال المهم الثاني للفيلسوف الانجليزي (هيوم) ـ (١٧١١ ـ ١٧٧٦) ـ الذي يطرحها في كتابِه المسمى (المحاورات)، وقد تحدث الفلاسفة الالهيون عن اعتراضِهِ في موضعين:

١ ـ فصل (معرفة الله)، حيث يطرح برهان النظم، يبحث حول ما يسمى (اللانظم).

٢ ـ عندما يتحدثون عن صفات الله، ويعتبرون (العدل) كاحدى صفاتِهِ، ويدرسون الحوادث المؤسفة التي لا تتلائم في الظاهر مع (العدل الإلهي). ولكن يجب أن نلاحظ أن هذا الاعتراض ليس جديداً، إذ أن الفلاسفة اليونانيين

---

(١) كليات الفلسفة، نقلاً عن كتاب محاورات هيوم الفيلسوف الأنجليزي، بحث البلايا والمصائب والشرور بامكانه أن يكون له رابطة مباشرة بالمسائل التالية:

١ ـ برهان النظم، وتظهر أمامه المصائب باعتبارها (اللامنظم).

٢ ـ حكمة الله، وفلسفة المصائب والبلايا التي لا تتلاءَم مع الحكمة.

٣ ـ عدل الله، حيث تظهر المصائب كنوع من الظلم على الإنسان الضعيف.

والمسلمين بحثوا كثيراً، لدى بحثهم حول (الخير) و (الشر)، ونقد نظرية (الثنوية) التي تُفضل خالق (الخير) عن خالق (الشر)، وبحثوا في الحوادث المؤسفة التي لا تتلاءم في الظاهر مع (العدل الإلهي). ولكن يجب أن نلاحظ أن هذا الاعتراض ليس جديداً إذ أن الفلاسفة اليونانيين والمسلمين بحثوا كثيراً، لدى بحثهم حول (الخير) و (الشر)، ونقد نظرية (الثنوية) التي تفصُل خالق (الخير) عن خالق (الشر)، وبحثوا في الحوادث المؤسفة باعتبارها (شروراً) في الطبيعة[1].

لن يقع التقصير علينا أو على الفلسفة الإلهية إذا كان (هيوم) غير مطلعٍ على ابحاث الفلاسفة المسلمين الواسعة ليتعرف على جذور الأبحاث والأجوبة المختلفة، والآن سنبدأ بتحليل جواب واحد ونترك التحليلات الأخرى الى ما بعد.

إن الجواب الإجمالي على هذه المسألة؛ هي إن الأشياء التي يعتبرها الانسان (شراً) و (غير موزونة) في المقارنة بـ (النظام الكلي) هي عين (النظم) و (الخير)، رغم انه خلال مقارنة صغيرة جداً تعتبر (غير منظم وشراً)، ويقول الشيخ السبزواري:

ما ليس موزوناً لبعض من نغم ففي نظام الكل محلٌّ منتظم

وبعبارة أخرى، إن جميع هذه الأحداث ليست شريرة كلُّها، وإنما هي شر نسبياً، وبالمقارنة مع النظام الكلي لها فوائد عظيمة، والأضرار بالمقارنة إليها تعتبر قليلة لا يُعتدُّ بها، ولشرح هذا الجواب نُذكرٍّ بموضوعين يساعدان القارىء على استخلاص النتيجة بسهولة:

١ ـ التفرد في التقييم: توصيف هذا النوع من الحوادث باعتبارها حوادث (شريّرة وغير سارة) أو (غير ذات نظم) إنما ينبع من الرؤية المحدودة للإنسان، وفي هذا التقييم يجعل الإنسان نفسهُ محدداً متفرداً بهذا التقييم والحكم ويقول: إذا كان للعالم ربُّ عالمٌ قادرٌ إذن ما هي (علّة) هذا (الاضطراب والتشويش واللانظم) مثل

---

(١) صدر المتألهين يبحث في (اسفاره) الجزء ٧ عن الخير والشر والمصائب في ٧ فصول بتحقيق.

العواصف والفيضانات والزلازل، أو خَلْق الحيوانات المفترسة، لماذا خلق هذه الحوادث السيئة وغير السارة؟ إن هذا الأنسان يأخذَ بنظرِ الاعتبار نفسه واطرافه ومن يحيطون به، ويغض النظر عن الأشخاص الذين يعيشون في المناطق الأخرى، او الذين كانوا في الماضي ومن سيأتون في المستقبل، هؤلاء ربما كانت هذه الحوادث لفائدتِهم ولصالحهم. إن هذا الإنسان ينظر الى مجتمعه فقط عندما تقتلع العاصفة بـاب منزِله، أو يشاهد طوفاناً يضرُّ بمجتمعهِ اضراراً مادية، ولكن ربما كانت هذه الحوادث حياتية بالنسبةِ لاشخاص آخرين في مناطق اخرى من العالم ولم يحسب لهم حساباً وإلّا لما اصدر حكمه وقيّم الحوادث بصورةٍ عاجلة.

إن مثل هذه الأحكام من قبل بعض الأشخاص اشبه بحكم عابر سبيل ينزعج من صوت ماكنة (بلدوزر) تعمل لتأسيس مستشفى، لأن هذه الماكنة تنشر الغبار الناتج عن عمل الماكنة فيزعجه فيصعب عليه التنفس، دون أن يعلم أن هذا العمل الذي يزعجه مقدمة لبناء مستشفى عظيم يستوعب في ليلة واحدة مئات المرضى، وهذا الشخص لو فكر في هذا الأمر وعلِمـه لما اعتبر الغبار مزعجاً أو شراً.

إن انزعاج مثل هؤلاء الأشخاص لهذه الحوادث، اشبه بانزعاج الخفاش في الضياء حيث يغمض عينيه ولا يرى الا في الظلام، بينما يساعدنا الضياء على رؤية الآخرين، عكس الظلام. فقد قال اميرُ المؤمنين (ع) عن الخفاش: «من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكلِ شيء ويبسطها الظلام القابض لكلِ شيء...»[1].

فهل حكم الخفاش بـالنسبة لـ(سـوء) نور الشمس الـذي هو اسـاس حياة الإنسان والعالم، حكمٌ قطعي ومطلق؟!

إن مخالبَ حيوانٍ مفترس، او لدغة سامة لحيوان، بالنسبة لنا عمل سيء وغير سار، ولكنه بالنسبة للحيوان عملٌ دفاعي يُبعد بواسطته العدوَ عن نفسه.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٥.

وعليه فإننا لو أسمينا هذه الأعمال بأنها (شر وغير سارة وسيئة) فإنما ذلك يتأتىٰ من (التفرد بالحكم والتقييم) الذي اوجدناه في نفوسنا فأخذنا ننظر الى كل شيء بمنظار صغير، واذا خرجنا من هذه الحالة وطرحنا المسألة بمساحةٍ أوسع فإن (حكمنا) يتبدل من (الشر المطلق) إلىٰ (شر نسبي) الذي هو في الوقت نفسِه (خيرٌ نسبي).

٢ ـ كل حدثٍ حلقة من سلسلة متصلة:

إن دراسة كل حدث، منفصلاً عن الاحداث الأخرىٰ، ليس منطقياً، لأن كل حدث يتعلق بما يحدث في نقطةٍ اخرىٰ من العالم ويرتبط به، وليس فقط مع الاحداث العرضية، وإنما مع كل الاحداثِ التي وقعت في اعماق التاريخ او التي ستقع في المستقبل، ولذا فإن الحكم في الخيرِ والشر والسار وغير السار لكل حدث بدون أخذ حلقة الاحداث الاخرىٰ بنظر الإعتبار وتقييمها مجتمعةً ليس صحيحاً ولا منطقياً. إن عالم الطبيعة مجموعة من عدة فروع من العلل والمعلولات في سلسلةٍ متصلة، حتىٰ أن النسيم الذي يهب في بيتك إنما هو فرعٌ من سلسلةٍ متصلة دائمة معقدة في احداث العالم تتصل كلها بعضها ببعض، ولذا فإن تقييم او الحكم على كل حدثٍ من حيث (الخير والشر) بدون تقييم المجموعة، غير صحيح ومردود، لأنه من الممكن أن لا يجلب حدث الانتباه او يعتبر غير سار، ولكن بأخذ الاحداث الاخرىٰ بنظر الاعتبار، والتي تتصل بها ولا تنفصل عنه، في العرض او الطول، ربما كانت له اثار ايجابية كثيرة. وفي الحقيقة من الممكن أن يتوضح هذا الأمر بمثالٍ او مثالين.

أ ـ إن الريح العاصف على ساحل البحر والتي تؤدي الى خسارات واضرار، تكون هادئةً في وسط البحر وتحرك السفن الشراعية المتوقفة ولذا ينجو آلاف المسافرين اليائسين، فيصلون إلى ساحل الأمان، إن الريح تعتبر في المنطقة الساحلية (شراً وبلاءً) ولكن مع ملاحظة تسلسل الحوادث فإنها مئة بالمئة خير ونجاة..

وهكذا جميع الحوادث في العالم التي تتسلسل وتتصل بعضها ببعض وتظهر في كل منطقة بشكل من الأشكال.

وهذه الرياح العاصفة التيْ تقتلع الأشجار وميزاب البيوت وتُلحق اضـراراً، وفي منطقة أخرىٰ تمطر الغيوم فتسقي المزارع: ﴿**وهو الذي يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمتِه حتى إذا اقلّت سحـاباً ثقـالاً سُقناه لبلدٍ ميت**﴾[1]. ليس فقط يسـوق السحب من مكان لآخر، بل لتلقيح الاشجار ﴿**وارسلنا الرياح لواقح**﴾[2] والرياحتزيل التلوث، والدخان والغازات المولدة للسرطان والخانقة، الموجودة في فضـاء حياة الإنسان، وفي النتيجة يستنشق النسيم العليل الملايين من البشر، إذن فهل صحيح أن تدرس وتقيم الرياح منفصلةً وبعجلةٍ عن بقية الحوادث وإصدار الحكم بذلك؟!

إننا ليس فقط لا بد أن نعتبر ونحفظ تسلسل مثل هذه الحوادث وارتباطهـا الواحدة بالأخرىٰ والتي تقع في عمق الزمن او التي ستقـع في المستقبل، وانهـا منسجمة معاً، ويجب أن نقيمها بصورة جماعية، وإذا كان هذا التقييم خارج عن طاقتنا فعلينا أن نسكت.

ب ـ إن أية زلزلة تعقبها خسارة قليلة او كبيرة، إذا كان عاملها ظاهرة المد والجزر في البحار، فبالتأكيد ان الخسارة الناتجة عن الزلزلة ستظهر قليلة وجزئية، لانه طبقاً لبعض الفرضيات ان عامل الزلزلة هو تأثير جاذبية القمر علىٰ سطح قابل للإنكسار في الأرض، والحركة الناتجة من الجزر والمد بتأثير القمر له اثر في تنظيم حياة الموجودات الحية في البحار والمياه وسقي الأشجار في السواحـل، لأن مد وجزر البحار يدفعان بالمياه الحلوة التي تصب في البحار الى الخلف فتسقي ملايين الأشجار.

وبملاحظة مثل هذا التنسيق في الحوادث، وأن كل حـادثة هي حلقـةٌ في سلسلة من الحوادث الأخرىٰ، فهل صحيح أن نطالع كل حلقةٍ بعيداً عن الحلقات

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٧).

(٢) سوة الحجر الآية (٢٢).

الأخرىٰ؟ بدون شك لا، كما أن علم البشر المحدود يمنع أن يصدر حكم قطعي في مثل هذه الحوادث، التي تقعُ في صورة متسلسلة منذ بدء العالم وحتىٰ نهايتهِ وبصورةٍ متتابعة، خاصةً وأن العلم يكشف لنا يوماً بعد آخر ارتباط وتسلسل الحوادث، ويُعرّفنا بآثار الحياة المطلقة.

وبهذه المقدمات يتعرّف الإنسان علىٰ حديث القرآن الكريم في علم البشر، عندما يقول: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً**﴾[1].

وكذلك: ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا**﴾[2].

٣ ـ الشر أمرٌ نسبي وقياسي:

مما تقدم يتضح، انه بالرغم من أن الشر يظهر تماماً إلّا إن مفهومه ذهني محض، دخل إلى الذهن حين المقايسة والمقارنة. أي أن العاصفة اتخذت اسم (الشر) لدىٰ مقارنتها عند الحاق الاضرار بأهالي الساحل الذين تضرروا، ولكن إذا قارنّا العاصفة مع توقف السفن الشراعية في وسط البحر، فسنجد أنها ليست (شراً) وإنما (خير). وكذلك فإن سمَّ العقرب بالنسبةِ إليه حياة ولكنه قاتل للإنسان، وهكذا مخالب الحيوانات المفترسة فإنها (خير) للحيوان و (شر) للحيوانات الضعيفة الأخرى.

وبعبارةٍ إخرىٰ؛ ان (الشر) ليس له واقع، مثلاً ان موجوداً، بغض النظر من اية مقارنةٍ يُسمىٰ شراً، ونقول لماذا خلقَ الله موجوداً شراً مثل هذا، لأنه عندما لا تكون هناك مقارنة فإن اطلاق اسم (شر) عليه ليس صحيحاً. ولكن عند المقارنة فإن بعض الموجودات، في العلاقةِ مع بعض الموجودات الأخرىٰ، يُطلق عليها مثل هذه (الصفة) التي يخلقها ذهننا وليس لها واقع في الخارج. وهذا الموضوع يشبه لدىٰ المقارنة، المقايسة بين منزل بمساحة ٥٠٠ متر ومنزل بمساحة ١٠٠٠ متر، فإن

---

(١) سورة الاسراء الآية (٨٥).

(٢) سورة الروم الآية (٧).

ذهننا يعتبر الأول (صغيراً) والثاني (كبيراً)، بينما في الواقع انه لا يوجد هناك اكثر من منزل بمساحة ٥٠٠ متر ومنزل بمساحةِ ١٠٠٠ متر. وان ذهننا لدىٰ المقارنة يخلق مثل هذا (الوصف) لديه. إن سبب المشكلة هو وجود (الشر المطلق) وليس (الشر النسبي) الذي هو اختلاف ذهني محض.

٤ ـ قصور علم الإنسان:

يعترف المفكرون الكبار غير المغرورين في العالم بجهل الإنسان ويحذرون من إصدار الاحكام بسرعة وعجلة، حتىٰ أن (وليام كروكس) العالم الانجليزي الكبير الذي له اكتشافات في فرع الذرّة يقول: «من بين الصفاتِ التي ساعدتني في دراساتي وكشفت لي الكثير من اسرار الطبيعة، حتى ان بعض هذه الإكتشافات لم تكن متوقعة لديّ، هذه الصفة هي انني كنتُ اعتقد دائماً بجهلي».

ويقول (اوليفر لوج)، الذي كان له دور مؤثر في اكتشاف التلغراف: «إن ما نعلمه مقارنة بما لا نعلم هو لا شيء. واذا كان أحدٌ يقول هذا بدون اعتقاد فإنني اقوله مؤمناً به تماماً».

ويقول العالم الفرنسي (ألكسيس كارل): «إن الإنسان في الحقيقة مجموعة من الغموض لا يمكن ادراكُهُ بسهولة، ولا تزال هناك نواحي كثيرة من عالمنا مجهولة، وقد بقي الكثير من اسئلة العلماء عن حياة الإنسان دون جواب».

ويمكن الحكمُ علىٰ (الظواهر غير الموزونة وغير السارة) في العالم عندما يصل الإنسان إلى اكتشاف جميع المنظومات ولا يبقىٰ لديه ما يغمض عنه، وحتى يصل ذلك اليوم يجب أن يكون منطق الإنسان كمنطق (العارف) الذي يقول:

برحرف هيچ كس منه أنگشت اعتراض　　　آن كلك صنع نيست كه خط خطا كشد

وترجمة هذا البيت:

ـ لا ترفع اصبع الاعتراض ضد حديث أي إنسان.

إن رجال العرفان الكبار الذين اشاروا إلى عمق الوجود عبر أسماء (القلب)،

(الفؤاد) و (الباطن)، فإن العالم بأكمله بالنسبة لهم مملوء بالفرح والسرور والحلاوة، فلا يوجد اثر للمرارة والبلايا ومنطق الجميع:

به جهان خرّم از آنم كه جهان خرّم از أوست
عاشقم برهمه عالم كه همه عالم از أوست
به حلاوت بخورم زهر كه شاهد ساقي أست
به جلادت بكشم درد كه درمان هم از اوست[1]

- انني مسرور من العالم لأن العالم مسرور منه.
وانني عاشق للعالم، لأن العالم منه..
- يشهد الساقي انني آكل السم بحلاوة.
واتحمل بجلادةٍ الألم، لأن الدواء ايضاً منه...

كان هذا تحليلاً مختصراً لبعض الحوادث التي تظهر (بمظهر غير موزون).
وإليكم تحليلات اخرىٰ بهذا الصدد.

٥ ـ الفوائد التربوية للبلايا:

وهنا يمكن تحليل مسألة (الشر) من طريق آخر، وهو بيان الفوائد التربوية للبلايا والمصائب، حيث لها آثار تربوية كثيرة، منها الامتحان الإلهي إلى جانب عوامل اخرىٰ، التي تؤدي إلى تكامل الإنسان من جهة ومن جهة اخرىٰ تكون سبباً لإزالة (غروره وغفلته).

والآن نتحدث، في هذا البحث، عن الموضوعين (تكامل الحياة الدنيوية وتكامل سعادة الجهات المعنوية للإنسان).

---

(١) غزلية لسعدي الشيرازي، ص ٩٤٤ من ديوان غزليات سعدي الشيرازي تحقيق وشرح الدكتور خطيب رهبر. (المترجم).

أ ـ المصائب سبب لإزدهار الامكانيات:

الانسان يخطو باستعداده الخاص في الحياة، وهذا الاستعداد يظهر كقوة كامنة في روحِهِ ونفسِه، والمصاعب هي الضربة الأولىٰ التي تنزل على منبع استعدادِه وتدفع به نحو النمو والإزدهار والتطور، والأشخاص الذين لا يواجهون مصاعب فإن (باطنهم) لا يزدهر ويبقىٰ على حالِهِ دون تطور، ولكنهم إن تعرضوا للمصاعب فإن قواهم تنهض للدفاع وتتحرك وتزداد قوةً، وكأن المصائب هي دوافع للقوة ومنبع للتعرف علىٰ رموز الحياة. طبعاً هذا لا يعني انه علىٰ الانسان أن يسعىٰ إلىٰ الحوادث، ولكن إذا حدث ووقع حادث سيء، في بعض الظروف، فإنه يمكن لاستعدادِه وفكرِه أن يعمل ويزدهر. وفي رأي علماء الحضارة؛ أن أية حضارة راقية ظهرت في التاريخ كان رُقيها بسبب هجوم بلد قوي، وادىٰ هذا الهجوم إلى يقظة استعداد وقوة ابناء ذلك البلد. طبعاً اذا كانت لكل الحوادث المُرّة هكذا، فإن قسماً من هذه الحوادث تكون كذلك. وسبب ان ثمارها الحلوة لا تلقىٰ إهتماماً فإنما بسبب قُصورٍ في فكر وحُكمِ البشر، واذا خضعت حادثة لدراسةٍ مستقبلية فإن الحكم يُصابُ بنوع من التطور.

إن أقل ما تنجمُ عنها الحوادث هي ايجاد روح المقاومة والصلابة في الإنسان وتَصقل نفسيته، واذا كان الفولاذ يقوىٰ اكثر تحت الحرارة الشديدة، والسكين تكون اكثر حدّةً عند صقلِها وتعرضها لما يجعلها حادةً، فإن المصاعب ايضاً تجعل الإنسان اكثر تصميماً وجَلَداً. إن الوالدين اللذين يسعيان إلىٰ تربية ابنائهما في عزّة ونعمة فإنهما قد لا يشددان عليهم، وفي هذه الحالة يعطون المجتمع ابناء يهتزون امام أية ريح، ويكونون كالريشة امام عواصفِ الأحداث يُتقاذفون هنا وهناك، ولكن الأبناء الذين يرون المصاعب ويتجرعون الآلام يكون كالصخرة الصّلدة لا يمكن لأي عامل مقتدر أن يقتلعها من مكانها. وبتعبير أمير المؤمنين الإمام علي (ع):

ـ «ألا وإن الشجرة البرّية أصلبُ عوداً، والرواتعَ الخَضِرةَ أرقُّ جلوداً، والنابتات العِذْيَةَ[1] اقوىٰ وقوداً وأبطأُ خُموداً».

---

(١) العذية: الزرع الذي لا يسقيه إلاّ ماء المطر (نهج البلاغة الكتاب ٤٥).

وبهذا التحليل عن الآثار الإيجابية للمصائب في تكامل القوىٰ الفكرية والذهنية للانسان يتضح قيمة الوحي الإلهي في هذا الصدد حيث يقول القرآن الكريم:

- ﴿.. فعسىٰ أن تكرهو شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [1].
- ﴿فإن مع العُسْرِ يُسْراً * إن مع العُسْرِ يُسْرا﴾[2].
- ﴿فإذا فرغتَ فآنصب * وإلى ربِّكَ فارغب﴾[3].

وكأن الظَّفر توأم الألم والسعي. والشعراء المسلمون وبإلهام من تحليل الآيات القرآنية، صبّوا هذه الحقيقة في قالبٍ شعري، يقول ناصر خسرو:

تابنيند رنج وسختي مرد، كى گردد تمام؟ تانيايدباد وباران، گل كجابويا شود؟

- إن لم ير الرجل الآلام والمصاعب كيف يكتسب الرجولة؟!
- إن لم يأتِ المطر والنسيم، كيف تفوح الورود بالعطر؟!

إن النتائج البنّاءة للمصائب، من حيث تكامل الحياة وتقوية الذهن قد اتضحت، والآن نبدأ ببيان الآثار المعنوية لهذا النوع من الحوادث.

ب ـ اليقظة:

إن الرفاه الدائمي والاستغراق في زخارف الحياة من اسباب الغرور والغفلة عن القيم الأخلاقية، وهذا ما تلمسناه في صفحات التاريخ أو حياتنا وحياة الآخرين، إن حياة هادئة وخالية من صعود ونزول وعواصف وامواج، هي حياة

---

(١) سورة النساء الآية (١٩).
(٢) سورة الإنشراح الآية (٥ ـ ٦).
(٣) سورة الإنشراح الآية (٧ ـ ٨).

سُبات، بينما الحوادث المتلاطمة واضطرابات النظام الحلو للحياة سبب انخفاض درجة الغرور واليقظة من الغفلة وظهور منعطف في الحياة لمجموعة من الأفراد، فمن كان غارقاً في حياة رتيبة اشبه ما يكون بمسافر يركب سيارة من آخر طراز تحتوي على جميع وسائل الراحة وتسير بأقصىٰ سرعة على شارع دولي (اتوستراد)، في هذه الحالة فإن النوم يستولي علىٰ راكبيها، وبضغطةٍ علىٰ الفرامل يستيقظ جميع الركاب وكأن (الفرامل) هي المصائب والمصائب في حياة الإنسان كأنها تضع نهايةً لنوم وغفلة الإنسان.

وعلىٰ اساس هذا التحليل فإن القرآن الكريم يضع رابطةً منطقية بين الطغيان والغرور من جهة وبين الغنى والحياة المرفهة من جهةٍ اخرىٰ، ويقول:

- **﴿إن الإنسان ليطغىٰ * ان رآه استغنىٰ﴾**[1].

وايضاً بناءً علىٰ مثل هذه التحليلات يعتبر القرآن الكريم مشاكلنا سبباً ليقظتنا، وأن ظهور سلسلة من الحوادث المضطربة إنما هي لايقاظ الإنسان، ويقول:

- **﴿وما أرسلنا في قرية من نبيّ إلّا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرّعون﴾**[2].

وفي الآية الثالثة يعتبر الشدة والصعوبة سبباً للتذكر حيث يقول:

- **﴿ولقد اخذنا آلَ فرعون بالسِّنين ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذّكّرون﴾**[3].

إن إعمال الشدة والصعوبة لمثل هؤلاء الاشخاص اشبه بصفعة الطبيب علىٰ وجه المريض الذي ما زال في غيبوبة بفعل المخدر بعد عملية جراحية والطبيب

---

(١) سورة العلق الآية (٦ ـ ٧).

(٢) سورة الأعراف الآية (٩٤).

(٣) سورة الأعراف الآية (١٣٠).

مجبر بعدة صفعات علىٰ ايقاظهِ لأنه من الممكن أن تؤدي الغيبوبة إلى موت المريض. وهذا الأمر في الحقيقة نعمة تتجلىٰ بهذه الصورة.

ويمكن أن تكون مواجهة الإنسان للمشاكل علىٰ صورتين، فكلما اعتُبرتْ عاملاً لتخفيض درجة غرور الإنسان ووسيلة لإيقاظهِ، كانت هذه المشاكل والشدائد من أعلىٰ الألطاف بحقِه، ولكن إذا لم يُبدِ مقابلها ردود فعل مناسبة عندئذ حقٌّ أن تُسمىٰ بلايا ومصائب، فأي بلاء أعلىٰ من ان الإنسان لا يستفيد من عاملٍ بإمكانِهِ أن يكون سبباً ليقظتِه ونجاتِه!! وعليه فإن اسم (البلاء) هو بسببِ تقصير الإنسان نفسِه الذي لا يَعتبرُ من الحوادث.

ج ـ عامل العودة إلىٰ الحق والعدالة:

إن خلق مجموع العالم هو لهدف، والإنسان باعتباره جزءاً من هذا العالم لم يخلق عبثاً وبلا هدف، وهذا الهدف لا يعدو تكامل الإنسان في جميع الأبعاد لوجوده. ولوصولِ الإنسان الىٰ هذا الهدف جاءت (الهدايات) والتعاليم النظرية، وإرسال الأنبياء (ع) والكتب السماوية...

من جهة أخرىٰ، فإن الخطايا وتحطيم السدود الإلهية سبب للإبتعاد عن هدف الخَلق، والإنسان الذي يشكل الكذب، والتزوير، والعدوان، والظلم، والخطايا الأخرىٰ، حياته فإنه لن يصلَ ابداً إلىٰ هدف الخَلق ويبقىٰ في مستوىٰ الحيوان..

وفي هذا الموقع، إذا وقعت بعض الشدائد في حياتِه الاجتماعية، تُعرّفه علىٰ العواقب الوخيمة لأعمالِه، فإن هذه الشدائد ستكون عاملاً لعودتِه إلى الحقّ والعدالة.

وهذه الشدائد المميتة وغير السارة هي إنذارات إلٰهية، تؤدي أن يعيد الإنسانُ النظرَ في حياتِه ويبتعد عن الخطيئة والطغيان، ويبينُ القرآنُ الكريم هذه الحقيقة بوضوح حيث يقول:

ـ ﴿ظهر الفسادُ في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عَمِلوا لعلهم يَرجِعون﴾[1].

ـ ﴿ولو أن أهل القرىٰ آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسِبون﴾[2].

من حيث الرؤيةُ الإلهيـة ان الحوادث المضـطربة وغيـر السارة هي معلول تخلفاتِ الإنسان وخطاياه الكبيرة.

والآن، فإن الرابطة بين هاتين الصورتين، وكيفية العدوان والظلم والفحشاء والاعمال السيئة، تؤدي الى وجود الظواهر المضطربة كالطوفان والـزلازل، وهذه كلها غير واضحة لنا نحن الذين نعيش علىٰ هذه الأرض ونغرق في حياتنا الترابية، وإنما هو الوحي الإلهي الذي يرفعُ الستارَ عنها.

في الختام ترانا مضطرين أن نذكّر بنقطتين:

١ ـ صحيح أن النعمة والرفاه سبب للسعادة، ولكن من طرف آخر فإن الحياة المرفهة الـرتيبة متعبـة لا روح فيها. وتكـون الحياة لـذيذة وحلوة عنـدما يـرافقها انخفاض وصعود. ويعرف قيمة الصحة من يُبتلىٰ بالحمىٰ والصداع. والحرية تكون قيّمة لمن كان مدة في السجن. وكما يقول سعدي الشيرازي: لا يعرف قدر العافية إلّا من ابتُلي.

ويلمس الإنسانُ في حياتِه الاجتماعية هذه المسألة في أن المعمارَ صاحب الذوق والممتاز هو ذاك الذي لا يجعل من حائط وجـدران الغرفـة على شكل واحد كالسجن، بل يستخدم ذوقهُ ويبنيها باشكال مختلفة.

---

(١) سورة الروم الآية (٤١).

(١) سورة الأعراف الآية (٩٦).

إن جمال الطبيعة يتأتىٰ من تبادل وتقابل النور والظلام، الليل والنهار وتضاريس الجبال والتلال وعبور الإنهار بشكل ملتوٍ بين الاشجار الصغيرة والكبيرة.

وللمشاكل والحوادث غير السارة فائدة، علىٰ الأقل في منح ما بقي من العمر روحاً، لجعلهِ لذيذاً وحلواً، ولهذا السبب فإن لم تكن الحياة مع المشاكل فلا بد من خلقِ مثل هذه المشاكل، او على الأقل تحمل الزحمات والمصاعب التي تنزل بالآخرين.

ويحدث احياناً أن يوجدوا بعض المنعطفات او التضاريس في الطرقِ المستقيمة التي تخلو من تضاريس لتخفيف اخطار الرتابة.

٢ ـ الكثير من البلايا والمصائب لها اسباب مصنوعة، والإنسان الظالم يخلق بيده الظلم فيواجه المجتمع حوادث مؤسفة.

ولا توجد بلايا اكبر من بلايا الحرب التي تخلقها القدراتُ الكبرىٰ، واخطار الأسلحة المدمِّرة اكبر من أضرار الزلازل والفيضانات والعواصف، والذين يُقتلون بواسطة الأسلحة الفتاكة بسبب اطماع بعض الناس هي اكبرُ بكثير من فجائع الزلازل والفيضانات.

وإنه لتقصير الإنسان وعدم عدالته أن لا يُقيم في المناطق التي تقع على خطِ الزلازل بيوتاً مقاومة للزلازل حيث يذهب الكثير من المحرومين ضحايا لسكناهم في بيوتٍ تنهدم لأقل حركة.

وفي مناطق الفيضانات إذا بُنيت سُدود صحيحة فأن السيول لن تكون نقمة بل ستكون نعمة وتزدهر الزراعة والصناعة.

واذا حدث قحط ومرض وذهب المحرومون ضحية لهما فإنما بسبب التخطيط الخاطىء للمجتمع الفاقد للصحةِ الكافية والثقافة اللازمة والتعاليم الصحيحة.

وفي هذه الحالة، فبدلاً من وضع اللوم على (الله) ـ اعوذ بالله ـ بسبب الوضع المضطرب للمجتمع نوجّه الانتقاد إلىٰ أنفسنا، ونواجه اللاعدالة، وننقذ المحرومين والمظلومين من البشر بالتقسيم الصحيح للثروة والامكانيات فينجو المجتمع من آثار الحوادث غير السارة.

* * *

هل عبادة الله سبب من اسباب التغرب عن الذات؟

تقول الماركسية: إن عبادة الله سبب من اسباب التغرب عن الذات للإنسان، لأن الشخص العابد بعبادتِهِ وتوجهه إلى الغير يصبح غريباً عن ذاتِه ومتعلقاً بغيره. وهذا الحديث يتكرر عن مالكية الإنسان، ومسألة مالكية الإنسان بالنسبة لشيءٍ سبب لتعلق الإنسان بغير نفسِه، وللتخلص من ظاهرة (تغرب الذات الديني) و (تغرب الذات الاقتصادي) تحذف الماركسية مبدأ المذهب والملكية (لإنقاذ) الإنسان من (التبعية). ولكن عندما نراجع الكتابات الدينية نرى النظرية الاسلامية خلاف نظرية ماركس. ويعتبر الاسلامُ (نسيان الله) سبباً (لنسيان الذات).

الرجاء أن تعطوا توضيحاً لهذه المسألة.

الجواب:

نذكِّر، باديء ذي بدء، أن نظرية (التغرب عن الذات) لدى الإنسان في ظل الدين، الذي نقلناها عن ماركس، ليست له، بل إنه اخذها عن (فويرباخ) المادي، الذي كان قبل ماركس، والذي ادخلها بعنوان (اومانيسم) في فلسفتِه.

وكان هدفه من إدخال ذلك في الفلسفة المادية (ترميم) خشونة الفلسفة المادية التي يتلمسها كل إنسان غربي، لأن مادية القرن الثامن عشر تعتبر الإنسان آلةً وميكانيتُه اشبه بالماكنة المتحركة. وفي القرن التاسع عشر رُدّت (نظرية الميكانيكية) وحلّت (المادية الديالكتيكية) محل (المادية الميكانيكية)، ولكن على أية حال، ولإثبات (المادة) ونفي (المعنوية) فقد رافق ذلك نوع من الخشونة تخالف رقة روح الإنسان المعنوية.

يقول فويرباخ في أحد احاديثه: «يظهر في (الإنسان العابد) نوع من حالةٍ تبعيةٍ، ومن الأفضل أن نخرج من هذه الحالة، لأنه عندما يعبد الإنسان الله ويتلقىٰ منه الأوامر يُصبح موجوداً تابعاً لا شخصية له، ولا يتعلق بنفسه».

ماركس ايضاً يكرر هذه الجمل ويقول: «علىٰ الإنسان أن يدور حول نفسه وليس حول وجودٍ آخر».

استغلت الماركسية هذه الفرصة وأرادت ايجاد فلسفةٍ لنظريتها الاقتصادية، وهي؛ ملكية الإنسان سبب لتعلقه بغيره، ويجب علىٰ الإنسان أن لا يكون كالأشياء والأدوات متعلقاً بغير نفسه.

ولكن بالاصرار الذي تتخذُه الماركسية بهذا الصدد لم تستطع أن تخفف من خشونة الفلسفة المادية وقساوتها حتىٰ ولو قليلاً.

إن فلسفةً لا تعترف بغير المادة والطاقة، وتعتبر تكامل الإنسان لا يكون إلاّ في ظل الادوات الإنتاجية والعلاقات الاقتصادية، بل ولا تعتبر عامل تكامل الإنسان نفسياً، إنما هو نتيجة عامل خارجي (التكامل الاقتصادي)، كيف يمكن لمثل هذه الفلسفة أن تتحدث عن (أصالة الإنسان) و (الإنسانية)، وتتحدث عن (المعنوية)؟!

إذا كان حقاً أن الماركسية تهتم بـ (الإنسانية) وترىٰ انه لا يجب اطلاق (الاصالة) على غير الإنسان، إذن لماذا تعتبر الإنسان تابعاً لتكامل ادوات الإنتاج والعلاقات الاقتصادية، وبدلاً من أن تضع الاقتصاد في خدمة الإنسان، تضع الإنسان في خدمة الاقتصاد وادوات الانتاج؟!

وإذا كان الإنسان هو (الاساس) إذن تنزل بالانسان إلىٰ درجة الحيوان المستهلك، وتُطلق شعار: «يجب أن يعمل كل واحد قدر طاقته ويمنح بقدر حاجته».

وبملاحظة هذا الموضوع، نبدأ الآن بتحليل هذا المبدأ:

١ ـ الإرتباط بالكمال المطلق سببٌ للتكامل:

عبادة الله تعني الارتباط بالكمال المطلق، و(الله) في نظر الشخص الديني كلُّه جمالٌ وكمالٌ وبريء من كل عيب او نقص، وهو الخالقُ العالمُ القادر، الذي منح الوجود للعالم والإنسان، وإذا انقطع فيضُهُ للحظةٍ فإن ظُلمةً مرعبةً (للعدم المطلق) تشمل كل شيء.

إن الإرتباط بمثل هذا (الكمال المطلق) سببٌ لسموِ الإنسان، ويمنحُ الضمائرَ اليقظة، والشعورَ والإدراكَ، وحسَّ البحث لدىٰ الإنسان قدرةً وقوة، ويوضّح موقع الإنسان في العالم بواقعية كاملة، ويقلل من غروره. ولا يعني (اصالة الإنسان) أن يقطع إرتباطه بالكمال المطلق، ويغتر بحجة منحه الشخصية، وهذا لا يعني غير المسكنة والضعف امام الأهواء النفسية.

فهل علاقة الإنسان بالعلم والمعرفة والاخلاق والأعمال الخيرية، والفن والجماليات سببٌ لإغترابه عن نفسه، ام اكتساب الكمال ونوعٌ من انواع العودة إلىٰ الذات؟!

وهذا الكلام يصدق في باب (البحث عن الله)، لأن الإنسان الباحث عن الله، وعبدَه، يريد عن طريق الارتباط بالكمال المطلق أن يزيد من كمالِ نفسه.

إن معنىٰ (أومانيسم وحفظ أصالة الإنسان) في الحقيقة هو دفعه نحو القيم الاخلاقية والسجايا الإنسانية التي تعود إلىٰ ذاته، وتستقر في ذاتِهِ السامية.

والماركسية تغفل عن الآثار البنّاءة (للإتجاه إلى الله) بحيث تعتبر عابد الله فاقداً للشخصية، وأن عبادة الذات والنفس هي مظهر الشخصية. كما انها تعتبر (الله) ـ سبحانه وتعالىٰ ـ حاكماً مستبداً ظالماً يلتذ لخضوع العباد وتحطيم شخصيتهم، وانه بسلب الشخصية منهم يرفع من مكانته، بينما أن (عبادة الله) ـ تبارك وتعالىٰ ـ لا يعدو طلب الكمال والسير نحو التقرّب منه، نوعاً من الاعتراف بالحق، وشكرِ نعمِهِ، وبيان الاستحقاق بالإستفادة من نعم اكثر.

إن (عبادة الله) ذات آثار ثمينة تخلق الكمال، ولا يشك أيُ إنسانٍ عاقل في

ذلك. إن (معرفة الله) سبب لتكامل العلوم والمعارف، وسبب للإشراف علىٰ الغرائز الإنسانية التي لا تعرف حدوداً، وتربية للفضائل الاخلاقية والسجايا الإنسانية، وتبعث الهدوء في الروح والنفس في الملمات والمصاعب. ولقد تحدث المحققون الإلهيون في الكتبِ الخاصة بالعقائد والمذاهب عن الآثار البنّاءة لذلك، ولا حاجة لتكرارها، وفي هذا الباب نكتفي بالمختصر الذي قدّمناه.

٢ ـ جذور الدين في باطن الروح:

من وجهة نظر المفكرين فإن للدين جذوراً عميقة في روح ونفس الإنسان، والتوجه إلىٰ الله وما وراء الطبيعة مظهر إحساس داخلي يمتزج بخلق الإنسان والبشر أوجد لنفسه عبر تاريخ حياته عادات وتقاليد، ثم نسيها كلَّها، ولكنه لم يحذف الدين من قاموس الحياة، ولم تؤثر خاصية التحول لدىٰ الإنسان علىٰ الدين، وكل ذلك يدل علىٰ أن للدين جذوراً عميقة في باطن الإنسان، ويعتبر علمُ النفس الحسَّ الديني أحدَ الأحاسيس الأربعة التي تشكل نفس الإنسان وهي عبارة عن:

١ ـ حسّ البحث العلمي.

٢ ـ حسّ الاخلاق والاعمال الخيرية.

٣ ـ حسّ البحث الفني والجماليات.

٤ ـ حسّ البحثِ عن الله والدين.

ولعلماء النفس ابحاث قيمة عن هذه الاحاسيس الأربعة وكيفية امتزاجها بنفس الإنسان. ولهذا وخلافاً للنظرية الماركسية فإن البحث عن الله هو نوع من العودة إلىٰ الذات، بينما الإلحاد وإنكار الله هو نوع من التغرب عن الذات، وهذا الموضوع يتضح تماماً في الآية التالية: ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسَهم**﴾[1]. هذه الآية تعتبر بوضوح أن (نسيان الله) سبب (لنسيان الذات). وهذا هو ما ذكرّنا به. ويقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في إحدىٰ كلماتِه القصار: «**من نسي الله أنساهُ نفسَه واعمىٰ قلبه**»[2].

---

(١) سورة الحشر الآية (١٩).

(٢) فهرست غرر الحكم ص ٣٨١.

٣ ـ موقع او مكانة المعلول بالنسبة للعلة:

من وجهة نظر الفلسفة فإن وجود المعلول ليس سوىٰ وجود مرتبط بالعلة وقائم به، وللمعلول ادقُّ التبعية بالعلة، وعليه فإن واقع (عالم الإمكان) ـ اعم من الإنسان وغيره ـ ليس سوىٰ نوع من انواع التبعية للخالق. والاعتراف بوجود الله الواحد الأحد، والتوجه الى منبع الكمال نوع من الاعتراف بواقع رفعت براهين الفلسفة الستار عنه، كما أن الإلحاد وانكار الله يعتبر نوعاً من انواع إسدال الستار علىٰ وجه الحقيقة.

وإذا كان حقاً أن المعلول والمخلوق ليس لهما مقام وحقيقة سوىٰ التبعية، فهل الاعتراف بمثل هذه التبعية حقيقة ام إنكار؟! وإذا كان الإنسان مخلوق لذات سامية، وبالنظر لهذه التبعية التي هي عين واقع وجوده، فهل هو تغرّب عن الذات ام التوجه الى الذات؟!

إن الحديث عن ملكية الإنسان التي هي في نظر ماركس سبب لتغرّب الإنسان عن ذاته، سنتركه إلى مكان مناسب، ولكن اجمال الكلام عن ذلك هو: إن حقيقة المالكية في الاسلام هي تعلق المال بالإنسان، وليس تعلق الإنسان بالمال، وبعبارة أخرىٰ إن المال في رأي الاسلام هو وسيلة لحياة الإنسان، وليس هدفاً. والمالكية تكون سبباً للتغرب إذا كانت الدنيا هدفاً وكعبةً للآمال، وليس وسيلة للحياة.

لأمير المؤمنين الإمام علي (ع) تعبير لطيف جداً حيث يقول:

ـ «. . **ومن أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها اعمته** . .»[١].

ولهذا يعتبر الإهتمام بالدنيا وزخارف الحياة مذموماً في الاسلام وسبباً لدمار سعادة الإنسان.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة (٧٩). ولا يخفى على اهل الأدب الاختلاف بين (بها) و (إليها).

ما هو المقصود من (ربوبية) الأحبار والرهبان؟

يذكِّرنا القرآن الكريم أن اليهود والنصارىٰ جعلوا من أحبارهم ورهبانهم (ارباباً) كما في الآية:

- ﴿**اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ آبن مريم**﴾[1].

وهنا يُطرح سؤالان:

١ ـ ما هو المقصود من (ربوبيتهم)؟!

٢ ـ وهل أن ربوبيتهم والسيد المسيح (ع) واحدة ام لا؟!

الجواب:

(الرب) في لغة العرب تعني (صاحب ومالك) شيء. وتقول العرب لصاحب البيت والمزرعة والحيوان: (ربُّ البيت، ربُّ الضيعة، ربُّ الدابة). لأن ملكية البيت والضيعة والحيوان بيد صاحبها.

وكان اليهود والنصارىٰ يعتبرون أن علماءهم ورهبانهم يملكون بعض الأعمال الإلهية، وتصوّروا أن جهاز التشريع والتقنين بيدهم وانهم يستطيعون تغيير احكام الله في الحلال والحرام.

وبالنظر لهذه العقيدة وسيرة اليهود بالنسبة لعلمائهم يتضح أن المقصود من (اتخاذ الربّ) ليس انهم خلقوا العالم او انهم المدبرون له، أو انهم كالعرب الذين

---

(١) سورة التوبة الآية (٣١).

كـانوا يعبـدون الاصنام، يعبـدون هؤلاء العلماء، وانهم يُشـركـون في (الخـالق) و(الربّ) و(العبادة)، وإنما المقصود هو (تملك) هؤلاء في (التقنين والتشريع)، وفي النتيجة أن شِركهم يعود إلىٰ الشِرك في مسألة (التقنين)، لأن (التقنين) يختص بالله ولا يحق لأي إنسان (بدون إذن الله) أن يصْدر حكماً، ولكن الأحبار والرهبان كان لهم ـ في نظرهم وعقيدتهم ـ هذا الحق، ولهذا ذكرهم القرآن الكريم في تلك الآية وذمّهم، وبعض الروايات تبينُ ما ذهبنا إليه [1].

إلىٰ هنا يكون جواب السؤال الأول قد توضح، وفي جـواب السؤال الثاني نقول:

ـ إن (ربـوبيـة) السيد المسيـح (ع) كانت اسمىٰ من ربـوبية الـرهبان لـدىٰ المسيحيين، لأنهم كانوا يرون ان المسيح هو (ابن الله) وجزء من (الآلهة الثلاثة) التي تشكل بمجموعها (إلهاً واحـداً) ولهذا نجـد في الآية أن (ربـوبية) المسيـح منفصلة عن (ربوبية) الأحبار والرهبان وليستا جنباً إلىٰ جنب، مثلاً لم يأتِ «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابنَ مريم أرباباً من دون الله».

ـ للحصول علىٰ توضيح اكثر في معنىٰ التوحيد في التقنين والتشريع ـ حيث خالف اليهود والنصارىٰ ذلك ـ راجعوا كتاب (منشورجاويد ـ بيان الخلود).

* * *

(١) مجمع البيان ج ٣ ص ٢٣.

هل يعتبر اليهود عُزيراً إبناً لله؟

يُستفاد من آيات القرآن الكريم أن (عُزيزاً) في عقيدة اليهود كالمسيح عند المسيحيين، ابن الله، فما هو المقصود من (الإبن) هذا؟.

الجواب:

(عزير) هو نفسه (عزراء) في لغة اليهود. ويقول التاريخ: إن بخت النصر - نبوخذ نصر - حاكم بابل احتل فلسطين وهدم معبد اليهود وأحرق كتبهم، وقتل رجالهم، وسبا نساءهم واطفالهم وشيوخهم وساقهم إلىٰ بابل، وبقيت هذه المجموعة قُرابة قرنٍ هناك. وفي عام ٤٥٧ ق. م. إحتل كوروش بابل، واطلق أسر اليهود، وسمح لهم بالعودة إلى موطنهم، وأن يكتبوا التوراة مرة أخرىٰ، وفي تلك الأيام كتب (عزراء) التوراة عن حفظهِ لها، ومن اجل ذلك سُميَ بين اليهود بأسم (ابن الله). ويقول القرآن الكريم:

- **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارىٰ المسيح ابن الله﴾**[1].

ويستنتج البعض لعطف المسيح علىٰ (عُزير)؛ أن كون عزير ابناً في اعتقاد اليهود بمثابة (الإبن) عند المسيح، وبمعنىٰ إلوهيته، وبنظرهم جزءٌ من الوهيته. وعلىٰ هذا الأساس أن (عُزيراً) - من بين القديسين - يعتبر في عداد المعبودين، ولكن يستدل من القرائن أن كونه (إبناً) إنما هو إضافة تقديرية ومجازية من اجل الإحترام والتكريم، تماماً كما يعتبر اليهود والمسيحيون شعوبهم (أبناء الله)، حيث جاء في القرآن الكريم:

- **﴿وقالت اليهود والنصارىٰ نحن ابناءُ الله وأحباؤه﴾**[2].

(١) سورة التوبة الآية (٣٠).
(٢) سورة المائدة الآية (١٨).

وعليه فإنه لا يستبعد أن كون (عزير) ـ ابن الله ـ هو نوع تقديري، واذا لم تكن هناك قرائن اخرىٰ أن المسيح يعتبر ابن الله عند النصارىٰ يجري عليه نفس الحكم. والدليل الواضح علىٰ أن هذه الإضافة إنما هي تقديرية هو: في الآية التالية عندما يأتي الحديث عن ربوبية الأحبار والرهبان يأتي ذكر اسم (المسيح) دون اسم (عزير):

ـ **﴿اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾**[1].

إذا كان حقاً اعتقاد اليهود بالوهية (عزير) وارداً لكان من المناسب أن يُذكر اسم (عزير) في هذه الآية أيضاً.

* * *

---

(١) سورة التوبة الآية (٣١).

هل يمكن رؤية الله يوم القيامة؟

لقد أثبت الفلاسفة المسلمون، وعلماء الإمامية والمعتــزلة بدلائل واضحة أن وجود الله (تبارك وتعالىٰ) أسمىٰ من أن يظهر في أُفق رؤية الإنسان، ولكن ظاهر الآية الثالثة والعشرين من سورة القيامة تدل علىٰ أن عباد الله الصالحين يرونه يوم القيامة، حيث تقول: ﴿**إلىٰ ربِّها نـاظرة**﴾. والسؤال الآن هـو: ما هـو المقصود بالآية؟!

الجواب:

لقد اثبتت الدلائل العقلية بوضوح أن الله ليس جسماً ولا حجماً، ولا يُحيط به الزمان والمكان ابداً، ومثل هذا الموجود أسمىٰ من أن يظهر في أُفق الرؤية، والرؤية ما هي إلّا إنكسار نور شيءٍ علىٰ جهاز البصر، وهذا الإنكسار يتحقق عندما تكون هناك رابطة بين الشيء المرئي والعين، ومثل هذا الأمر يتطلب أن يستقر شيءُ في مكان خاص لكي تستطيع عدسية العين أن تلتقط (بواسطة جهاز الرؤية) الأشعة المنعكسة من ذلك الشيء.

كل موجود بحجم يحتاج لوجوده إلى مكان، وكل شيء محتاج لغير ذاته فهو فقير، وربما لا يستحق الألوهية. بالاضافة إلى ذلك فإن وجود مثل هذا المكـان ليحيط بـ (الله) عز وجل لا يخرج عن ثلاث حالات:

١ ـ اما أن يكون منذ البداية قد وُجِدَ مع وجود الله تعالىٰ، وفي هذه الحالة يكون (المكان) قديماً مثل (الله) عز وجل وواجب الوجود، وهذا ما لا يتفق مع وحدة واجب الوجود.

٢ ـ او يكون (المكان) مخلوق موجود آخر، وفي هذه الحالة فإن ذلك الموجود الآخر هو إله واجب الوجود، وهو قد رفع حاجته عن هذا الإله الفرضي وليس عن واجب الوجود.

٣ ـ او أن الله تبارك وتعالىٰ هو قد خَلَقَ ذلك المكان لنفسِهِ، وفي هذا الفرض فإن الله ذاتياً لا يحتاج إلىٰ مكان، بدليل أنه قبل خلق المكان كان له وجود، وفي هذه الصورة كيف أن الله الذي لا يحتاج إلىٰ مكان قد احتاج فيما بعد إلى مكان؟

إن هذا الدليل الفلسفي والأدلة الأخرىٰ تدل ان الله أسمىٰ من أن يكون له مكان حتىٰ يظهر في أفق الرؤية، واما معنىٰ الآية فهو يتجلىٰ في جوابين:

١ ـ كلمة (ناظرة) في الآية ليس بمعنىٰ (الناظر) ـ (الرائي) ـ وإنما بمعنىٰ (المنتظر). والمقصود من الآية هو أن المجموعة الأولىٰ تنتظر رحمة ولطف الله سبحانه وتعالىٰ. هذه الكلمة اذن تعني (الانتظار) مثلاً عندما أرسلتْ ملكة سبأ هدايا إلى النبي سليمان (ع) قالت لحاشيتها:

ـ ﴿إني مرسلة إليهم بهديةٍ فناظرة بم يرجع المُرسَلون﴾[1].

(ناظرة) في هذه الآية تعني (منتظرة) وليس (باصرة ـ مشاهدة) وقد قال الشاعر:

إنـي إليـك لمـا دعـوتُ لنـاظـرٌ نـظرَ الفقيـر إلىٰ الغنـي المـوسـرِ

والمقصود من (الناظر) و (نظر الفقير) هو (الانتظار) وليس (الرؤية).

٢ ـ إن الجواب الماضي يصرّ علىٰ أن كلمة (ناظرة) ليست بمعنىٰ (الرؤية) بل بمعنىٰ (الانتظار)، وفي الجواب الثاني فإن كلمة (ناظرة) بمعنىٰ (الرؤية)، ولكن مجموع الجملة كناية عن (انتظار لطف ورحمة الحق)، وهذه الحقيقة تتضح ببيان موضوعين:

اولاً: في المحادثات العامة تدل احياناً الكناية على العبارات، مثلاً يقولون

---

(١) سورة النمل الآية (٣٥).

(إن فلاناً يده مبسوطة) يعني إنه كريم، او يقال: (إن فلاناً ينظر إلىٰ يد فلان) وكلمة (ينظر) هنا بمعنىٰ (الرؤية) ولكن المقصود النهائي شيء آخر، وهو انه (ينتظر) إنعاماً وكرماً وإذْناً وإجازة.

ويُقال: (إنما ننظر إلىٰ الله ثم إليك)، هذه الجملة كناية، اولاً توقّع رحمة الله، وثانياً منك. ومؤلف (اقرب الموارد) بعد المثال السابق يقول شارحاً (إنما اتوقّع فضلَ الله ثم فضلك).

القرآن الكريم يقول عن الذين ينقضون العهد والميثاق بثمنٍ بخس:

- ﴿.. **ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**﴾.

ولا شك ان المقصود النهائي من عبارة (ولا ينظر إليهم) ليست (الرؤية)، لأن نظر الله إليهم او عدم النظر إليهم لا ينفعهم، وإنما المهم إليهم لطف ورحمة الله تعالىٰ في ذلك اليوم الأليم. وفي هذه الحالة فإن العبارة المذكورة كناية عن أن الله تبارك وتعالىٰ لا ينظر إليهم نظر لطف ورحمة، وبهذا النسق فإن الآية المذكورة التي فيها (نظر) إنما تقصد (انتظار رحمة الله).

ثانياً: وإذا ما اخذ ما قبل الآية وما بعدها فإنه يتضح أن المقصود الحقيقي من كلمة (ناظرة) ليست الرؤية الظاهرية، وإنما التوجه إلى لطف الحق وانتظاره وتوقّعه، لأنه في هذه الحالة إن الآيات الأربعة التي تتوالىٰ الواحدة بعد الأخرىٰ تفسير للآية المذكورة.

- **وجوه يومئذٍ ناضرة.**
- **إلى ربها ناظرة.**
- **ووجوه يومئذٍ باسرة.**

تظن أن يفعل بها فاقرة.

في هذه الآيات الأربعة فإن الآية الثالثة تظهر مقابل الأولىٰ، والرابعة مقابل الثانية. ومع ملاحظة مُفاد الآية الرابعة يمكن إزالة إبهام الآية الثانية. توضيحاً: الآية

الأولىٰ والثالثة تقسمانِ الناس يـوم القيامـة إلىٰ نوعين: ﴿**وجـوه يومئـذٍ ناضـرة**﴾ و ﴿**وجوه يومئذٍ باسرة**﴾.

وفي الآية الثانية والآية الرابعة توضحان مصير هذين النـوعين من الوجـوه: الوجوه المسرورة عبارة عن ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾.

والآن يمكن إزالة الإبهام بالتقابل بين الوجهين بالقرينة في الآية. رغم أن الوجوه العابسة في (انتظار) العذاب الإلهي الشديد كما في الآية (تظن أن يفعل بها فاقرة)، وطبعاً ستكون الوجوه المسرورة مقابل ذلك، يعني في انتظار رحمة الله، ولذا فإن الآية (إلى ربها ناظرة) تعطي هذا المعنىٰ.

ومن جهةٍ اخرىٰ فإن الآية الرابعة تطرح انتظار العذاب، والآية الثانية انتظار رحمة الله سبحانه وليس الرؤية والمشاهدة الظاهرية.

الخلاصة إن استدلال آية لإثبات إمكان رؤية الله سبحانه يوم القيامة إغفال عن الهدف الموجود في الآيات الأربعة، والحقيقة أن الحديث يدور حول (المطيع) و (المجرم) وما ينتظر كل واحد منهما من مصير، وهو نزول رحمة الله أو عذابه عز وجل، وفي مثل هذه الحالة فإن مشاهدة ذاتِ الحق ورؤيته ليس لها ارتباط بالآية لكي تتحدث الآية عن ذلك.

* * *

لماذا يُعتبر الأشخاص المراؤن مُشركين؟

يُقال لمن يعبد غير الله (مشركاً)، او لمن يخضعون للأصنام والأوثان الأرضية باعتبار انها مدبِّرات العالم، أو مالكات لمقام الشفاعة والمغفرة فيسجدون أمامها، بينما الشخص المرائي فقط يعبد الله ويركع ويسجد امامَهُ، ومع ذلك يوصفُ بالشِّرك، فما هو المقصود من هذا الشِّرك؟!

الجواب:

عندما يُشرح (الرياء) يثبت بوضوح أن الشخص المرائي مشرك ويعبد غير الله سبحانه وتعالىٰ، واليكم تشريح (الرياء):

الرياء؛ فرع من النفاق، والشخص المرائي يعتبر من ضمن المنافقين، واسم (المنافق) يُطلقُ على الشخص الذي تكون اقواله غير ما يُبطن، يقول بلسانِهِ شيئاً وهو لا يؤمن في قلبِهِ بما يقول.

وعمل الرياء له ظاهر وله باطن، فظاهره شيء وباطنُهُ شيء. والمرائي يعبد الله تعالى في الظاهر، ولكن دافعُهُ للعبادة ليس تلبية لأمر الله وكسب رضاه او إكتساب الكمال المعنوي، وإنما هدفُهُ إجتذاب توجّه الناس لكسب المحبوبية والشهرة بينهم، أو لدوافع مادية.

عمل المرائي بحسب الظاهر لسان حالُهُ يقول: الهدف، إمتثالٌ لأمر الله وكسب رضاه، بينما باطن عمله لا محتوىٰ له، ودوافعَهُ دنيوية، ولذا فأي نفاق اوضح من هذا؟!

(الرياء) مكيدة الشيطان، يضعها غالباً امام مجموعةٍ تمكنت من كبح لجام

النفس عن ارتكاب بعض الخطايا، وتمكنوا من الثبات على ذلك. إن هذه المجموعة تترك بعض الخطايا، مثلاً النظر والسمع، او لا يعتدون علىٰ اموال وشرف الناس، ولكن نموهم المعنوي يتوقف عند هذا الحدّ، ولم يتمكنوا من تربية وتنمية معنوياتِهم الروحية للإتصالِ بالكمالِ المطلق بصورة محكمة ودائمة، ويضعون رضا الله تعالى قبل الدوافع الأخرىٰ، بل احياناً تكون اللذائذ المادية كعبة آمالهم ومعبودهم، وهذه هي حقيقة (الرياء). مكيدة امام الزهّاد والعبّاد، والاشخاص الذين يقومون بالاعمال الخيرية بطرق مختلفة. إن هؤلاء يعتقدون انهم بترك بعض المعاصي يسيطرون علىٰ (النفس الأمّارة)، بينما أمامهم مكيدة اكبر، يقول رسول الله (ص) عنها: **(إن أخوفَ ما اخافُ علىٰ أُمتي الرياء)**[1].

الحقيقة ان روح العبادة، هي تلك الدوافع القلبية والروحية، وإن الذي يمنح الكمالَ للإنسان هي نياتُهُ الإلهية يقول الرسول (ص) في حديثٍ:

- **(إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم)**[2].

لماذا المرائي مُشرك؟!

إذا تعرفنا علىٰ حقيقة (الرياء)، فلا شك أن سبب شِرك المرائي يتضح، والتوضيح أن للشِّرك مراتب ودرجات؛ احياناً يظهر الشرك بشكل تعدد الآلهة، ويجعل الإنسان يقع في مهاوي (الثنوية) او (التثليث)، وهذا هو (الشركُ في الذات) وهو مُدانٌ بشدة في التوحيد. واحياناً يكون الشرك في العبادة، وبما أن العبادة هي الحق المطلق لله سبحانه وتعالىٰ ولا احد غيره يستحق العبادة، ولذا فإن عبادة غيره تعتبر شِركاً في العبادة، إذ يشرك مع الله غيره في العبادة.

والشركُ في العبادة يكون احياناً واضحاً، كما يفعل من يعبدون النجوم والأوثان جهاراً ويبررون عملهم، واحياناً يكون الشِّرك مخفياً، كما في العمل

(١) صحيح ابن ماجة ـ حديث رقم ٤٢٠٥.

(٢) المحجة البيضاء ج ٦ ص ١٨٠.

الريائي، فالمرائي رغم انه يتظاهر بعبادةِ الله ولكن هدفه غير إلهي، واذا لم يكن هذا الدافع لديه لما قام بذلك، ولذا فإنه في الباطن يعبد غير الله وجعله شريكاً لله، وجعل هَمَّهُ جلب انتباه الناس وهذا معبوده وكعبة آماله. ويقول الرسول الأكرم (ص) نقلاً عن الله سبحانه وتعالى: **(من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كلّه وأنا أغنىٰ الأغنياء عن الشرك)**[1].

وفي القرآن الكريم ثناءٌ للذين اعمالهم اعمال إلهية حيث يقول في شأن آل البيت:

- **﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾**[2].

إن الابتعاد عن (الرياء) عمل صعب، واحياناً يتسلل الرياء والاهداف غير الإلهية في اعماق عمل الإنسان بحيث انه يغفل عنها ولذا جاء في الحديث الشريف:

- **(الرياء أخفىٰ من دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء)**.

إن الحديث عن (الرياء) أوسع من أن يتسع له مكانٌ هنا، ولكن الهدف في هذه المقالة هو بيان شِرك المرائي، ومن يطلب المزيد عليه أن يراجع الكتب الاخلاقية، مثل (معراج السعادة) للمرحوم النراقي.

* * *

---

(١) صحيح ابن ماجة، حديث رقم ٢٠٣

(٢) سورة الإنسان الآية (٩).

ما هو المقصود بـ الايمان بالغيب؟

يعتبر القرآنُ الكريم (الإيمانَ بالغيب) إحدىٰ علاماتِ المتقين حيث يقول: **﴿هُدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾**[1].

فما هو المقصود بـ (الايمان بالغيب)؟ وما معنىٰ (الغيب) هنا؟!

الجواب

قبل توضيح معنىٰ (الغيب) يجب اولاً إجمال معنىٰ الآية. لتفسير الآية هناك قولان، الاول: لأبي مسلم الإصفهاني، والثاني: لغيره. يقول ابو مسلم: المقصود من جملة (يؤمنون بالغيب) ليس هو الإيمان بالغيب، وإنما المقصود هو الإيمان بالله في الخفاء، وليس كالمنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان بالله بين المؤمنين، ويبطنون غير ذلك، ولذا فإن مفاد الآية هو (يؤمنون بالله حال الغيب). وكلمة (بالغيب) في القرآن بمعنىٰ (حال الغيب) مثل:

- **﴿لِيَعْلَمَ أني لم أخُنْهُ بالغيب﴾**[2].

في هذه الآية، كما في الآية مورد البحث، فإن لَفْظَ (بالغيب) بمعنىٰ في حال الغيب والخفاء[3].

ولكن هذا التفسير بعيد عن ظاهر الآية، لأن ظاهر الآية بقرينة الآية التالية

---

(١) سورة البقرة (٢) و (٣).

(٢) سورة يوسف الآية (٥٢).

(٣) تفسير فخر الرازي ج ١ ص ١٧٤

(وهي الرابعة من هذه السورة) وهي (بالغيب) متعلق بالإيمان يعني الشيء الذي يتعلق به الإيمان، وليس بالذي يأتي بحالةٍ للإيمان. والآية التالية توضح هذا الموضوع: **﴿والذين يؤمنون بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِلَ من قبلِك وبالآخرةِ هم يوقنون﴾**[1].

وكما تلاحظون أن المتقين ـ بحكم هذه الآية ـ يؤمنون بشيئين:

١ ـ ايمان بـ (ما انزل إليك). ٢ ـ ايمان بـ (ما انزل من قبلك).

وفي الآية مورد البحث فإن (الغيب) مثل (ما انزل) متعلقٌ بالايمان. وعليه، وطبقاً لذلك، فإن الآية تتوضح بأن علامة المتقين ثلاثة:

١ ـ الإيمان بالغيب.

٢ ـ الإيمان بالقرآن الذي نزل علىٰ النبي (ص).

٣ ـ الايمان بالكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين.

وفي هذه الحالة يجب أن تفسر جملة (يؤمنون بالغيب) هكذا: الذين يؤمنون بـ (الغيب) وليس يؤمنون بالله في حالةِ الغيب والخفاء. وبهذا البيان تتضح إستقامة الرأي الثاني المنتخب من قبل اغلب المفسرين. والآن يجب فهم معنى المقصود بـ (الغيب).

ما هو المقصود من الغيب؟:

(الغيب) مصدر بمعنىٰ (غائب) مثل (الصوم) بمعنىٰ (صائم) و (عدل) بمعنىٰ (عادل). وفي اللغة فإن كل شيء مستور عن الحسِّ يُسمىٰ (غيباً). إما أن يكون مستوراً ذاتاً عن الحس، أي (الموجودات) الخارجة عن الحسِّ، ولو بواسطة الأدوات الفنية، لا يمكن إدراكها مثل: ذات الله عز وجل، الوحي، الجنة، الجحيم، البرزخ، الملائكة، أو ليست مستورة ذاتاً ولكن بسبب الضعف والعجز،

---

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٣٨، تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٥.

او لوجود مانع بينها وبين الإنسان او حائل يحول دون إدراكها، مثلاً إن حسَّ الإنسان لضعفِهِ وعجزِهِ لا يستطيع أن يُدركَ وجود الأحياء الصغيرة جداً، ولا النجوم البعيدة. ولوجود موانع مثل الجدران فهو لا يُدرك ما خلفها.

إن جميع هذه الأقسام البعيدة عن مجال الحس، تُسمىٰ (غيباً).

ليست هي الأجسام المادية التي تحول بين الإنسان والأشياء، بل احياناً يلعب (الزمن) هذا الدور، ويمنعُ الإنسان من إدراك الحوادث السابقة او الحوادث التي ستقعُ في المستقبل، ولذا فإن الإنسان إذا كان مطلعاً علىٰ الماضي والمستقبل فإنه يُسمىٰ (العالم بالغيب).

إلىٰ هنا نكون قد وضحنا معنىٰ (الغيب). وحان الوقت الآن لنوضح القصد منه. إن مجموعة الآراء التي جاءت في التفاسير عن (الغيب) هي كما يلي:

١ ـ الأحكام الإلهية التي اوجبها الله تعالىٰ.

٢ ـ القرآن الكريم.

٣ ـ الله سبحانه وصفاته.

٤ ـ الجنة والجحيم.

٥ ـ المهدي الغائب (عج) وزمان ظهوره.

٦ ـ ما يمكن اثباته ومعرفته بالدلائل.

٧ ـ ما يخرج عن مجال الحسِّ، إن كان له دليل وبرهان أو لم يكن[1].

إن اساس التفسير الأول والثاني هو ان المقصود هو احكام الله فقط او القرآن الكريم فقط. ومثلُ هذا التفسير غير صحيح، لأنه اذا كان المقصود من (الغيب) مخصوص هذين فقط، لما كان لازماً أن تذكٍّر الآيات التالية بخصوص أي واحد، وتذكر الأحكام منفصلةً بجملة (يقيمون الصلاة). والقرآن بجملة (بما انزل إليك)، في هذه الحالة لا بد من انتخاب أحد التفسيرين، أما القول بأن المقصود معنىً

---

(١) مجمع البيان ج ١ ص ٣٨ ـ تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ١٧٢.

واسعٌ (التفسير الأخير) أي كل الأمور الخارجة عن الحس، ويعجز الحسُّ لأسبابٍ عن دركها، وفي هذه الحالة فإن جميع الاحتمالات، من: الله، القرآن، الجنة، الجحيم، المهدي الموعود وزمان ظهورهِ، والمعارف قابل للإثبات بدلائل، تدخلُ في هذا المعنىٰ، وكذلك إذا انتخبنا هذا التفسير فإننا نستطيع أن نقول إن النماذج التالية من قبيل الذكرِ الخاص هي بعد العام.

أو أن نقول إن المقصود منه هو الاعتقاد بالله. وفي هذه الحالة وبملاحظة العلامتين الأخريين في الآية التالية فإن اركان الاعتقاد، يعني الايمان بالله، النبوة، الوحي، المعاد والآخرة، قد دخلت في هاتين الآيتين. والشخص المتقي هو من يؤمن ويعتقد بهذه المبادىء الثلاثة:

١ ـ الاعتقاد بالله، كما هو ظاهر في جملة (يؤمنون بالغيب).

٢ ـ الاعتقاد بالنبوة والوحي المبين في جملَتيْ (ما انزل إليك، وما انزل من قبلِك).

٣ ـ الاعتقاد بالمعاد والآخرة، الوارد في جملة (وبالآخرة هم يوقنون)[1].

وفي الختام نُذكرٍّ لو أن المقصود بـ(الغيب) هو المعنىٰ الواسع له، أي المقصود وجوه من الغيب منفصلة عن المادة لا يمكن ادراكها، ولا يمكن معرفة حجمها بالوسائل المادية في المختبرات كالميكروسكوب والتلسكوب، وليس تلك المجموعة التي لا يمكن ادراكها لضعفٍ في الرؤية او عجز الحسِّ او لوجود مانع. فإن الشيء الذي يمكنه أن يكون علامةً للتقوىٰ هو الايمان بالنوعِ الأول من (الغيب) وليس القسم الثاني.

(١) الميزان ج ١ ص ٤٣ ـ ٤٤.

ما هو الهدفُ من خلقِ الإنسان؟

لا شك أن الله موجود (غني) و (غير محتاج)، إذن لماذا خلق الإنسان؟! وما الهدفُ من خلقِهِ؟ او بعبارةٍ اخرىٰ؛ اذا كان هناك هدفٌ وراء خلقِهِ الإنسان، إذن فهو موجود (محتاج) واراد عن هذا الطريق أن يزيل (حاجته)، واذا لم يكن هناك هدف، فلماذا يصدر عمل عبث عن الله؟!

الجواب:

لهذا السؤال ماضٍ طويل، ومثل بعض القضايا الفلسفية فهو وارد للجميع، فإن اغلب الناس يرغبون أن يعرفوا الهدف من خلقهم، وما هو الهدف من خلق الإنسان بمجموعه؟

قبل أن أقوم بتقديم الجواب المفصل، اطرح الجواب مجملاً في قالبٍ علمي.

إن الجواب علىٰ هذا السؤال منوط بتفكيك مبدأين:

١ ـ (الفاعل) بما انه موجود كامل وغير محتاج فإنه لم يكن له هدف لرفع وإزالة حاجته.

٢ ـ (الفعل) الله، بعيد عن العبث واللغو، فلا بد ان له هدفاً، وهذه الغاية ترتبطُ بالفعل وليس بالفاعل. وبإختصار (الفاعل) فاقد (للغاية)، و (الفعل) واجدٌ له. والفرق بين هاتين الجملتين واسعٌ جداً، والمزجُ بينهما يؤدي إلىٰ هذا السؤال.

ان الذين يطرحون هذا السؤال يقفون على حافةِ هاويةِ (تشبيه الخالق بالمخلوق) ويرون فاعلية الله كفاعلية المخلوق، لأنه كما أن الإنسان لا يقوم بعمل إلّا لإحساسِهِ بنقص ويسعىٰ بعملِهِ لرفع ذلك النقص، فَهُم يتصورون أن (الله) الذي

هو الكمال المطلق ولا يوجد فيه أدنىٰ نقص، لا بد أن له هدفاً من وراء هذا (الخلق) لأن فقدان الغرض او الهدف دليلٌ علىٰ (العبث). ولكن اذا قمنا هنا بالتفكيك بين (غرض الفاعل) و(غرض الفعل) فإنه من المؤكد أن المشكلة ستحل، ولذا نقول:

بما أن (الفاعل) غنيٌّ مطلق وكمال محض، ولا يوجد فيه أدنىٰ نقص، فلا يمكن أن نضع له غرضاً او هدفاً وغاية، لأن وضع غرضٍ للفاعل ينبعُ من مسألةِ المقايسة، واذا قال علماء الكلام: (إن افعال الله غير معللة بأغراض) فإن الصحيح أن نقول: إن الغرض والغاية التي تعود إلىٰ ذات الله لا يوجد فيها. لأنه كيف يمكن ايجاد نقص للكمال المطلق والواجد لكل الكمالات ثم يُفترض انه يسعىٰ بنفسِهِ لازالة تلك النقيصة؟!

ولكننا عندما نقول انه لا يوجد هدف وغرض لخلق العالم والكون، هو غير أن نقول أنه لا غرض ولا هدف للخلق، إن نفي الهدف للخالق يختلف عن أن يكون الخلق (عبثاً) و(لغواً). وإحدىٰ نقاط الاختلاف بين المادية والإلهية هي في هذه النقطة. إن الفلسفة المادية لا تفكر بوجود هدف لخلق العالم والإنسان، وإذا سئل فيلسوف مادي لماذا خلق العالم والإنسان ولأي هدف؟ فإنه يجيب: إنه لا يوجد هدف ولا غرض من وراء ذلك.

بينما الشخص الإلهي يعتقد بأن من وراء خلق العالم والإنسان من قبل الله سبحانه هدف وغاية، ولهذا فإن الشخص الإلهي يعتقد بقلبٍ مطمئن ورأس مرفوع ووجه وضاء بأن هناك غرضٌ من جميع التحولات وحركات الأرض والمنظومات.

وعلىٰ هذا الاساس فإن فعل الله ـ لا ذاته عز وجل ـ له هدفٌ وغرض ويقول القرآن الكريم: ﴿**أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لا تُرجعون؟**﴾[1]. ويقول

(١) سورة المؤمنون الآية (١١٥).

ايضـاً: ﴿الذين... يتفكـرون في خلق السموات والأرض ربّنـا ما خلقتَ هـذا باطلاً﴾[1]. ويقول ايضاً: ﴿وما خلقنا السماءَ والأرض وما بينهما لاعبين﴾[2].

وبملاحظة هذا الأصل يجب أن نرىٰ ما هو الغرض من الخلق؟! الغـرض الذي لا يكون فيه تكميل للخالق، ولكنه في نفس الوقت، يخرج فعلُهُ عن العبث واللغو. إن الهدف من الخلق هو أن يوصل كل موجود إلى الكمال الذي يستحقه، دون أن يكون هذا العمل ذا نتيجةٍ لذاتِه الطاهرة.

كل موجود في هذا العالم له قـابليةٌ يستحقهـا ولسان حـال الجميع يُـطالبُ بالكمال، وخلقُ العالم هو نوع من الجواب لهذه الاسئلة الطبيعية والذاتية. وفي الحقيقة هو لإيصالهم إلى الكمال.

وبعبارة اخرىٰ، إن الخلق هو نوع من الإحسان والفيض من قبل الله سبحانه بالنسبة للموجودات الممكنة، ومثل هذا الخَلق له (حُسْنٌ ذاتي)، وقيام مثل هذا الفعل المقبول ذاتاً لا يمكنه إلّا أن يكون فعلاً جميلاً ولا يحتاج إلى شيءٍ آخر. وإنه بالخلق قد وضع جميع وسائل الكمال لأي موجود في اختياره. وقد شاءت إرادته الحكيمة أن تصل الموجودات غير الحياتية وبشكلٍ طبيعي وجبري إلى كمالهـا. بينما إرادته الحكيمة عن موجود مثل الإنسان تقتضي أن يكتسب عن طريق الإختيار والحرية بعض الكمالات.

وسؤالُ لماذا قام الخالقُ المنان بمثل هذا العمل المقبول، أشبه ما يكـون بسؤال لماذا يرد الإنسان بالخير على عمل الخير وليس بالسـوء؟! وكما أن هـذا السؤال لا جواب له، والجوابُ يكمنُ في السؤال نفسه، إذن فإن سؤالَ لماذا خلق الله الإنسان والعالم ووضعَ في اختياره وسائل تكاملِهِ، هو كذلك.

إن جوابنا إلىٰ هنا كان للذين طرحوا هذا السؤال من وجهة النظر الكلامية، ولذا فإننا قد سلكنا هذه الطريقة لحل مشكلتهم في أن هناك غرضاً من الخلق،

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٩١).

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٦) ـ سورة الدخان الآية (٣٨).

وليس في استكمال ذات الخالق، وإنما الغرض في الفعلِ نفسِهِ أي يعود إلى المخلوق، والغرض هو: انه خلق الإنسان والعالم لكي يصل كلٌّ منهما إلى الكمال الذي يستحقه.

ولكن احياناً يطرح هذا السؤال من قبل الغربيين والمتغربين وهو: ما هو الهدف من الحياة؟! ولكن قسماً منهم لم يتلق الجواب على هذا السؤال يتجه إلى النيهيليسم ـ العبثية ـ فيعتقدون بأن لا هدف من الحياة، وكثيراً ما يكتبون المسرحيات التي لا معنىٰ لها لكي يبينوا أن حياة الإنسان عبث، وقبلاً ايضاً نجد في الاشعار المنسوبة إلىٰ (الخيام) مثل هذه العبثية.

لإفهام هذه المجموعة يجب أن نسلك طريقة اخرىٰ، ونقدم توضيحاً اكثر، إن الاشخاص الذين لا يجدون للحياة واقعاً وهدفاً ويتبعون المدرسة العبثية، هم اشخاص يضعون الحياة في الإطار الدنيوي فقط. وفي هذه الحالة فهم يسألون، لماذا خُلِقنا؟ ثم بعد استهلاك مقدار من الماء والخبز نسيرُ نحو الفناء؟ الحياة في نظر هؤلاء لا تعدو ضياعاً، واما اولئك الذين يعتبرون الموت نافذةً لحياةٍ دائمة ومستمرة وأن الحياة الدنيوية هي سوق تجارةٍ للآخرة فإن الحياة في نظرهم ليست عبثاً ولن تكون عبثاً.

إن الإنسان خُلق لكي يسير في هذا العالم بما وهبه الله تعالىٰ ويطوي طريق العبادة وفي ظل هذه العبادة يخلقُ في نفسِهِ الكمالات. وهذه الكمالات تؤمن له، بعد الموت، افضل الحياة جسمياً وروحياً. وبعبارة اخرىٰ إنه يحصد في الآخرة ما يزرعُ في هذه الدنيا.

في هذه الحالة يظهر هدفُ الحياة، من حيث الجسم فإن الحياة الجسمية لذيذة ويتم تأمينها بعيداً عن الألم والمتاعب، واما من حيث العقل والكمال العقلي فإنه مظهر للصفات الإلهية، مثل (عليم) و (قادر) و (سميع) و (بصير)، ولذا فإنه سيدرك حقائق العالم اللامتناهية ببصيرة العقل ونور القلب.

وهنا يمكن ان يطرح سؤال: لماذا خلقنا لكي نكتسب مثل هذه الكمالات الجسمية والمعنوية؟! لا شك أن مثل هذا السؤال لا معنى له. لأن الخلق من أجل

تكميل موجودٍ هو عملٌ مقبول، والسؤال عن سبب ذلك مردود تماماً، ونحن نوضح ذلك بذكرِ مثال:

نسألُ إنساناً: لماذا تدرس؟! فإنه يجيب: لكي أحصلَ بعد إنهاء الدراسة علىٰ شهادةٍ تمكنني من العثور على عملٍ، فنقول: لماذا تريد أن تعمل في مؤسسة؟! فيقول: لكي احصل على ما احتاج إليه واعيش حياةً هادئة.

وهنا اذا سئل أحدٌ: لماذا أنت تسعىٰ لهذا الهدف؟

فإن جميع الناس العقلاء سيضحكون لهذا السؤال، لأن هذا الهدف مطلوب والسؤال عن المطلوب بالذات خطأ.

وفي الختام أُلخِّص مجموع الحديث في بضع كلمات:

١ ـ ليس للخالق غرضٌ عائد علىٰ الذات من خلق العالم والإنسان، أي انه لا يريد بهذا العمل أن يزيل نقصاً فيه. وذلك لعدم وجود نقصٍ فيه.

٢ ـ ليس فعل الله عز وجل بدون (هدف)، وانه مُبرّا من أي نوع من انواع الهزل. إن الهدف من الخلق هو لإيصال الفائدة إلى المخلوق ولإيصالِهِ بالتالي الى الكمال الممكن من حيث الجسم والنفس.

٣ ـ إن الإنسان بحياته الدنيوية يحصل علىٰ اسباب الكمال الجسمي والروحي في هذه الدنيا، وفي العالم الآخر فإن هذا الكمال الجسمي والروحي تُعينانه في الحصول علىٰ اللذائذ الجسمية والروحية وكمالاتٍ لا يمكن أن توصف او تُبيّنَ بالقلم.

هل الهداية والضلال بيد الله؟

سؤال: إن القرآن الكريم يسند في آياتٍ الهداية والضلال عند العباد بالله وإرادته فيقول: ﴿. . فيضل الله مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء وهو العزيز الحكيم﴾[1]. هذا المضمون بالإضافة إلىٰ هذه الآية موجودٌ ايضاً في سورة النحل الآية ٩٣، وسورة فاطر الآية ٨. فلو حقيقةً كانت الهداية والضلال بيد الله، إذن لماذا يرسل الأنبياء إلى الناس اجمعين؟! لأن الناس ليس بيدهم شيء في هذا المجال، وسوف لن يكون هناك معنىً للجزاء والعقاب.

الجواب:

لتوضيح هذا الموضوع يجب أولاً أن نلاحظ أنه إذا أردنا دراسة موضوع من وجهة نظر القرآن الكريم فلا بد أن نطالع جميع الآيات الخاصة بهذا الموضوع ثم نستخلص منها النتيجة لأنه طبقاً للقول المعروف (القرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً)، إذن وإستناداً لهذا فإن كلمة (الهداية) قد وردت بمعاني عديدة في القرآن الكريم، ولها درجات مختلفة، فمن جهة، أن (الهداية) نوعان:

أ ـ الهداية في الخلق، بمعنىٰ أن خلق الموجودات في العالم بصورةٍ تقوم خلال سيرتها الحياتية بتأمين حاجاتها وتجد طريقها، كالاعمال الغريزية للحيوانات والاعمال المنظمة لأجهزة البدن وغيرها، ويعتبر القرآن الكريم جميع هذه الاعمال بعلةِ الهداية الإلهية، حيث يقول:

﴿ربنا الذي أعطىٰ كل شيء خَلْقَهُ ثم هدىٰ﴾[2].

(١) سورة ابراهيم، آية (٤).

(٢) سورة طه الآية (٥٠).

إن هذا النوع من الهداية يُسمىٰ (الهداية التكوينية)، والهداية التكوينية في الموجودات غير الإنسانية تتم عن طريق الجبر، أي مثلاً أن النمل والنحل لا يستطيعان الكفَّ عن واجبهما، ومعدة الإنسان لا تستطيع أن تكفَّ عن العمل وغدد الهضم لا تستطيع أن لا تقوم بالترشح وغير ذلك.

ب ـ الهداية التشريعية؛ أي التعاليم والقوانين التي يقوم الأنبياء بابلاغها للناس. هذا من جهة ومن جهة اخرىٰ يستخدم في إحدىٰ هاتين الطريقتين:

الأولى ـ بمعنىٰ الدلالة علىٰ الطريق، مثلاً يسألنا شخصٌ عن عنوان ونحن نقوم بدلِّه علىٰ الطريق. . (وقد يأتي ذلك بطرق مختلفة).

ثانياً ـ بمعنىٰ الوصول إلى الهدف؛ مثلاً كالمثال الأول، نقوم بتوصيل الشخص بالسيارة إلى العنوان الذي يريد.

والآن نقدم نماذج من الآيات القرآنية الخاصة بـ (الهداية):

١ ـ إن الله سبحانه قد أهدىٰ الناس جميعاً:

في هذا الباب يقول القرآن الكريم: **﴿وهديناه النجدين﴾**[(١)].

ويقول في آية اخرىٰ: **﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾**[(٢)].

(الهداية) هنا بمعنى التدليل، وقد أُعطيت لجميع البشر في ظل العقل والضمير تكوينياً، وفي ظل تعاليم الأنبياء تشريعياً. و(الهداية) في هذه المرحلة خطوة خطوة، وعلى الإنسان أن يستفيد من ذلك، وبالخطوِ في ذلك الطريق يشكر نعمة الله، سبحانه وتعالىٰ، وفي هذه الحالة وطبقاً لوعد الله في القرآن الكريم **﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾** فإن الهداية تُمنح له دائماً، ويهديه الله عز وجل وإلاّ فإنه يُترك في حالِهِ إنْ لم يفعل. وتركُهُ هذا هو سببُ الضلال.

---

(١) سورة البلد الآية (١٠).
(٢) سورة الإنسان الآية (٣).

٢ ـ الرسول (ص) يقوم بالهداية: وكما قلنا إن الهدف من رسالةِ الأنبياء في الحقيقة هو هداية النـاس، لأن الأنبياء، في حـدود امكانيـات رسالتهم وواجبهم مسـؤولون عن هداية الناس، والقرآن الكريم يعتبر بصراحة هذا الأمر من واجب رسول الاسلام (ص)، حيث يقول:

- ﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾[١].

(الهداية) في مثل هذه الآيات ايضاً بمعنىٰ التدليل علىٰ الطريق، والمقصود هو (الهداية التشريعية)، ولها صفة العمومية لمن يصل كـلام النبي (ص) إليهم، المسلم والكافر، البـاحث عن الحقيقة والمعـاند.. و.. الجميـع يستفيدون من ذلك.

٣ ـ القرآن الكريم يهدي:

هداية القرآن ايضاً بمعنى التدليل على الطريق الصحيح، وتختص بأشخاص يؤمنون بالله سبحانه وتعالىٰ وبالقرآن الكريم، ويرغبون في تنظيم حياتهم وفقاً لتعاليم القرآن، وفي هذا الباب آيات كثيرة، منها في اول سورة البقرة:

- ﴿هدىً للمتقين..﴾[٢].

٤ ـ إن الله يهدي من يشاء:

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم ترىٰ ان هداية وضلال الاشخاص منوط بالله سبحانه وتعالىٰ، مثل:

- ﴿..فَيُضل الله من يشاء ويهدي من يشاء..﴾[٣].

إن من ينظر سطحياً إلى هذه الآيات يسأل نفسه: لماذا يهدي الله مَنْ يشاء؟!

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم توكل الهداية والضلالَ إلىٰ مشيئة الله عز

---

(١) سورة الشورى الآية (٥٢).

(٢) سورة البقرة الآية (٢).

(٣) سورة ابراهيم الآية (٤).

وجل، بمعنى ﴿فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾. إن جملٌ (يهـدي من يشاء) و (يضل من يشاء) مكررة في القرآن، وكأن هناك تأكيداً عليها، لدرجة يقول الله سبحانه للنبي الأكرم (ص):

- **﴿إنـك لا تهـدي من أحببت ولكن الله يهـدي من يشـاء وهـو أعلمُ بالمهتدين﴾**[1].

وأحياناً تأتي هكذا: **﴿ولو شئنا لأتينا كلَّ نفسٍ هُداها..﴾**[2].

إن من ينظر سطحياً إلى مثل هذه الآيات القرآنية من الممكن أن تقع له هـذه الاشكالات:

أولاً: لماذا لا يهدي الله سبحانه وتعالى الجميع إلى الطريق الصحيح؟!

ثانياً: إذا كان الوضع كذلك ولا يوجد اي عامل آخر غير مشيئة الله عز وجل يؤثر في الناس، إذن فإن إرسال الأنبياء عملٌ عبثٍ، ويجب اغلاق جميع المؤسسات التربويـة والكتب الأخلاقية وامثالها الموجودة لحد الآن.

ثالثاً: إن هذه المجموعة من الآيات، مع الكثير من الآيات القرآنية الأخرىٰ، التي تعتبر الإنسان مشمولاً بالهداية الإلهيـة، أو أن الهدايـة الإلهية من واجبـات النبي (ص)، غير منسجمة مع بعضها البعض. فلو أن الهداية كان لها معنىً واحدٌ مشخصٌ، فإن جميع هذه الآشكالات تزول، ولكن ليس الأمر كذلك، وكما ذكرنا، فإن للهداية معاني ومراتب مختلفة، أي أنه أمرٌ نسبي، ولها (للهداية) في كل موضع معنىٰ خاصاً ومناسباً يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار.

إن الهدف من (الهداية) في هذه المجموعة من الآيات، المراتب العالية من الهداية، والوصول إلىٰ السعـادة الخالـدة، وهو ليس على درجـةٍ واحدة، بـل له درجات مقابل ذلك، يعني الضلال، وفقدان تلك الـدرجات الإنسـانية السـامية.

---

(١) سورة القصص الآية (٥٦).

(٢) سورة السجدة الآية (١٣).

ويتضح، من خلال دراسة آياتٍ قرآنية اخرىٰ، ان إرادة الله، ليست بلا حساب، بل ترتبط بالإستحقاق الذي لكل فرد.

إن الذين يلبون نداء العقل والفطرة، والطريقة والأسلوب الذي وضعهما الله عز وجل لهم بواسطة الأنبياء، فهم في الحقيقة يشكرون هذه النعم ويستحقون أن يهديهم الله مرة أخرىٰ، ويوصلهم إلى مراتب الهداية والسعادة الخالدة. والآن ولتوضيح الموضوع اكثر نأتي بمثال:

افترضوا أن عدداً من الاشخاص يقفون في تقاطع طريق ويسألون عن (حارة) فيدلهم شخص علىٰ شارع تقع فيه (الحارة)، فيقبل عدد منهم ويسيرون في ذلك الطريق، وعندما يصلون إلى التقاطع الثاني والثالث، فيسألون ثم يُدَلّون مرةً أخرىٰ حتى يصلوا إلى مقصدِهم، واما الذين بقوا، أو ساروا في طريقٍ آخر وانحرفوا فإنهم يبتعدون عن الهدف لحظةً بعد لحظة حتى لا تبقىٰ لديهم فرصة لكي يهتدوا مرةً اخرىٰ.

إن الله سبحانه وتعالى أيضاً قد هدى الجميع طبقاً للآية ٣ من سورة الإنسان والآية ١٠ من سورة البلد اللتين ذكرناهما سابقاً ـ وقد جاءت ارادتُهُ على أن السائرين علىٰ الطريق يجب أن يُهتدوا مرةً بعد مرةٍ ويصلُ بهم إلى ذروة الإنسانية، وبتعبير القرآن الكريم:

ـ ﴿. . والذين اهتدوا زادَهم هدىً. .﴾[1].

وعلىٰ هذا الأساس نرىٰ القرآن الكريم في مكان يعتبر (الهداية) من آثار ونتائج الجهاد والسعي في سبيل الله سبحانه وتعالىٰ:

ـ ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا﴾[2].

وفي مكان آخر يُعرِّف انبياء كنوح وابراهيم وموسىٰ عليهم السلام من الهداة، ويأمرُ الآخرين بإتباع طرقِهم: ﴿اولئك الذين هدىٰ الله فبهداهم اقتده﴾[3].

---

(١) سورة محمد (ص) الآية (١٧).

(٢) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

(٣) سورة الأنعام الآية (٩٠).

ومن جهةٍ اخرىٰ، فإن مشيئة الله تقتضي أن يُترك المجرمـون والمنحرفـون الذين لا يليق بهم أن يحصلوا علىٰ مراتب الهداية وأن لا يهديهم، وسيؤدي هذا الأمر الىٰ ضياعهم اكثر فأكثر ـ لأنهم في كل خطوةٍ يخطونها يبتعدون عن الهدف ـ إذن فإن الله سبحانه وتعالىٰ يضل من يشاء، أمـا من هم هؤلاء؟! يجيبُ القرآنُ الكريم علىٰ هذا السؤال: ﴿وما يُضِلُ به إلاّ الفاسقين﴾[1] ويقول في مكان آخر: ﴿فلما زاغوا أزاغَ الله قلوبَهم﴾[2].

نعم إن الله يستطيع أن يهدي الجميع سواء السبيل ويجبرهم على ذلك:
ـ ﴿ولو شئنا لآتينا كُلَّ نفسٍ هداها . .﴾[3].

ولكن في هذه الحالة، ما كان الإنسانُ ليكون إنساناً، وإنما ماكينةٌ من لحم تسير بضغط زر ودون إرادة في الطريق المرسوم. أو علىٰ الأكثر (دبيبة) يأخذُ الله تعالىٰ بناصيتها، ليس لها قـدرة على التخلف في اداء الاعمال الغـريزيـة، وهي مجبورة، بما يتناسب مع حياتها، كالنحلة، أن تصنع خليتها، أو كالعنكبوت ينسج خيط شبكة، أو كدودة القز تنسج حول نفسِها خيوطاً.

واما الآن، فإن الإنسان حر، وقد منحه الله تعالى قدرةً على الأختيار، لكي يخطو طريق التكامل بنفسِه، وهذا الطريق مفتاح امامه حتىٰ النهاية، إذن فإن بيان القرآن الكريم في هذا الصدد يأتي كتعاليم الاستاذ لتلاميذه فيقول: اننا قد اعطيناكم دروساً، والآن فإن أياً منكم قرأ درسَهُ جيداً يحصل على درجةٍ جيدة، واننا نقبل من نُريد ونَرُدُّ من نشاء، ولا يوجد أحدٌ يعترض علينا ويُغيّر رأينا.

وهكذا نرىٰ أن المعلم قد جعل من صلاحيته قبول او ردّ أيّ من تلاميذه طبقاً لما يستحقه التلميذ.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٦).
(٢) سورة الصف الآية (٥).
(٣) سورة السجـدة الآية (١٣).

خلق العالم واستغلال الإنسان له:

ولكي ندرك جيداً ما ذكرناه، ولكي نلم بعمق آيات القرآن الكريم من المناسب أن نوردَ حديثاً قصيراً وملخصاً عن خلق العالم وكيفية إستفادة الإنسان منه، لكي ندرك معنىٰ الهداية. إن الله سبحانه وتعالىٰ قد خلق العالم بيده، وكذلك جميع الذرّات الصغيرة والكبيرة بحسابٍ دقيق وغير قابل للتخلف في مدار معين، ووسع جهاز الخلق لدرجة لا يلم موجود بالموجودات التي تحيط به او يذكر أسماءها، لأنه هو ذرّة في الكون الواسع، والله تبارك وتعالىٰ هو وحده الخالق الذي يعرف سر الخلق، وهو الذي قرر برنامج حياة جميع الموجودات بصورة كاملة وتامة: **﴿فلن تجد لسُنة الله تبديلاً ولن تجد لسُنة الله تحويلاً﴾**[1].

إن الإنسان من بين جميع الموجودات في نظام الخلق هو صاحب اختيار وقد مُنح قوة يمكنه إظهارها، وباستفادتِهِ من العقل تمكن من الاستمرار في الحياة، ولكن ميزان معلوماتِهِ، مهما كانت كثيرة وتأخذ في الازدياد، فإنه لن يستطيع الإلمام بجميع رموز وأسرار الطبيعة، والحقائق كما هي، وكذلك ظروف وعالم الوجود، ولذا فإن الله تبارك وتعالىٰ يضع شروط الحياة امام الناس طبق برنامج إنساني (وكما تدور عليه عالم الطبيعة طبقاً للسُّنة الإلهية) بواسطة الأنبياء (ع) وباسمِ الشريعة والدين، ويعين لهم كيفية الحياة الإنسانية للإنسان النامي. طبعاً والناس هؤلاء يمشون طبقاً للأوامر الإلهية والأنبياء (ع)، إن المشيئة الإلهية والسُّنة التي لا تتبدل له عز وجل هي التي تقود الإنسان الذي يتوفق بواسطتهما في الدنيا والآخرة، ومن يبتعد مخالفاً لنظام الخلق عن الأوامر الإلهية، فإنه محكوم عليه بالزوال طبقاً لناموس الطبيعة ولن يستفيد من الحياة الإنسانية الحقة، وبعبارة أخرىٰ فإن لعالم الخليقة منهجاً يدور حوله ومن جعل نفسه في مدارِه فإنه يتوفق، ومن خالف يبتلىٰ بالبلايا، وهذه سُنة ومشيئة الله سبحانه وتعالىٰ فالإنسان مهما إزدادت معرفته وعلمه فإنه ذلك

---

(١) سورة فاطر الآية (٤٢).

العضو الصغير في عالم الخليقة الذي لا يستطيع بدون مساعدة ومعونة الله عز وجل أن يَنظم لنفسِه منهجاً مناسباً مع عالم الخليقة. لذا لا يمكن لأي أحد سوىٰ الله أن يتصدىٰ لمنصب (الهداية) ويهدي جميع الناس. والله الرحيم بواسطة الأنبياء وطبقاً للمصلحة قد دلَّ علىٰ الطريق، وصنع وخلق العالم بهذه الصورة الجامعة والكاملة.

نستنتج من هذا البحث، بشكل مختصر، من وجهة نظـر القرآن الكريم أن الأنبياء جاؤا لهداية الناس وبيان الطريق الصحيح لهم، ثانياً: إن الإنسان مرّ في انتخاب الطريق. ثالثاً: إن مراتب الهداية الإلهية هي عمومية، ولكن الاستفادة من المراتب العالية هي من نصيب وصلاحية ما يكتسبه الشخص. والقصد مما يريدُهُ الله عز وجل هو هذا.

* * *

حرية الإنسان وقانون الوراثة

معروف أن الإنسان خُلق حراً ومختاراً، ومصيرُهُ بيده، وانه هو مصمم حياتِهِ ومستقبلِه. ومن جهةٍ اخرىٰ فإن قانون الوراثة، الذي هو من المبادىء الأصولية في العلم، يقول لنا: إن الابناء ليس فقط يرثون المال والصفات الظاهرية للوالدين، بل إنهم يرثون ايضاً الصفات الباطنية من خيرٍ وشرٍ أيضاً، وهذه الصفاتِ الوراثية ذات أثرٍ في مصيرِهِم بشكلٍ كامل، فكيف يمكن اعتبار الإنسان (حراً) في تعيين مصيره؟!

الجواب:

لقد تصور الجبريون بعد ظهور قانون (الوراثة) انهم حصلوا علىٰ دليل قوي وحربة قاطعة، لأنه بناء علىٰ قانون (الوراثة) فإن جميع الصفات الظاهرية والباطنية للوالدين تنتقل مُفهرسةً إلى الأبناء، وما الأبناء إلّا عصارة لصفات وروحيات الوالدين (!!).

ولكن يرىٰ البيولوجيون انهم مكتشفو ظاهرة (الوراثة)، وأن الوراثة ليس لها تأثير كبير حتى يقال انها تلعب دوراً رئيسياً في تعين مصير الإنسان، وإنما يجب ان نعلم ان الصفات الظاهرية لا يمكن تغييرها ولكن الروحيات الوراثية تقبل التغيير والتحوّل.

بغض النظر عن ذلك فإن حدود (الوراثة) لم تحدد بعد ولم تُشخّص، وجميعنا نرىٰ أنه احياناً يوجد لآباء سيئين ابناء ذوي اخلاق حسنة وطيبة، وكذلك لآباء اقوياء ابناء ضعفاء.

اضافة إلى ذلك يجب أن نلاحظ أن قانون (الوراثة) ليس بالدرجة التي تُبطل آثار التربية. ولهذا السبب لم يُر ولم يُسمع أن شخصاً لا يربي ابنه لأنــه إن اراد أو لم يرد، يَرِثُ اخلاقَهُ وصفاته، وانه لا يمكن عمل شيء مقابل قانون الوراثة.

إن عامل الوراثة مهما كان يتأثر مقابل حرية الإنسان، ومقابل العوامل التربوية وغيرها. فهذه الظاهرة (الوراثة) تُشكل ضلعاً من اضلاع شخصية الإنسان، والاضلاع الاخرىٰ تُوجِدها الثقافة والبيئة. وأقدم من كل ذلك الحرية الذاتية للإنسان، ولكي يطّلع القرّاء علىٰ مقدار تأثير الوراثة، ويتضح كيف أن ظاهرة الوراثة لا تستطيع أن تقاوم العوامل الاخرىٰ للتربية، فأننا سنتحدث قليلاً عن ذلك:

الوراثة والبيئة: لا شك أن أحد العوامل الذي له اثر بنّاء في شخصية الإنسان، هو عامل الوراثة، حيث ان لون البشرة، والعين، والشعر، والطول والمشخصات الجسمية الأخرىٰ تكون في الغالب موروثة وتنتقل عن طريق (الجينات) ذات التركيب الوراثي من الوالدين والأجداد إلى الأبناء، وبعض الصفات الأخلاقية لها جذور وراثية ايضاً.

ولكن (الوراثة) هي عامل واحد من عوامل تكوين شخصية الإنسان، وهناك ايضاً عوامل اخرىٰ إلى جانب ذلك العامل، لكل من هذه العوامل اثره الفعّال في وضع الإنسان، واهمها: التربية، الوضع العائلي، المجتمع، الاقتصاد، الثقافة التغذية، الجو والمناخ وغير ذلك...

وربما امكن ايجاز جميع ذلك في كلمة واحدة هي (البيئة). ولهذا فإن الصفات والمشخّصات الوراثية للانسان نوعان:

١ ـ الصفات والمشخّصات التي تظهر على شكل كفاءة واستعداد الإنسان مثلاً الامراض الجسمية، كمرض السل، فإن الطفل الذي يولد من والدين مسلولين فإنه يكون مستعداً للإصابة بهذا المرض، ولكن إذا فصل هذا الإبن منذ الولادة عن والديه وينقل إلى مكانٍ سالم فإنه يستعيد سلامته.

وللكثير من هذه الصفات والاخلاقيات وضعٌ لما بيّناه.

إن الطفل الذي يولد فإنه يأتي مع سلسلةٍ من الكفاءات الموروثة، وإذا واجه هذا الطفل بيئة نامية فإنه يزدهر وينمو استعدادُه، واذا واجه عوامل غير مشجعة، فإنه يضمرُ ويخمد استعدادهُ وربما هلك، كذلك من الممكن أن يساعد المناخ والغذاء في تغيير لون البشرة والوضع الجسمي للإنسان، كما إن الاخلاق والعادات الموجودة في البيئة تنمي كفاءته واستعداداته المختلفة الروحية والنفسية.

ولكننا نرىٰ، مع الأسف، بعض الناس الذين يتبعون النظريات اليائسة يغفلون عن الدور الذي تلعبه (البيئة) في حياة الإنسان أو يتغافلون، كما أن بعض الشعراء والكتاب الذين يقعون تحت تأثير هذا النوع من التفكير، يصنعون افكارهم في النثر والشعر وبقالب جميل مخادع ويقدمونها إلى الناس. كالشاعر الفارسي الذي له قصائد منها القصيدة التي مطلعها ما ترجمته:

ـ ان الشجرة الخبيثة خبيثة الصفات.

حتى ولو نبتت في الجنة..

ثم يستنتج الشاعر بعد ذلك أن هذه الشجرة الخبيثة لا تعطي إلاّ ثماراً خبيثة. وفي رأينا أن مثل هذه الأشعار هي كالسُّم المغطىٰ بمادةٍ حلوة (كالسُّم في العسل)، لأن حقن الافكار اليائسة تقضي على قدرة العمل والفعالية في المجتمع، وبحجة أن هذه الصفات لن تتغيّر فإنهم يسلبون الشعور بالمسؤولية لدىٰ الأفراد.

صحيح أن الحنطة لا تنتج غير الحنطة، والشعير لا ينتجُ غير الشعير، وإذا غرسنا شجرة تفاح فإنها تنتجُ تفاحاً، ولكن يجب أن لا ننسىٰ أن هذه الحنطة وهذا الشعير والتفاح ليست كلها متساوية، حيث يمكن بالرعاية وانتخاب الأرض الخصبة والسماد والسقي الجيد الحصول علىٰ انتاج أفضل.

واذا لم يحصل تغيير بعض الصفات الموروثة بالتربية، ولكنه ممكن ايجادُ تغيير في التفكير، والذوق، والاخلاق والعادات لدىٰ الاشخاص عن طريق البيئة.

ونرىٰ مناسباً هنا أن نقتطف شيئاً من كتاب (الإنسان ذلك المجهول) من تأليف «الكسيس كارل» عالم البيئة المعروف:

ـ «وكما نعلم أن الاختلال العقلي والجنون والبله والهيموفيليا من معايب الوراثة، كما أن بعض الأمراض كالسل والسرطان وضغط الدم وغيرها هي ارضية تنتقل من الوالدين إلى الطفل، ولكن من الممكن أن ظروف البيئة وكيفية الحياة تمنع ظهور هذه الأمراض».

ونقرأ في مكان آخر من الكتاب:

ـ «للعوامل النفسية والبيئوية آثار عميقة في بناء الشخصية، لأنها تضع اللبنات الفكرية والمعنوية مع دوران الدم وترشحات الغدد فتبدل جميع هيكل الجسم، وارضية الوراثة مهما كانت، فإن الشخص يكون تحت تأثير التربية، التي تضع الإنسان على طريق يؤدي به امّا إلى الذروة، أو إلى الحضيض حيث يستقر في المستنقعات».

طبقاً لهذا القول فإن التربية وبيئة العيش، وحتى ترشحات الغدد وكيفية جريان الدم لها آثار علىٰ الإنسان. ويقول ايضاً:

ـ «إن نمو البدن طبقاً للعوامل الخارجية تسير بطرق مختلفة، وتحرك الخصائص الذاتية له، أو تُعطِّلها كلياً او جزئياً. ومن البديهي أن الوراثة تتأثر بعمق بعوامل التربية».

إن الأنبياء لم يأتوا لتغيير لون بشرة وعيون الناس، ولمعالجة الامراض الوراثية كالجنون والبَلَه، وإنما جاؤا ليقوموا، علىٰ اساس الإيمان بالله، بتربية وتعليم المجتمع، ويمنحوهم الفهمَ الديني، ويحيون كفاءاتهم، ويوقظون عقولهم، ويصححون غرائزهم المختلفة للسيطرة عليها. والتاريخُ يبينُ لنا أن الأنبياء كانوا البناة المقدسين والحقيقيين لواقع الحضارات البشرية والمجتمعات الإنسانية، ودفعوا الإنسان نحو التكامل علىٰ طريق التحرك العظيم. وظهور الاسلام نموذج حي للاعمال الجبارة للأنبياء التي زيّنَتْ صفحات التاريخ. فهل يمكن تجاهل دور الاسلام في الحضارة العالمية وخاصة الأمة العربية؟!

طبعاً اننا لا ننكر أن الشعوب التي ابتعدت عن تعاليم الأنبياء وأبتليت بالمجتمع غير السالم وسادَهم زعماء غير كفوئين، اصيبوا تدريجياً بالإنحراف، ونسوا إلى حدٍ ما تعاليم الأنبياء (ع) او غيرّوها، ولكن هذه الانحرافات تكون غالباً معلول وضع البيئة وظروف التربية لهم، وليس نوعية (الجينات الوراثية) وعواملها.

كان هذا مختصراً حول تأثير (الوراثة) في تكوين شخصية الإنسان.

* * *

هل اتباع اي مذهب سبب للنجاة؟

يلاحظ احياناً أن البعض يعتمدون على الآية التالية فيستدلون علىٰ حقانية المذاهب الأخرىٰ، ويدّعون من وجهة نظر القرآن الكريم علىٰ أن أي انسان يكون في الآخرة من الناجين اذا اتّبع المذاهب المذكورة في الآية التالية: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارىٰ والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[1].

إن القرآن الكريم يشترط لنجاة هؤلاء ثلاثة أشياء: الايمان بالله، والايمان بالآخرة، وأداء العمل الصالح، وتكون النتيجة أن لكل شخص ثلاثة شروط، من أي فرقة ومجموعةٍ كان، فإنه سيكون من الفرقة الناجية. فهل هدف الآية هو ما يفهمُهُ هؤلاء منها بهذه الصورة؟ او أن الهدف شيءٌ آخر؟

الجواب:

لنفهم الآية يجب اولاً أن نُذكّر ببعض النقاط:

١ ـ فكرة الشعب المختار: إن يهود العالم وكذلك النصارىٰ في مرحلةِ الرسالة كان كل واحد منهما يعتبر نفسِهِ افضلية علىٰ الآخرين، ولهذا كانوا يفكرون بسموها علىٰ بقيةِ الناس، مثلاً فإن جميع الناس سمعوا بهذه الأفضلية من اليهود الذين يعتبرون أنفسهم الشعب المختار، والقرآن الكريم يذكر في إحدىٰ الآيات أن النصارىٰ ايضاً، بالإضافة إلى اليهود، كانوا يدّعون ذلك أيضاً، حيث يقول:

(١) سورة البقرة الآية (٦٢).

﴿وقالت اليهود والنصارىٰ نحن ابناء الله واحباؤه قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خَلَق﴾[1].

وكما تلاحظون فإن الله سبحانه وتعالىٰ لكي يُبطلَ منطقهم فإنه يقول:

﴿. . قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل انتم بشرٌ ممن خَلَق﴾.

إن غرور اليهود قد وصل درجة انهم تعاهدوا مع الله عز وجل فقالوا: ﴿لن تمسّنا النار إلاّ أياماً معدودة﴾[2]، والقرآن الكريم يقول بعد هذه التهمة مُبيّناً بطلان حديثهم: ﴿قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده أمْ تقولون على الله ما لا تعلمون﴾[2].

يُستفاد من هذه المحاورة، أن اليهود كانوا يعتبرون انفسهم نسيجاً، مختلفاً عن الآخرين وانهم مختارون بصفةٍ خاصة، وكأنهم الأعزة عند الله الذي يعطف عليهم ويشملهم بلطفهِ الخاص.

٢ ـ ان أسماءً كاليهودي والمسيحي ليست سبباً للنجاة:

يستفاد من سلسلةٍ من الآيات الأخرىٰ ان هذا الشعب[3] اضافةً لانتخابهم لأساطير عن الجنة والجحيم، والهداية والضلالة، فإن لهم رأياً خاصاً وأن الجنة والهداية تختصّان بمن ينتسب إلى عنصر بني اسرائيل، او من يتبع المذهب اليهودي، وكذلك يعتقد النصارىٰ، وكأن الانتساب إلى عنصر بني اسرائيل ا الانتساب إلى أحد هذين المذهبين بإمكانهِ أن ينجي الإنسان من النار ويجعلهم مر أهل الجنة ويفتح امامهم ابواب الهداية، حتىٰ ولو كانوا عملياً في أدنىٰ درجة فأنهم كانوا يقولون: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً او نصارى﴾[4].

---

(١) سورة المائدة الآية (١٨).

(٢) سورة البقرة الآية (٨٠).

(٣) المقصود الشعب اليهودي الأول وليس من تديّنوا باليهودية من الشعوب الأخرى (المترجم)

(٤) سورة البقرة الآية (١١١).

والقرآن الكريم لكي يفند مثل هذه الفكرة الباطلة يقول في الآيـة التاليـة:
﴿تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلىٰ من اسلم وجهه لله وهـو محسن فَلَهُ أجرُهُ عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

إن هذا الموضوع (إن الجنة لليهودي او النصراني فقط) ما هو إلّا سراب، إن عبارة (من اسلم) تدل علىٰ لزوم الايمان الحقيقي، وعبارة (وهو محسن) دليل علىٰ لزوم العمل وفقاً للمذهب والشريعة، والعبارتان تدلّانِ علىٰ انه ليس اسم (يهودي) او (نصراني) ملاكاً للنجاةِ يوم القيامة، وإنما ملاكُ السعادة هـو الايمان والعمـل الصالح. وفي آية اخرىٰ يُشيرُ القرآن الكريم إلى بطلان فكرتهم بأن ملاكَ العمل والتوفيق هو الانتساب إلى اليهودية او النصرانية حتى ولو كان ذلك مُصاحَباً بالشِّرك:
﴿وقالوا كونوا هوداً او نصارىٰ تهتدوا﴾ [2].

والله سبحانه وتعالىٰ لكي يبين بطلان هذا المنطق فإنه يُبين فوراً طريق الهداية والفَلاح حيث يقول: **﴿قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** [3].

وفي آية أخرىٰ يُبين عز وجل ضعف فكرة الانتساب إلى الاسمـاء التي لا محتوىٰ لها مثل (اليهودية) و(النصرانية)، حيث تقول الآية:
- **﴿ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مُسلماً وما كان من المشركين﴾** [4].

من هذه الآية ونظائرها يُستفاد ان اليهود والنصارىٰ، وخاصة قوم اليهود، كانوا يفتخرون بمسألتين ولهذا كانوا يضعون عن عواتقهم اداء الفرائض والمسألتان هما:

١ـ كانوا يعتبرون انفسهم الشعب المختار.

---

(١) سورة البقرة الآية (١١١) و(١١٢).
(٢) سورة البقرة الآية (١٣٥).
(٣) سورة البقرة الآية (١٣٥).
(٤) سورة آل عمران الآية (٦٧).

٢ ـ كانوا يكتفون باسماء (اليهودية) و (النصرانية) للتخلص من المسؤوليات الدينية والفرائض السماوية التي اساسها الايمان والعمل الصالح، والقرآن الكريم عند طرح إحدىٰ الفكرتين يرد عليهم بشدة وبمنطقِهِ القوي في أن جميع افراد البشر سواسية وأن نجـاة الانسان تكمن في الإيمـان والتسليم لله تبارك وتعـالىٰ والعمل بالفرائض الإلهية وأداء الاعمال الصالحة فقط.

دراسة الآية الخاصة بالسؤال: وطبقاً لهـذا البيان فـإن مفاد الآيـة المتعلقة بالبحث يتوضح، فالقرآن الكريم في هذه الآية وبالاعتماد على آياتٍ تعكس الافكار الضعيفة لليهود والنصارىٰ ينتقد هذه الأفكار، وبنداء عالمي عام يقول: إن جميع افراد البشر سواسية عند الله، ولا فضل لأحدٍ علىٰ أحد، وإن هي إلّا ألفاظ وأسماء يفتخرون بها واعتقدوا أن هذه الأسماء هي التي تنقذهم وتنجيهم، ولكنها ألفاظ خالية لا تجدي نفعاً وليس بامكانها أن تجلب السعادة او التوفيق والأمن والهدوء، ولكن النجاة لا تأتي إلّا إذا آمن الإنسانُ من صميم قلبه واقتـرن إيمانـه بالعمـل الصالح وبدونهما لا امل لنجاةِ أي شخص من هذه الاقوام.

ولهذا فإن الآية لا يقصد منها أن جميع الشرائع القديمة مقبولة وأن الإنسان له حق الانتخاب منها، وإنما القصد منها إبطالُ التفاضل وعدم جدوىٰ بعض الألفاظ، وهذه الحقيقة منعكسة تماماً في هذه الآية، وفي آياتٍ اخرىٰ من جملتها سـورة العصر: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم * والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾.

إن القرآن الكريم ولبيان هذه الحقيقة التي هي مَلاكُ النجاة والإيمان الحقيقي وأداء التكاليف يكرر كلمة الإيمان في هذه الآية:

﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارىٰ والصابئين من آمن بالله..**﴾ [(١)].

ان المقصود من (آمنوا) في بدايةِ الآية هم اولئك الذين (اسلموا) في الظاهر،

---

(١) سورة البقرة الآية (٦٢).

ويسمون مؤمنين، والمقصود من (آمنوا) في المرحلة الثانية هو الايمان الحقيقي الموجود في قلب الإنسان وينعكس اثره في اعمالِهِ وافعالِهِ.

بملاحظة هذه المقدمات فقد اتضح أن هدف الآية هو إبطالُ العنصرية يعني العنصرية في اليهودية والمسيحية، وأن لا ميزة لاتباع هذين المذهبين وأن افراد البشر سواسية امام الله تبارك وتعالىٰ، ولهذا لا يمكن إستنباط نظرية (صلح الكل) من هذه الآية والإدعاء بأن اتباع جميع المذاهب والمسالك هم الناجون. والحقيقة انه لتفسير القرآن الكريم لا يجب التمسك بآية واحدة وجعلها مقياساً للحقِ والباطل، وغض النظر عن الآيات الأخرىٰ، بل إن آيات القرآن الكريم تفسر كل واحدةٍ منها الأخرىٰ، وفي المجموع ان جميعها مفسرةً بعضها لبعض. ولأمير المؤمنين الامام علي (ع) جملة عن القرآن الكريم من الضروري للمهتمين بتفسير القرآن أن يطلعوا عليها «**وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض**»[١].

ونحن عندما نرجع إلى الآيات الأخرىٰ حول رسالةِ الأنبياء نرىٰ أن القرآن يعتبر الهداة من أهلِ الكتاب من آمن منهم بما آمن به المسلمون حيث يقول: ﴿**فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا**﴾[٢]. ولنر الآن ما آمن به المسلمون وماذا يقول كتابهم السماوي لكي يؤمن به اليهود والنصارىٰ، فالقرآن يقول: ﴿. **ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[٣].

إن رسول الله هذا قد أُرسِلَ بنظام واسع وشريعة كاملة اكمل من جميع الشرائع، وكتابه خاتم الكتب والحافظ لها: ﴿**وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهيمناً عليه**﴾[٤]. و (المهيمن) يعني الحافظ، والقرآن يحافظ على المبادىء القديمة بمعنىٰ إذا حدث تحريف في الكتب القديمة فإنه يمكن الرجوع إليه لبيان ذلك التحريف.

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة ١٩٢ طبعة لمحمد عبده.
(٢) سورة البقرة الآية (١٣٧).
(٣) سورة الأحزاب الآية (٤٠).
(٤) سورة المائدة الآية (٤٨).

إن من جاء بالقرآن الكريم باعتباره خاتم الأنبياء فإنه جاء بالشريعة الجامعة والكاملة للبشر ولهذا يخاطب العالم بهذا النداء ﴿**يا ايها الناس اني رسول الله إليكم جميعاً**﴾[1] وهكذا يُعلنُ عن عالميةِ رسالته، ولا يُجيزُ بعد ذلك إتباعَ اي كتابٍ آخر، وقد كتب رسول الله (ص) في العام السابع والثامن من البعثة الشريفة رسائل إلى رؤساء الدول التي تدين بالزردشتية والمسيحية يدعوهم إلىٰ اتباع الإسلام.

النتيجة: هدف الآية نفي الامتيازاتِ الوهمية لليهود والنصارىٰ. واما بخصوص اتباع اي مذهب وكتاب فيجب مراجعة الآيات والأحاديث الأخرىٰ التي تتفق جميعها على اتباع شريعة خاتم الأنبياء ولا تجيز اتباع أي مذهب آخر، لأن زمنها قد انقضىٰ.

* * *

(١) سورة الاعراف، الآية (١٥٨).

هل تحقق الهدف من إرسال الأنبياء؟

إذا كان الهدف من إرسال الأنبياء (ع) هو اصلاح المجتمع الإنساني إذن كيف تحقق هذا الهدف وصفحات تاريخ البشر مليئة بالجرائم؟

الجواب:

نحن ايضاً نقبل أن بعض الاشخاص - إذا كنا نستطيع أن نسميهم باسم الانسان - ارتكبوا جرائم سوّدت وجه التاريخ، ولكن المهم هو انه لولا تعاليم الأنبياء ماذا كان يحدث؟ وما هو الشكل الذي كانت ستكون عليه المجتمعات؟ وبتعبير آخر لتقييم خدمات الأنبياء، يجب مقارنة الوضع الحالي بالوضع الذي كان سيكون عليه عند عدم إرسالهم. لا شك أن هذا العمل، وإنْ لم يكن محالاً، فهو صعب. امامنا الآن طرق مختلفة لدراسة هذا الموضوع في التاريخ القديم والمعاصر، مثلاً نستطيع مقارنة وضع العرب في العصر الجاهلي، الذي خمدت فيه انوار الأنبياء، بالوضع الذي حصل بعد ظهور نبي الاسلام (ص)، ثم نقوم بعد ذلك بتقييم الأثر البنّاء والواسع من ظهور الأنبياء والرسل.

أَلم يقضِ على (الجهل) ومظاهره المختلفة كعبادة الاوثان، الخرافات، التشتت، التفرقة، الفقر والفساد بظهور نبي الاسلام (ص) في الجزيرة العربية، والى حيث نفذ شعاع الاسلام، وحل محلَهُ العلمُ، والحضارةُ، والتوحيد، والاتحادُ، والتحركُ الاقتصادي والأخلاقي؟! ثم ألم تظهر حضارة وازدهارُ الاسلام والحركة العلمية والثقافية في قسمٍ عظيمٍ من العالم؟! وهل كان للحضارةِ المسماة باسم (رنسانس) في الغرب، وكما يعترف مؤرخو الغرب المنصفون، منشأً غير ظهور الاسلام؟!

لا شك انه مع ظهور نبي الاسلام (ص) فإن جذور الفساد لم تُقتلع كلياً، ولكن المهم انه يجب دراسة ما قبل وبعد ظهور النبي الأكرم ونرىٰ الاختلاف.

واما في التاريخ المعاصر، الذي نعيشه، فإننا نستطيع أن نقوم بدراسة جيدة، لأنه رغم أن علم الطب قفز قفزة عظيمة، وارتفع مستوىٰ علم الإنسان في هذا المجال، ولكن هذا التقدم الكبير لم يخفض من جرائم الإنسان، بل وُسع من ابعادها اكثر من السابق.

فمن مظاهر ذلك؛ قسوة القلوب، المذابح الجماعية وقتل الأطفال الابرياء بالأسلحة المخربة المدمّرة وبشكل فجيع بهدف التوسع او اهداف مشابهة، والمساعدة على انتشار الفقر في العالم عن طريق امتصاص الرمق الأخير من الشعوب الجائعة، وانتهاب الثروات الحياتية للعالم الثالث، وانتشار المواد المخدرة والقاتلة كتجارة عالمية رابحة، وتصدير الفحشاء والانحرافات الجنسية بأشكال مختلفة كمصدر مادي ضخم، وامثال هذه الاعمال التي تنتشر في المجتمعات التي ابتعدت عن تعاليم الأنبياء، وكلما ازدادت هذه الفاصلة تكون هذه الفجائع اكثر إيلاماً. ولا شك أن الاشخاص والمجتمعات التي تكون اقرب إلىٰ تعاليم الأنبياء تكون فاصلتها عن تلك الفجائع اكثر، وإذا ابتعدت عن التعاليم تكون اقرب إلى الفجائع.

إن هذا الموضوع يدل على انه إذا كانت هناك عاطفة بين البشر كانت هناك قيم اخلاقية، كالإيثار، والإنسانية والعدالة والأمانة والمحبة والصدق، وصلة الرحم، والرجولة والتضحية، في سبيل الاهداف المقدسة، فانها نتيجة تعليمات الأنبياء خلال الآف السنين، إن جذور هذه لمفاهيم سُقيت بتعاليمهم، وإذا لم يكونوا، لما كانت هذه الحقائق موجودة، وكان للعالم وجه آخر، أقبح بكثير عما هو عليه اليوم. حتىٰ أن بقايا الاخلاق وحقوق الإنسان التي ترىٰ في بعض زوايا المجتمعاتِ المادية، انما هي في الحقيقة من آثار تلك التعليمات، رغم انها في الظاهر لا تربطها صلة، بدليل انه لا يوجد أي دافع مادي للكثير من هذه القيم، ولهذا لا يمكنها أن تكون نتيجة حاصلة من بيئةٍ مادية. ولا يمكن انكار دور الأنبياء في إزالة

عبادة الأوثان، التي كانت كالمرض المزمن في حياة البشر، ولولا الأنبياء لما كانت هناك مجتمعات قائمة علىٰ اساس التوحيد.

إن التاريخ يُرينا أن المجتمعات اذا كانت تبتعد عن تعاليم الأنبياء فإن بذور الشرك تنمو بسرعة.

الخلاصة؛ إن العالم بالرغم من انه لم يستطع، او لم يرد، بناء المدينة الفاضلة، بإستلهام من تعاليم الأنبياء، بعيداً عن الظلم والفساد والفوضىٰ، ولكن تمكن، إلى حدٍ ما، من تخفيض درجة الانحرافات والمفاسد والفوضىٰ.

* * *

ما الفرق بين الإسلام والقومية؟

ما المقصود بالقومية؟ هل يدافع الاسلام عن هذا المفهوم السياسي؟

الجواب:

(القومية) من انتاجات القرون الأخيرة، بُذرت في النصفِ الثاني من القرن السادس عشر الميلادي وبسرعة، واسرع نموها في القرن السابع، ووصلت إلى اوجها في القرن الثامن عشر في أوربا. ولكن في بداية القرن العشرين وخاصة بعد الحرب العالمية الأولىٰ والثانية ضعفت اعمدتها في اوربا بسبب نتائجها الوخيمة.

و (القومية) بالرغم من أنها حالة احتضار وافول في اوربا والدول الغربية، إلّا أنها ما تزال قوية في آسيا وخاصة الدول الاسلامية.

ولكن الاوضاع السياسية في العالم حكمت عليها طبقاً لمقتضيات العصر، بالزوال، ومع ظهور منظمة الأمم المتحدة والفروع التابعة لها، والاتحادات الإقليمية، مثل اتحاد الشعوب في أمريكا الجنوبية، والاتحاد الاطلانطي الشمالي، وامثالها، خُلِقَت فكرةُ تشكيل مجموعة من شعب اكبر، وهذا بحد ذاتهِ دليل على السير النزولي للقومية، علىٰ اية حال فإننا نقوم الآن بتعريف المدرستين ونقاط الضعف والقوة فيهما، ثم بيان نظرية الاسلام بهذا الخصوص.

(القومية) عبارة عن اعتقادٍ بسمو قوم وتفوقه على بقية الشعوب، وان معتقدات وقيم ذلك الشعب أفضل وأسمىٰ من معتقدات وقيم الشعوب الأخرىٰ.

(انترناسيوناليسم) ـ اتحاد دولي ـ عبارة عن الاعتقاد بالتعاون الدولي الكامل بين شعوب العالم يضمن الخير والسعادة للإنسان، ويؤدي الى تأمين وتثبيت السلام العالمي، ويقترح مؤيدو هذا النوع تشكيل دولةٍ واحدة عالمية كبيرة، دولة تشمل

جميع شعوب الكرة الأرضية دون الإخلال بالشخصية او الاستقلال الداخلي او حرية شعبٍ من الشعوب.

ويعتقد صاحب كتاب (النظريات السياسية) إن القومية بهذا المعنىٰ هو من انتاج القرون الحديثة، وفي القرون السابقة لم تكن (القومية) بالمفهوم الحديث.

لا شك أن (الانترناسيوناليسم) في رأي شخص محب للإنسانية لها مظهر خاص، رغم أن تحقيق حكومة عالمية بدون الاعتماد على مدرسةٍ إلهية غير ممكنة، ولا يمكن للاشخاص الماديين أن ينجحوا في تمتين عُرىٰ الوحدة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة، وبالنتيجة تبقىٰ الدول القوية متحكمة بالشعوب الضعيفة.

وما يُقال في هذا المجال ما هو إلّا نتيجة لغليان العواطف الإنسانية وفاعليتُهُ بدون دعم ديني ضعيفة جداً. ومدّعو مثل هذه الوحدةِ العالمية عندما يصلون إلى سدة الحكم، ينجرفون إلى القومية بدلاً من تأمين مصالح جميع الشعوب.

اننا نعلم جميعاً أن (هندوّا)[1] - (آكل للأعشاب وتارك لأكل اللحم) - غير مستعد لإيذاء أي حيوان، حتىٰ انه يبتعد عن ذبح او صيد حيوان، وبدلاً من اللحم يأكل الاعشاب فقط. إن هذا الشخص عندما تُطرح مسألة مصالح الشعبين المسلم والهندي في الهند فإنه يلطخ يده حتى المرفق بدماء المسلمين ويَخْلُقُ من كشمير مسألة صعبة الحل، تخلقُ المشاكل بين الشعبين، لماذا؟ لأنه إنحاز إلى الأهداف القومية بدلاً من الاهداف الإنسانية. ولهذا يجب القول: لا يمكن ضمان هدف الإنسان وخدمة المجتمع الإنساني، بغض النظر عن الشعوب بدون الاعتماد على مدرسة إلهية التي تملأ روح وقلبَ الإنسان بالمحبةِ والعشق للبشرية.

إن اتباع المدرسة التي تقول: «**الناس امام الحق سواء**» و «**الناس سواسية كأسنان المشط**» يتمكنون، بحفظ قوام الشعوب وشخصيتها، من ضمّها في حكومةٍ واحدة، وبدلاً من إسعاد شعباً واحد، إسعاد جميع البشر.

---

(١) احد افراد مجموعة الهندو.

إن (القومية) تركيبة من الحق والباطل، لهـا نقاط ضعف وقـوة، إنها بنّـاءة ومدمِّرة، ودمارُها في الممالك الاسلامية اكثر من نقاطِ البناء فيها. ولهـذا تسعىٰ الدول الغربية لتغميتها بين البلدان الاسلامية لدمارها وللقضاء على الوحدة بينها، فهي تفرق بين المسلمين، وبين شعبين شقيقين، لكي تعتمد الشعوب الاسلامية على قوميات مختلفة بدلاً من الأخوة الاسلامية والوحدة الدينية.

ولكي نرفع الستار عن وجه الحقيقة لا بدّ من التذكير ببعض النقاط.

نجد في تفسير كتّاب (المدارس السياسية) عن القومية النقاط التالية:

١ ـ التمسك بالأرض التي نشأ وترعرع الإنسان عليها.

٢ ـ محبة الشعب الذي ترعرعَ الإنسان بينه.

٣ ـ المحافظة علىٰ التراث التاريخي والثقافي لشعبه.

٤ ـ الرغبة في حكومة نفسِهِ بنفسِهِ والحصول على الاستقلال.

إن هذه المفاهيم لا يمكن أن تتعلق بالقومية. لأن مثل هذه الاشياء هي من فطرة الإنسان، إذ إنه طبيعي أن يحب الشخص الأرض التي نشأ عليها والناس الذي عاش بينهم وان يحب التراث التاريخي والثقافي لقومِه وكل شخص يشعر بذلك، تماماً كما أن الشخص يشعر فطرياً بالكره للعبودية وحب الاستقلال. إن هذه النقاط الإيجابية يجب أن لا تحسب لصالح القـومية، والإنسـان بدون (نـظرية القـومية) بامكانِهِ أن يحصل على جميع هذه الأشياء.

نذكّر النبي الأكرم (ص) حين هجرتِهِ من (مكة المكرمة) إلى (المدينة) تذكّر مسقط رأسه (مكة) واشتاق للعودة إليها فنزل عليه الوحي: ﴿**إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد...**﴾[1]. وقد تحقق الوعد الإلهي بعد سبع سنـوات من الهجرة. وقد فُتحت (مكة) في السنة الثامنة للهجرة، وعندما دخل رسول الله (ص)

---

(١) سورة القصص الآية (٨٥).

إلىٰ مسقط رأسِهِ عبّر عن محبته وقال (ص) إنه يحبها ولو انه لم يكره علىٰ الخروج منها لما تركها[1].

واحد مظاهر القومية الإنتساب الى اقوام وأجداد ينتسب الإنسان إليهم. مثلاً أن يقول: انني من القبيلة الفلانية، او ينتسب إلىٰ عنصر خاص. إن مثل هذا العمل ممنوع في الاسلام، ويشترط أن لا يكون اساساً للتفاخر وإنما للمعرفة وتعيين هوية الإنسان، ويقول القرآن الكريم: ﴿. . **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾[2]. يعني أن الإنتساب إلى قبيلة يجب أن يكون لمعرفة هوية الإنسان عن شخص آخر، وليس للتفاخر، إن الانتساب للعظام النخرة ليس مدعاة للتفاخر، وإنما التفاخرُ بالتقوىٰ التي علىٰ الإنسان ان يكتسبها.

دمار القومية: إن الجوانب الإيجابية للقومية هي ما ذكرنا، ولكن يجب أن نعلم أن الهدف من نشر هذه المفاهيم في البلدان الاسلامية والآسيوية والأفريقية هو الجانب المدمِّر الذي لا يُخفىٰ على اهل العلم والاطلاع، والآن نشير إلى بعض النقاط المدمِّرة:

١ ـ محو الوحدة الاسلامية: من وجهة نظر الاسلام أن (العقيدة الدينية والوحدة الفكرية) هي العامل (من بين العوامل والعناصر الموجبة لتشكيل أُمةٍ من الأمم، كاللغة والعنصر، والدم، والأرض) التي بامكانها تشكيل الأمة الواحدة، شريكة في السّراء والضّراء، بإمكانها أن تقول: ﴿**إن هذه أُمتكم أمةً واحدة وانا ربّكم فاعبدون**﴾[3]. وتقول: ﴿**وان هذه امتكم أمةً واحدة وانا ربّكم فاتّقون**﴾[4] او تعتبر الأفراد جميعاً اخوة: ﴿**إنما المؤمنون اخوة** . .﴾[5].

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٩٨.
(٢) سورة الحجرات الآية (١٣).
(٣) سورة الأنبياء الآية (٩٢).
(٤) سورة المؤمنون الآية (٥٢).
(٥) سورة الحجرات الآية (١٠).

كـان سلمان الفـارسي جالسـاً في مسجد الـرسول (ص) ذات يـوم، وكان اصحاب رسول الله (ص) هناك، فجاء الحديث عن الأنساب، فقال كل واحد منهم شيئاً عن نسبه، وعندما جاء الدور إلى (سلمان) فسألوه أن يقول شيئـاً عن نسبِهِ فقـال: انا سلمان بن عبد الله كنتُ ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد (ص)، وكنتُ عائلاً فاغناني الله بمحمد (ص)، وكنتُ مملوكاً فأعتقني الله بمحمد (ص)، هـذا نسبي وهذا حسبـي. وعندما دخلَ رسـول الله (ص) اخبره سلمـان بما حـدث، فالتفت (ص) إلى الجماعة وقال لهم: (**يا معشر قريش، إن حسب الرجل دينه، ومروءته خلقه، وأصله عقله**)[1].

جاءَ في تاريخ الاسلام؛ كان غلام ايراني بين المسلمين في معركة أحد، وقد انزلَ ضربةً بأحد الأعداء، وقال بغرور: خذ هذه الضربة مني وانا شابٌ ايراني، فقال له رسول الله (ص) لئلاّ يثير التعصب لدىٰ الآخرين: (لماذا لم تقل انا الشاب الأنصاري؟)[2].

هذا هو رأي الاسلام واسلوب النبي الأكرم (ص)، هذا بينما القومية تـريد الاستفادة من عناصر اخرىٰ بدلاً من وحدة العقيدة، وتريد بدلاً من وحدة العرب والعجم والترك والفرس وبقية الاقوام والطوائف الاسلامية أن تتفرق بعناصرها ولغاتها المختلفة، وفي النتيجة تريد بذر النفاق والعداء والتنافس في قلب كل أُمةٍ فيُقضىٰ على القوة العظيمة للإسـلام، ليسهل اخيـراً للقدراتِ الكبـرىٰ التسلط علىٰ هذه الشعوب.

لا يمكن انتقاد التراث الثقافي والحضاري على مدىٰ التاريخ لأيةِ أُمة، إذا كانت تملك مثل هذا التراث، ولكن هذه المسألة تُطرحُ في بلادِنا وامثالِ بلادِنا وكأنهم يريدون قطع صلتنا مع بقية الشعوب الاسلامية في العالم، وانهم لا يكتفون

---

(١) روضة الكافي ص ١٨١ ـ بحار الأنوار ج ٢٢ ـ ص ٣٨٢.

(٢) سنن أبي داود ج ٢ ص ٦٢٥.

بذلك بل يريدون تدمير تراثنا خلال اربعة عشر قرناً من تاريخ الاسلام، ويضربون جميع مفاخرنا العلمية والثقافية بعصىٰ القومية، وعند ذاك نبقىٰ نحن ومفاخر عهد كوروش وداريوش، بينما فصلُ ايران والايراني عن الآثار العلمية والثقافية والسياسية الاسلامية خلال اربعة عشر قرناً ليس له من نتيجة سوىٰ الدمار.

طرح ويلسون في نهاية الحرب العالمية الأولىٰ اعلانه بأربع عشرة مادة منها مادة (الاستقلال الوطني او القومي) لحفظ السلام في العالم، ونتيجةً لذلك تجزأت الخلافة العثمانية إلى أجزاء، وظهرت في عدة دول صغيرة مستقلة في الظاهر لم تنتج إلّا الفَشَلَ وتشكيل دول عميلة وبذر دولة الصهاينة اللقيطة في الأراضي الاسلامية.

٢ ـ تنمية روح التمرد: في (القومية) تنمو روح التمرد، وتسعىٰ الدولُ القوية إلى ضم المجموعات، التي تتحدث بلغتها وتعيش خارج حدودها، إليها حتى انها لا تكتفي بذلك، بل تسعىٰ إلى جعل الشعوب التابعة لها مستهلكة.

القومية في أوربا كانت سبباً لتوسعةِ النفوذ وغزو البلدانِ الأخرىٰ وعدم اغماض النظر عن الأقليات، وإحياء تقاليد العنصرية فلم تنتج إلّا الدمار، حتىٰ إنها انتهت إلى العدوان وايجاد الأنظمة الدكتاتورية والنازية والفاشستية.

والخلاصة ان (للقومية) جوانب ايجابية وجوانب سلبية، الإيجابية والانسانية يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار، ومكافحة الجوانب السلبية غير الإنسانية وفي الغالب تبدأ الدعوة (للقومية) بجوانبها الإيجابية ولكنها تنتهي إلى الجوانب السلبية والتطرف.

* * *

هل جمع القرآن الكريم في زمن الرسول (ص)؟

هل جُمع القرآنُ الكريم في زمن الرسول الأكرم (ص)، ام بعد رحيله؟ واذا كان قد جُمع في زمنه، إذن فما هو المقصود بأنه جُمع من قبل عثمان؟!

الجواب:

طبقاً لأقوال مجموعة من المحققين المسلمين فإن القرآن الكريم قد جُمع في زمن الرسول الأكرم (ص)، وقد رتبت السور والآيات بأمر منه (ص).

إن الدليل علىٰ جمع القرآن الكريم في زمن الرسول (ص)، اضافةً إلى شواهد تاريخية كثيرة سنعرضها علىٰ القرّاء الاعزاء، هو حديث الرسول (ص) نفسه حيث اسمىٰ سورة الحمد باسم (فاتحة الكتاب) وقال: **(لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب)**[1] ومن هنا يتضح أن القرآن جُمع في زمن الرسول (ص) وأن سورة الحمد كانت في المقدمة ولو كان القرآن مجموعة سور وآيات متفرقة، لما كان هناك من معنى لأسم (فاتحة الكتاب).

الشواهد التاريخية علىٰ جمع القرآن في زمن النبي (ص): اننا نعرضُ هنا شواهد علىٰ جمع القرآن في زمن النبي (ص)، ومن ثم نقارنها بالروايات التي تقول إن القرآن جمع بعد إرتحال النبي (ص) ونتعرف من خلال ذلك على الحقيقة:

١ ـ نقل الطبراني وابن عساكر عن الشعبي؛ ان ستة أشخاص جمعوا القرآن في زمن النبي (ص) هم: أبي بن كعب، زيد بن ثابت، معاذ بن جبل، ابو

---

(١) احمد بن حنبل المسند ج ٢٢ ص ٤٢٨.

الدرداء، سعد بن عبيد، وأبو زيد، وينقلون ايضاً أن (مجمع بن جارية) قد جمع القرآن إلّا من سورتين من سوره.

٢ ـ يقول قتادة: سألتُ أنس بن مالك؛ من جمع القـرآن الكريم في زمن النبي (ص)؟ فقال: اربعة وكلهم من الأنصار: أبي بن كعب، معاذ بن جبل، زيد بن ثابت، وأبو زيد.

٣ ـ نقل مسروق: قال عبد الله بن عمر: انني أحب عبد الله بن مسعود لأنني سمعت رسول الله (ص) يقول: تعلمـوا القرآن من أربعـة؛ عبد الله بن مسعـود، سالم، معاذ، وأبي بن كعب.

٤ ـ نقل النسائي عن عبد الله بن عمر أنه قال: جمعتُ القرآنَ وكنتُ اقرأه كل ليلة مرة، فوصل خبر ذلك إلى الرسول (ص) فقال: إقرأهُ في الشهر مرة..

٥ ـ نُقل عن عثمان أنه كلما كان الوحي ينزل يبعث رسول الله (ص) ويطلب كتّاب الوحي ويقول: ضعوا هذه الآية في سورة إلى جانب آياتٍ معينة[1]..

٦ ـ كتب ابو عبد الله الزنجاني مؤلفَ (تاريخ القرآن): قام بعضُ الصحابة في زمن الرسول (ص) بجمع القرآن او اجزاء منه، واما المجموعـة التي لم تجمع القرآن تماماً في زمن النبي (ص) فإنهم اكملوه بعد ذلك.

٧ ـ ويذكر محمد بن اسحق في (الفهرست) إن جامعي القرآن الكريم في زمن النبي هم؛ علي بن أبي طالب (ع)، سعد بن عبيد، ابو الدرداء، معاذ بن جبل، ابو زيد، ثابت بن زيد، أبي بن كعب، عبيد بن معاوية، وزيد بن ثابت.

٨ ـ وينقل السيوطي في كتـاب (الإتقان) عن محمـد بن كعب القُرظي أن خمسةً جمعوا القرآن هم: معاذ بن جبل، عبادة بن صامت، أبي بن كعب، ابو الدرداء، وابو أيوب الأنصاري.

---

(١) البيان ـ ص ٢٦ ـ ٢٧.

٩ ـ وينقل مؤلف (تاريخ القرآن) عن (ابن سيرين) ان اربعة جمعوا القرآن هم: معاذ، أُبي، أبو زيد، او ابو الدرداء، او عثمان، او هو وتميم الداري.

١٠ ـ وينقل الخوارزمي في كتاب (المناقب) عن علي بن رباح أن علي بن أبي طالب (ع) وابن كعب، جمعا القرآن الكريم في زمن رسول الله (ص).

١١ ـ وجاء في رواياتٍ لأبي بكر الحضرمي نقلاً عن الإمام الصادق (ع) ان النبي (ص) قال لعلي (ع): «**إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس، فخذوه ولا تضيعوه كما ضيّعت اليهود التوراة**»[1]. فذهب علي (ع) وجمعه في قماش أصفر وختم عليه.

١٢ ـ إن حديث الثقلين دليلٌ علىٰ جمع القرآن في زمن الرسول الأكرم (ص) وإذا أضفنا هذا الحديث إلى ما ذكرنا، فلن يبق هناك شكٌّ في أن القرآن جمع في عهد النبي (ص)، حيث قال (ص): «**إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا ابداً، وانهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض**»[2]. إن هذا الحديث يثبت بوضوح في أن القرآن كان قد جمع في عهد رسول الله (ص)، واما القول بأنه كان محفوظاً في الصدور فإنه حديث غير صحيح، وإذا لم يكن هذا الحديث دالاً علىٰ الكتابة المنظمة للقرآن في عهد النبي (ص)، فإنه علىٰ الأقل يدلُّ علىٰ أن سور القرآن ومكان الآيات كان منظّماً في زمن رسول الله (ص)، حتىٰ ولو كان غير مكتوبٍ علىٰ الورق.

الأحاديث حول جمع القرآن بعد رحيل النبي (ص) يُعارضُ نصَّ القرآن: هنا يبقىٰ سؤال وهو إذا كان حقاً أنّ القرآن جُمع في عهد الرسول الأكرم (ص)، إذن كيف تقول روايات إن القرآن جمع في عهد الخلفاء الراشدين؟

الجواب: إن الروايات التي تذكر أن القرآن جمع بعد ارتحال النبي (ص)

---

(١) تاريخ القرآن فصل ٧ و٨.

(٢) من الأحاديث المسندة واكثر من المتواتر.

تعارض القرآن نفسه، لأن الكثير من آيات القرآن تدل على أن السور كانت مشهورة ومعروفة حتىٰ بين المشركين.

اضافة إلى ذلك، فإنه أُطلق علىٰ القرآن الكريم أسم (كتاب) فإذا كانت اجزاؤه متفرقة لما أُطلق عليه اسم (كتاب)، ومجازاً وبدون قرنية سيكون بلا معنىٰ.

أحاديث جمع القرآن بعد ارتحال النبي (ص) لا تنسجم مع حكم العقل:

تدل عظمة القرآن الكريم والأهمية التي كان رسول الله (ص) يوليها له وكذلك المسلمون، من جهات مختلفة، تدل علىٰ أن الروايات التي تذكر انه جمع بعد إرتحال النبي (ص) غير صحيحة، بالإضافة إلى ذلك هناك جوانب اخرىٰ تضعف هذه الأحاديث، منها: إن اعظم واكبر ما للمسلمين هو القرآن، ويتلخص كيانهم وعظمتهم في صيانته وحفظه، وان اساسَ النبوة يشكله القرآنُ الكريم، فهل يُحتمل أن شخصيةً مثل النبي (ص) لا يولي أهمية لجمع وتسجيل القرآن الكريم؟ أو أن ينشغل بشيءٍ آخر عن توضيح كيفية وضع السور والآيات؟ إن المعجزة الخالدة للنبي (ص) هي القرآن وهو (ص) يتحدىٰ به الجميع علىٰ مرور الأعصار والقرون. وبملاحظة هذه النقطة كان لزاماً علىٰ رسول الله (ص) أن يسعىٰ لصيانة وحفظ القرآن، لأنه مهما كان ذهنُ الإنسان قوياً وحافظته قوية فإنه لا يمكن الاعتماد عليهما في خضم احداثِ الحياة، من جانب آخر إن القرآن كان أهم من أي شيء آخر في نظر المسلمين، حتىٰ أن النساء كنَّ بصددِ جمعِه، منهن السيدة المسماة (أم ورقة)، كما نعلم أن القرآن كان ينزل بالتدريج وأن رسول الله قد عين مجموعةً لكتابتِه يُسمّون (كتّاب الوحي).

يقول مؤلف كتاب (تاريخ القرآن) بهذا الصدد:

ـ «وكان للنبي من كتّاب يكتبون الوحي بالخط المقرر وهو النسخ وهم ثلاثة وأربعون. واكثرهم كتابة زيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب (ع)، ويظهر من الروايات انه كان يهتم بكتابة القرآن».

ثم يُوردُ قصة اسلام عمر بن الخطاب وكيف انه شاهد سورة (سبح لله..

ـ سورة الحديد) وقسماً من سورة (طه) في منزل أختِه، وفي الختام يُضيف: إن جميع هذه الأحاديث تدل علىٰ اهتمام المسلمين بكتابةِ القرآن وأن جميع القرآن قد جُمع في عهد رسول الله (ص)[1].

ينقلُ زيد بن ثابت قائلاً: (كنا نؤلف القرآن من الرقاع)، ويقول حاكم: إن هذا الحديث طبقاً لشروط البخاري في تقبل الأحاديث يعتبرُ حديثاً صحيحاً.

بغض النظر عن ذلك فإن بعض سور القرآن أو قسماً من سوره كان موجوداً لدىٰ جميع المسلمين، وقد جاء فيالروايات، من بينها نقرأ رواية عبادة بن الصامت أن كل مهاجرٍ كان يأتي يدفعُ به رسول الله (ص) إلىٰ احد المسلمين لتعليمه القرآن الكريم. وقد جاء في رواية (كليب) إنه قال: كنت مع علي (ع) عندما ارتفع صوت قراءة القرآن من المسجد فقال علي (ع): طوبىٰ لهم.

كانت مجموعة تقرأ القرآن بصوتٍ عال فصدر الأمرُ إليهم أن اقرؤا بصوت اكثر هدوءاً وانخفاضاً. تدل هاتان الحادثتان علىٰ اهتمام المسلمين بقراءة القرآن، ولذا كيف يمكن أن يتأخر جمعه إلىٰ زمن أبي بكر؟!

والنتيجة أن انتساب جمع القرآن الكريم إلى زمن الخلفاء الراشدين أمرٌ وهمي ومخالف للكتاب والسُّنة والعقل، ولا يمكن نسبُ جمع القرآن إلىٰ أبي بكر، طبعاً فإن عثمان قد جمع القرآن في زمنِه، وهذا لا يعني انه يمكن نسب جمعِه إليه في مصحف، وإنما بمعنىٰ انه جمع المسلمين علىٰ قراءة واحدة والكثير من العلماء الكبار لأهل السُّنة يُقرّون بهذه الحقيقة، منهم حارث المحاسبي إذ يقول: المشهور ان عثمان جمع القرآن، ولكن هذا ليس صحيحاً، وإنما جمع عثمانُ الناسَ علىٰ قراءةٍ واحدة، لأنه كانت هناك قراءات اخرىٰ شائعة.

اما أنه يُقال إن (علي) عليه السلام جمع القرآن بعد إرتحال النبي (ص) فهذا

---

(١) الزنجاني ـ تاريخ القرآن فصل ٦ ص ٤٣.

يعني انه كتب القرآن طبقاً لشأن النزول وقدم المنسوخ على الناسخ وهذا ما يقررُهُ المجلسي في (بحار الأنوار)، وصاحبُ كتاب (تاريخ القرآن).

وإذا كان الأمرُ غير ذلك في جمع القرآن فهل كان بإستطاعة الامام علي (ع) أن يجمع القرآن في عدة أيام؟ ولا يستبعد أن ترتيب القرآن لدىٰ الإمام عليه السلام كان طبقاً للقراءة الشائعة في ذلك الزمن. من المسلم به أن قرآن الامام عليه السلام كان مشتملاً علىٰ حواشي وتوضيحات عن كيفية النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه.

ما هو الهدف من الجزية؟

نقرأُ في كتب الفقه: إن اهل الكتاب هم كفّار ذمِّيون، ويجب عليهم طبقاً للحكم الاسلامي أن يدفعوا جزيةً، فما المقصود من ذلك؟

الجواب:

الجزية ضريبة تأخذها الحكومة الاسلامية من اهل الكتاب (اليهودي، المسيحي، والمجوسي) لقاء حمايتها لهم، وقد استغل بعض المستشرقين هذا الأمر استغلالاً سيئاً، واعتبروا الجزية نوعاً من الظلم والعدوان علىٰ مال وشخصية وكرامة من يدفعون الجزية. ونحن هنا سنرفعُ النقابَ عن واقع الجزية بصورةٍ محايدة.

نحن نعلم أن أية حكومة تحتاجُ إلى ميزانية لإدارة امور البلاد وتأمين وسائل العيش والرفاهية للشعب، وللدفاع عن حدود البلاد، وأن قسماً من هذه الميزانية او جميعها يدفعها ابناء البلاد عن طريق سلسلةٍ من الضرائب المباشرة وغير المباشرة، بالنسبة لمبدأ قانون الضرائب لا مجال للإعتراض، والاعتراض إنما يكون علىٰ كيفية الدفع او مقدار المبلغ إن كان (عادلاً) أو (ظالماً)، وأن يكون هناك انسجام بين ما يدفعُهُ الناس واحتياجات البلاد وبين ما يُطالبُ به الناس، او يكون الاعتراض على صَرف مبالغ الضرائب علىٰ المسائل الشخصية وليس علىٰ المصالح العامة.

تؤخذ الضرائب من المسلمين بأشكال مختلفة مثل (الخمس) و (الزكاة)، ومن غير المسلمين الذين يتبعون الحكومة الاسلامية بعنوان (جزية). واهم اختلاف بين هذين الاسلوبين في الضرائب، أن النوع الأول يكون تعيين مقدار المبلغ، الى حدٍ ما، بعهدة من يدفع الضريبة، يعني مثلاً أن مسلماً يجب أن يقول هو كم المقدار الذي إدّخره وما مقدار (الخمس) الذي يترتب عليه. عادة ان ما يُعلن عنه هذا

الشخص يُقبل منه، (وإن كان في بعض الأحيان في مثل الزكاة يقوم الحاكم او رجالُهُ الخاصّون بتعيين مقدار ديون الاشخاص من غلّات ومواشي . . . الخ).

واما في النوع الثاني فإن الضرائب تؤخذ علىٰ الأشخاص. واحياناً تحسب الأراضي التي تكون بحوزة بعض الافراد، موقعاً وقيمةً، فتؤخذ الضريبة طبقاً لذلك، وهذا النوع يُسمىٰ (مزاجاً) ويكون عادة من غير المسلمين التابعين للحكومة الاسلامية وبدلاً من (الجزية) ـ طبعاً إذا كانت اراضي الحكومة بيد المسلم فإنه يؤخذ منه الخراج ايضاً ـ، وعليه فإنه لا فرق يُعتد به بين المسلمِ والذِّمي في هذا المجال، ولكن طبقاً للروايات الشيعية وتعاليم الأئمة (ع) فإن علىٰ الذِّمي أن يدفع الجزية او الخراج.

إن هذا الاختلاف ناتج من أن المسلم عادةً يؤمن بالقراراتِ الاسلامية وايمانه هو ضمانة تنفيذ القانون، ولهذا فإن الاسلام يقبل باقوالِ المسلم في كثير من الحالات، ولكن غير المسلم ليس له هذا الايمان وقانون الضرائب المترتبة عليه ليست بالشكل الذي يمكن كتمانها لكي يتهرب من دفعها.

عندما تدخل منطقة ضمن البلاد الاسلامية يمكن أن يُتصوَّر انواع من المعاملات؛ قتل جماعي، النفي، السجن، الحصار السياسي والاقتصادي، ترك أديانهم، واطلاق الحرية لهم. . الخ. .

إن الاسلوب الذي انتخبه الاسلام في هذا المجال هو نوع من الحياة السلمية والصداقة بين الجانبين، بحيث يكون لهم الأمن وحرية العقيدة لكي يبقىٰ الاسلام محفوظاً ومحترماً. وهكذا فإن الاسلام يعرضُ عليهم الدين الاسلامي، فإن لم يقبلوا يعرضُ عليهم عقد اتحاد وأن يدفعوا ضرائب عادلة كجزيةٍ او خراج وإن لم يقبل بهذا ايضاً فلا مفر من استعمال القوة. ونبي الاسلام (ص) أمر جيش الاسلام عندما يواجه العدو بالتمسك بالتقوىٰ ويدعونهم للاسلام او عقد اتفاقية (الذّمة) وإن لم يقبلوا فحاربوهم.

وقد جاء في القرآن الكريم: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**

ولا يُحرِّمونَ ما حرَّمَ الله ورسولُهُ ولا يدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتىٰ يُعْطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[1]. ويستفاد من هذه الآية انه إذا قبل أهلُ الكتاب بدفع الجزية يجب ان لا يحاربوا بل على الحكومة الاسلامية أن تعقد معهم حلفاً وتأخذ منهم الجزية. وهناك نقطتان في هذه الآية، الأولىٰ ان مقدار الجزية يجب أن يتناسب مع القدرة المالية لدافعي الجزية، لأن كلمة (يد) في الآية تعني القدرة ومعنىٰ جملة (يعطوا الجزية عن يد) هو أن يدفعوا الجزية التي يقدرون عليها. والنقطة الثانية: بما أن دافعي الجزية يريدون العيش في البلاد الاسلامية فإن عليهم أن يخضعوا للقراراتِ الاسلامية، وهذا هو معنى (وهم صاغرون).

طبعاً أن الاسلام قد منح أهلَ الكتاب هذا الشيء، وإذا كان من المقرر أن يعقد المسلمون حلفاً او عقداً مع غير أهل الكتاب فإن الوضع يختلف.

عقد الذمة:

لعقد الذمة شروط وأحكام يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار وتتفق مع الزمان والمكان والموقع ورضىٰ الطرفين. واهم هذه الاحكام ما يلي:

١ ـ يجب حفظ حق حكم الاسلام وأن يخضع (الذمّيون) لقوانين الاسلام، وإذا اختلفوا مع المسلمين فيجب حل الخلاف امام المحاكم الاسلامية. والحكمةُ من هذا التشريع هي انه بما أن البلاد هي اسلامية فلذا يجب أن يخضع الجميعُ لقوانينها إن كانوا مسلمين او غير مسلمين، ولذا فإن هذا الحكم لا يعتبر إهانة (للذميين) لأن المسلمين وحتىٰ الحاكم الاسلامي يجب أن يخضع للقانون الاسلامي والمحاكم الاسلامية تستطيع محاكمة الحاكم، كما توجد نماذج على ذلك في التاريخ الاسلامي وخضع الحكام للقانون الاسلامي التي صدرت بحقهم. كما انه علىٰ المحاكم أن تكون عادلة وتراعي ذلك، وإليكم هذا النموذج:

في عهد خلافةِ أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، عندما كانت الكوفة

---

(١) سورة التوبة الآية (٢٩).

عاصمة للخلافة، رأىٰ المسلمون يوماً درع الامام (ع) بيد شخصٍ ذمي في السوق فطالبوه بردّه، فرفض الرجل الذمي، ووصلت القضية إلىٰ (شريح القاضي)، وحضر الامام بنفسِهِ إلى المحكمة وبدون تمايز وقف إلىٰ جانب خصمِه، واعتبر القاضي الإمامَ علياً (ع) مدّعياً وطلب منه شاهداً، وبما أن شاهديه كانا الإمام الحسن (ع) وخادمه قنبر فإن القاضي شريح لم يقبل شهادتهما، وبما أن الدرع كان بيد (الذمّي) فإنه اعتبره (ذا اليد) وحكم لصالحِه، فما كان من أميـر المؤمنين إلاّ أن يستسلم للحكم. وعندما شاهد (الذمي) هذه المساواة امام القانون وخضوع واستسلام خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وتواضعَهُ إعترف أن الدرع ليس له وانه وجده بعد أن سقط من جمل أمير المؤمنين (ع)، ثم اعلن اسلامَهُ.

* * *

ما الحكمة من عدم زواج أزواج النبي (ص) بعده؟

هل توجد آية في القرآن الكريم تمنع زوجات النبي (ص) من الزواج بأحد؟ وإذا كان ذلك موجوداً فما هو حكمته؟!

الجواب:

تصرح الآية ٥٣ من سورة الاحزاب بمنع زوجاتِ النبي (ص) بعد وفاته من الزواج: ﴿**وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ الله ولا أن تنكحوا ازواجه من بعده ابداً**﴾.

وفي هذه الحالة يتبادر هذا السؤال: ما سبب هذا التحريم؟ ولماذا حرّم الله سبحانه وتعالىٰ حق الزواج المشروع عليهن؟

الجواب علىٰ ذلك يتضح بملاحظة النقاط التالية:

اولاً ـ الامتناع من الزواج بأزواج رسول الله (ص) هو نوع من الاحترام لشخص النبي (ص) فكما كان المسلمون يحترمون النبي اثناء حياتِهِ الشريفة كذلك يجب أن يحترموه بعد وفاتِه والإمتناع عن الزواج بزوجة شخصية كبيرة هو احترام لشخصيته.

في بعض البلدان، ليس فقط لا يتزوجون بزوجة كبير العائلة بعد وفاتِه وانما يسعىٰ افراد عائلتِه أن لا يغيّروا شيئاً من بيتِهِ وغرفتِه لكي يُبينوا أن «كبيرَ عائلتنا حي وخالد ولم يغادرنا».

ثانياً: إن ازواج النبي (ص) نتيجة زواجهن برسول الله (ص) اكتسبن فضيلةً وفخراً خاصاً، ولو انه كان مشروعاً وقانونياً الزواج بهن بعد وفاةِ رسول الله (ص)، فإن الكثير من الشخصيات الكبيرة كانت تسعىٰ للزواج بهن، وربما لم ينتِه الأمر

بسهولة وربما أدىٰ إلى نزاع بين الرؤساء. والاسلام للحيلولة دون ذلك حرّم الزواج بأزواج النبي (ص) ففضىٰ علىٰ جذور الاختلاف، ليس في هذا الموضع وإنما في الكثير من المواقف، مثلاً في تقسيم الغنائم الحربية التي يحصل عليها جند الاسلام، حيث قرر الاسلام أن لا يُقسم كل ما يتعلق بالملوك والسلاطين بين المقاتلين المسلمين، وإنما يتعلق بزعيم المسلمين وبيت المال، لأن مثل هذه الغنائم الثمينة تُقسم بين الجند، لربما حدث اختلاف حين التقسيم.

ثالثاً: للإحترام الخاص الذي كان لزوجات النبي (ص) عند المسلمين فإذا تزوجن فإن أزواجهن سيجذبون قلوبَ الناس إليهم، واكبر حربة كانت بيد ناقضي العهد في معركة الجمل هي وجود إحدىٰ زوجات النبي (ص) معهم، وإذا كان الزواج بزوجات النبي (ص) مشروعاً كان من الممكن ان يتخذ الرجال السياسيون زواجَهم لجذب الناسِ نحوهم. ولهذا السبب فإن القرآن يأمر بعدم زواج زوجات النبي (ص) مع أي أحدِ او الانخراط في جناح، بعد وفاتِه (ص).

* * *

لماذا يجب وجود إمام معصوم في كل عصر وزمان بعد رحيل النبي (ص)؟

الجواب:

علماء الشيعة أثبتوا من طرق مختلفة لزوم وجود امام معصوم في الأمة، خاصة بعد عصر الرسالة الذي أخذ الإسلام بالتبلور في أذهان العالم. ونحن نذكّر فيما يلي بقسمٍ من هذه الطرق:

١ ـ الامام حافظ وحارسٌ للشريعة: الإمامُ في باطن الأمة من مظاهر الحق أمامَ النظرياتِ الخاطئة وميزانٌ للحقِ والباطل، وابناءُ الأمة بمراجعةِ مثل هذا الشخص المعصوم يتمكنون من حلٍّ اختلافاتِهم لكي لا يغطوا وجه الشريعة بأفكارِهم المتضادة. ولوجود الإمام المعصوم اثرٌ واضحٌ في حفظ الشريعة والحيلولة دون استغلال آيات القرآن الكريم بما له من نظرةٍ وحجةٍ قاطعة.

والقرآن الكريم بما له من وضوح، وقاطعية في طرح المواضيع، كان، بعد إرتحال النبي الأكرم (ص)، مستمسكاً لإثنتين وسبعين فرقة، وكل فرقة تستدل من ظواهر القرآن على معتقداتها. فالمعتزلة يستدلون بالقرآن على آرائِهم، والأشاعرة الذين هم علىٰ نقيض من المعتزلة يفسرون آراءهم ومعتقداتهم على ظواهر القرآن الكريم، والخوارجُ ينكرون اكثر المسائل بديهيةً وفطرةً، يعني الحاجة إلى حكومة، ويستدلون على عقيدتِهم بالآية (إن الحكمُ إلاّ لله). كذلك جميع الفرق الاسلامية من الحرورية، والمرجئة، والكرامية.. الخ.. التي تحدث عنها كتاب (الملل والنحل) وكتبُ الكلامية، يستندون إلى القرآن الكريم ويعلنون عن مطابقةِ عقائدهم للقرآن، وحتىٰ الحنابلَ والاشاعرة يدّعون أن موضوع رؤية الله يوم القيامة استمدوه من القرآن الكريم.

وزعماء المذاهب الأربعة من أهل السُّنة تتفق آراؤهم في أقل المسائل، وقسم من اختلافاتهم يتعلق باختلاف آرائِهم في القرآن.

والمسلمون في مسألة (الوضوء)، التي هي مسألة يومية، لديهم آراء مختلفة وعميقة، وكل فرقة تستدل لرأيها بظاهر القرآن، وإذا كان لشخص اطلاع باختلافات المسلمين في الأصول والفروع وبأساليب الاستدلال للطوائف المختلفة مع ظاهر القرآن ـ وبالتأكيد أحدىٰ الفرق على حق والفرق الأخرىٰ على باطل ـ لَعَلِمَ، مع عظمةِ ووضوح القرآن الكريم في طرح المواضيع، انه مع عدم فهم وعدم نضوج الأفكار لدىٰ مجموعة، ولأغراضٍ لدىٰ مجموعة أخرىٰ، فإن المسلمين لم يستطيعوا أن يجتمعوا علىٰ نظرةٍ او رأي واحد ويقضوا على اختلافاتِهم ويجتمعوا على محور الحق.

احدىٰ المصائب التي ابتلي بها المجتمع الاسلامي بعد رحيل النبي الأكرم (ص)، هي رواجُ سوق وضع الأحاديث الكاذبة والمزورة، ومزورو الحديث والتاريخ دخلوا هذا الميدان بدوافع شتىٰ. بعض اليهود والنصارىٰ الذين استسلموا في الظاهر، مثل (كعب الأحبار) و(وهب بن منبه) ادخلوا سلسلةً من الاسرائيليات والمسيحيات في تاريخ الاسلام لعدائِهم للاسلام. كما قام بعضُ المسلمين الضعافِ الإيمان، وبتحريك وتحريض بعض الخلفاء والأمراء في ذلك الزمن وبدافع الطمع في السلطة والمقام، بوضع الاحاديث المزورة والكاذبة، وقد سُجِّلَ في كتب الرجالِ والحديث اسماء وعدد الأحاديث لبعضِ واضعي الحديث الكاذبين[1].

ألا يحول وجود الإمام المعصوم بين الأمة، دون عدوان وكذب المغرضين المزورين؟ ألا يجب وجود حرّاس يقومون بمهمة الحفاظ علىٰ ناموس الاسلام والوقوف بوجهِ من يريدون سوءاً بالوجهِ النوراني الجميل للاسلام؟ أليس ضرورياً

(١) كتاب اضواء على السنة المحمدية ـ تأليف محمود ابو رية.

وجود إمامٍ ناطق بين الأمة للحفاظ علىٰ اصولِ الشريعة ومنع أي تأويل خاطىء لآيات القرآن الكريم والوقوف بوجه المغرضين ومحرفي معاني واهداف القرآن ويكون رأيُ هذا الإمام قاطعاً وحازماً ومن جانبِ الله تبارك وتعالىٰ؟ كما يكون هذا الرأي ميزاناً لمعرفةِ الحق والباطل لكي لا يصل - في ظل النظر الصائب والواقعي للإمام - المغرضون اصحابُ الفتن إلى اغراضِهم الفاسدة؟ ويُشير الرسول الأكرم (ص) في احاديثه إلى هذه الحقيقة ويقول:

- **«يحملُ هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين ينفي الكير خبث الحديد»** (1).

٢ - ضرورة وجود الإمام المعصوم لتأسيس حكومة إلهية:

الإمام إلى جانب هذا الواجب له واجب خطير ومهم آخر وهو حفظُ حقوق وتنفيذ حدود الله، وتجسيم واقع الاسلام - قدر الامكان - بتشكيل حكومةٍ إلهية، حكومة يكون اساسها العدل والحق، وتُنفذ فيها الأحكام والقوانين الإلهية والقرارات المذهبية بشكلٍ دقيق. ومثل هذا البرنامج السماوي الطاهر لا يمكن أن يتم بدون وجود امام معصوم علىٰ رأسِ هذه الحكومة. إن الأمة التي تعجز لأسباب عن فهم الشريعة وإدراك مفاهيم الاسلام السامية، وحقائق القرآن المضيئة، هي أمةٌ يفهم كل فرد من افرادها حدودَ وأحكام الله بشكلٍ من الأشكال. والأمة التي تكون مركزاً للإختلاف وتخرج بأثنتين وسبعين فرقة، لا يمكنها ابداً أن تشكل الحكومة المطلوبة وتُجسِّم واقع الاسلام.

٣ - رسالةُ الإمام المعصوم في إكمال وشرح الاحكام الاسلامية:

هل قام نبي الاسلام (ص) ببيان جميع الأحكام والفروع؟

قبل كل شيء، مع الأسف، إن الأمة لم توفق في حفظ وصيانة السُّنة، لأن الأحاديث التي أوردها أهل السُّنة في الصحاح والمسانيد عن النبي الأكرم (ص) في

---

(1) رجال الكشي ص ٥.

الأحكام والتشريع لا تزيد عن خمسمائة حديث. إن هذا المقدار من المسائل ما كانت لتكفي في زمن النبي (ص)، فكيف بالمسائل التي إستجدّت للمسلمين فيما بعد[1].

ولهذا السبب لا بد من وجود امام معصوم في الأمة لحفظ السنن والأحكام، وإذا لم يكن النبي الأكرم قد قام ببيان بعض الأحكام فلا بد من وجود امام معصوم لبيان هذه الأحكام ويكون علمُـهُ وعصمتهُ من علمِ وعصمـةِ النبي (ص) ويصدر الأحكام من مصادرِهـا الصحيحة ويضعهـا في متناول الأمـة، وعن هذا الـطريق يُستكملِ بيان الأحكام وابلاغُ الشريعة.

٤ ـ لزوم المرجع المعصوم في المسائل المستحدثة:

واجه المسلمون بعد إرتحال النبي (ص) مسائل جديدة لم يجدوا لها أحكاماً في الكتاب السماوي والسُّنَّةِ النبوية، ولإقناع انفسِهم اضـطروا للعمل بـأدلة غيـر صحيحة كالقياس والاستحسان، وقاعدة سد الذرائع وعشرات القواعد النابعة من الظّن ليس لأي واحدة منها دليل واساس صحيح. أليس بنفع الأمة أن يكون معصوم بين الأمة لترميم مثل هذه النواقص؟

والنتيجة أن الاختلاف الشديد بين المسلمين في الأصول والفروع، والمعارف والعقائد، في الآداب والاخلاق، في الحكومة والسياسة... الخ.. عِلَّةُ جميـع ذلك تكمن في سببين، إما عدم وجود معصوم بينهم لحفظ وصيانة الشريعة، وإما أن الأمة تجاهلت المعصوم، وسعىٰ كل واحد للحصول على مقام ومنصب له وأَسَّس فرقة..

إن الفكر الحر البعيد عن التعصب، يدرك انـه إذا وُجِدَ إمـامُ معصوم بين المسلمين، وإذا اتُّبعَ هذا الإمام. لكان وضعُ المسلمين في العقائد والمعارف، في الآداب والأحكام، في المسائل الاجتماعية والسياسية.. وغيرها.. غير ما هي عليه الآن.

---

(١) الوحي المحمدي ـ تأليف فريد وجدي.

ما المقصود من حديث (لولا الحجة..)؟

ما المقصود من حديث **(لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها)**؟ وكيف يكون وجوده سبباً للهدوء، وعدم وجودِه سبباً لهلاك ساكني الأرض؟.

الجواب:

اولاً ـ مضمون الحديث هو بالشكل الذي وردَ في القرآن الكريم حيث يعتبر الله سبحانه وتعالى وجود الرسول الأكرم سبباً لعدم نزول العذاب:

ـ **﴿وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم﴾**[1].

في هذه الآية وجودُ النبي (ص) يعتبر أماناً للناس. ووجود حجة الله مانعٌ لنزول العذاب، مضمون هذه الآية مطابقاً للحديث السابق. ويستفيد أميرُ المؤمنين الإمام علي (ع) في نهج البلاغة من الآية المذكورة فيقول:

ـ «**كان في الأرضِ أمانان من عذاب الله، وقد رفع احداهما، فدونكم الآخر فتمسكوا به، اما الأمان الذي رفع فهو رسول الله، واما الأمان الباقي فالاستغفار قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾**»[2].

ثانياً: إذا علمنا أن المقصود بـ(الحجة) ـ بتعبير بعض الأشخاص ـ هو الإنسان الكامل، لَوَضح معنىٰ الحديث.

---

(١) سورة الأنفال الآية(٣٣).

(٢) نهج البلاغة ـ الكلمات القصار (٨٨).

توضيح ـ إن خلق العالم لم يكن بلا هدف، وهدف الخلق هو تربية الإنسان على سير التكامل ليصل عن طريق المعرفة وإكتساب الفضائل الأخلاقية إلى المقام الرفيع للإنسانية، واذا كان الأشخاص يحصلون علىٰ فيض الحياة فإنما من اجل هذا الإنسان الكامل الذي يدور العالم ويتحرك من أجلِه. وإذا حدثَ يوماً ـ وهو من المُحال ـ عدم وجود إنسان كامل في المجتمع البشري من المؤكد يكون بقاء الإنسان على الأرض بلا هدف وتفقد الساحةُ القدسية لله عز وجل الأعمال الحكيمة.

إن البستاني يسقي البستان من أجل شجرة عظيمة، ولكن في نفس الوقت تشربُ الأعشاب الطفيلية الماء ايضاً، ولكن إذا يُبُسَتْ هذه الشجرة فإن البستاني يقطع السقي. وحجة الله علىٰ الارض مثل هذه الشجرة العظيمة، وبقية الناس يعتاش بوجودِه.

في المناظرة بين هشام بن الحكم وعمرو بن عبيد، من كبار رجالِ المعتزلة في زمنه، شُبِّه الإمامُ بقلبِ عالم الخليقة، ومن البديهي انه اذا توقف قلب إنسانٍ عن العمل فلا تستطيع بقية اعضاء الجسم شيئاً.

وبهذا التشبيه ـ طبقاً لقول الإمام الصادق عليه السلام وهي كلماتٌ من صحفِ ابراهيم وموسىٰ عليهما السلام ـ يمكن معرفة مكانةِ الإمام عليه السلام بين المخلوقات.

نقل العلامة المجلسي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ تفاصيل هذه المناظرة في الجزء ٣٣ ص ٦ ـ ٩ من بحار الأنوار.

* * *

هل الإجماع في أصول الدين حجّة؟

يستدل أهل السُّنّة عن طريق سلسلة من الأحـاديث والروايـات علىٰ صحة اعمال المهاجرين والأنصار وحجّـة الإجماع واتفـاق الأمة، فكم هي صحيحة هذه الاستدلالات؟

الجواب:

١ ـ «لا تجتمعُ أُمتي علىٰ خطأ»[١].

الاستدلال علىٰ هذا الحديث له اشكالات نذكِّر بها:

١ ـ إنْ هذا الحديث بالرغم من انه يُستند عليه في كتاب علمـاء الكلام، ولكن مع الأسف ليس له أي سند ولم يُنقل في كتب الحديث والصحاح، ولهذا فإنه يعتبر حديثاً واحداً ليس له سندٌ واضح.

٢ ـ مع فرض صحة السند ونقله في الكتب الأصلية فإن هذا الحديث لن تكون له حجية الإجماع والاتفاق، لأن مثل هذه المسائل ذات الخبر الواحد، مهما كان السند صحيحاً، ليست ذات حجة، ولا يمكن اثبات خبر واحـد في مسألـة عقائدية اساسية، ولكن يجب أن تكون مثل هذه المسائل بخبر متواتـر، او خبراً واحداً بقرائن كافية، وقاطعة، حتى يمكن اثبات مسألة عقائدية في خبر واحد، وإلاّ فإنها لا تجلب غير الظّن.

٢ ـ «لم يكن الله ليجمعَ أمتي علىٰ خطأ»[٢].

---

(١) ورد هذا الحديث في (سنن ابن ماجة) و«الفتن» بهـذا الشكل (إن أمتي لا تجمـع على ضلالة).

(٢) إن هذا الحديث جاء في مسند احمد ج ٥ ص ١٤٥ بهذا الشكل: (فإن الله... لم يجمع أمتي إلاّ على هدى).

إن الاشكالات الواردة علىٰ الحديث السابق تنطبق على هذا الحديث ايضاً.

اولاً - إن هذا الحديث لم يُنقل في كتب الحديث والوثائق الاسلامية الأصلية بهذا الشكل، ومن حيث القيمة فإنه لن يصل الى درجة الحديث الواحد ذي السند الصحيح.

ثانياً - مع فرض صحة السند، في المسائل العقائدية والأصولية يجب أن يكون الخبر متواتراً، او يكون مثله مستدلاً وليس خبراً واحداً، ثم أن استاذ نقد الحديث (النووي) يقول، في المجلد الأول باب (لا تزال طائفة من أمتي بأمر الله لا يضرهم من خذلهم او خالفهم):

- حديث (**لا تُجمع أمتي علىٰ خطأ**) ضعيف والصحيح هو حديث (**لا تزال طائفة من أُمتي قائمة علىٰ حق**).

٣ - إن الله لا يَجمعُ أُمتي علىٰ ضلالة.

وردَ هذا الحديث في مسند احمد المجلد ٥ ص ١٤٥، ونقل مؤلفُ (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) هذا الحديث عن (سنن الترمذي) - (كتاب الفتن) - ومقدمة (سنن الدارمي). وهذا الحديث رغم انه وردَ في هذه الجوامع، فهو خبرٌ ذو وجه واحد، ولا يدل نقله عن ثلاثةِ محدثين على تواترِهِ، لأن شرط التواتر هو أن يكون الحديث متواتراً من زمن كاتبِهِ وحتىٰ عصر النبي (ص) مع صحةِ وتأييد ناقلي الحديث في كل عصر، وهذا الشرط مفقود في هذا الحديث المنقول عن ثلاثة محدّثين بالسندِ الذي نقلوه به.

واذا تركنا النقاش حول السند فإن هذا الحديث وما يشابهه دليل علىٰ صيانة إجماع افراد الأمة من الخطأ والضياع، وهذه الحقيقة يقبلها جميع أفراد المجتمع الاسلامي، شيعةً وسُنّة.

والشيعة يقبلون مضمون الحديث لوجود فرد معصوم باسم (امام) بين الأمة واتفاق جميع الأمة على موضوع واحد، هو الإمام المعصوم الذي يدل علىٰ صحة الاتفاق.

علماء أهل السُّنة بالإعتماد علىٰ هذه الروايات يعتبرونه دليلاً وحجةً على اجماع واتفاق الأمة. وليس انه يكشف عن نظر ورأي المعصوم، والجدير بالذكر أن المقصود بكلمة (أُمة) هو جميع افراد الأُمة، وليس قسماً او اغلبية منهم، ومثلُ هذا الاتفاق في مسألة (الإمامة) لم يحصل.

آل بني هاشم لم يقبلوا بزعامة أبي بكر وخالفوه، وقبيلة الخزرج وعلىٰ رأسهم (سعد بن عبادة) لم يبايعوا الخليفة الأول وقد توترت العلاقات بين الخزرج وجهاز الخلافة حينذاك لدرجة أن رئيس الخزرج، في خلافة عمر، أجبر علىٰ ترك المدينة، حتىٰ قتل بشكل غامض في الشام ولم يعرف من الذي قتله، ونسبوا قتله إلىٰ الأجنّة.

منذ بداية (السقيفة) ظهرت فئتان علىٰ شكل أقلية واكثرية. المجتمع الشيعي لم يعترف رسمياً بالخلافة ومقام الخلفاء، وكانوا يعتقدون انهم خالفوا نصوص الولاية ونسوها، ولهذا لم تتفق الأمةُ الاسلامية علىٰ إمامةِ وقيادةِ شخص. ويكفي في هذا الباب مراجعة مسألة السقيفة في كتاب (الامامة والسياسة)[1].

بالإضافة إلى كل ذلك فإن الإتفاق والإجتماع يكون دليلاً وحجةً عندما لا يكون قد بيّن حكمٌ بخصوص ذلك من قبل رسول الله (ص). وإلاّ فإن الإجماع لا يعتبر إلاّ اجتهاداً لا قيمة له مقابل (النص). وواضحٌ في الكتب الخاصة بالإمامة أن النبي الأكرم (ص) قد عين الوصي والخليفة من بعدِه ولم يترك موضوعَ الزعامة والقيادة للأمة.

٤ ـ «كونوا مع الجماعة، يد الله مع الجماعة».

يعتبر المرحوم (الشيخ الطوسي) هذا الحديث من دلائل اهل السنة وذلك في كتابِه (تلخيص الشافي) ج ١ ص ١٨٢.

---

(١) ج ١ ص ٥ ـ ٢٠ تأليف ابو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، المتوفى عام ٢٧٦ الهجري.

وهذا الحديث بالإضافة إلى انه خبر واحد، وحتىٰ لو فُرض التواتر، فإنه لن يقوم علىٰ مُدّعاه، لأن (الجماعة) التي تدعونا إليه ليست (أُمّةً)، و(الأُمّـة) تعني جميع مسلمي العالم، بينما (الجماعة) تعني مجموعة معدودة من ثلاثة اشخاص واكثر، إن إدعاء اولئك هو أن اتفاق الأمة حجة قاطعة بينما هذا (الحديث) اتفقت عليه (جماعة) فيعتبرون ذلك حجّةً. وإذا لم يعتبر أحدٌ من ابناء الأُمة اتفاقَ ثلاثة اشخاص حجّةً فإن مضمون الحديث يكون موضع اعتراض الجميع، ولن يعمـل أحدٌ بمضمون الحديث، بالإضافة إلىٰ ذلك لو فرضت صحةُ الحديث فإنه يدعو إلىٰ الإتحادِ والتوافق، ولذا جاءَ في ذيل الحديث: «**فإن الشيطان مع الواحد وهو عن الإثنين أبعد**».

ولا شك انه وضعت الأمور، عقلاً وشرعاً، بيد الأُمة، فإن على الأقلية أن تتبع الأكثرية في الجهة التي تنحازُ إليها لتجتمع القوة في مركزٍ واحد ويمتنعوا عن الإختلافاتِ والتحزّب. وضرورة إتّباع الجماعة تتجلىٰ عندما تكون الجماعة تمتلك الصلاحية في التدخل بالأمر او الموضوع أمامها، في هذه الحالة يجب الإلتحاق بالأكثرية. ولكن عندما تكون (الأمـةُ) او (الجماعـة) لا تمتلك حق إبداء وجهـة نظرها، كالقضايا العبادية، الصوم والصلاة، او قضايا لا نعرف إن كانت تملك فيها صلاحية البتّ في الأمر ام لا، كمسألة (الحكم)، ففي مثل هذا الحديث لا يفيد ابداء وجهة النظر، وشرُح هذا القسم أوضحناه في تفسير الآية (وأمرُهم شورىٰ بينهم) في كتاب (القيادة من وجهةِ نظر الاسلام).

٥ ـ «مَثَلُ أصحابي كالنجوم بأيِّهِم إقتديتم إهتديتم».

لم يرد هذا الحديث لا في الصحاح الستة، ولا في كتب الحديث الأساسية التي كتبت بيد المحدثين الماهرين في القرون الاسلامية الأولىٰ. ونحن بالتحقيق الدقيق الذي قمنـا به لم نجـد هذا الحـديث في الصحاح الستـة، وهي صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وصحيح النسائي، وصحيح الترمذي وصحيح ابي داود، وصحيح ابن ماجة. وللتأكد من ذلك راجعنا (سنن الدارمي)، (موطأ مالك)، (مسند احمد بن حنبل) و(مستدرك الحاكم) فلم نجد اثراً لهذا الحديث، ليس هذا فقط

بل إن المؤلفين والكتّاب المحققين لـ (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) الذين يُشكّلون لجنة للإشراف على تأليف هذا المعجم لم ينقلوا هذا الحديث، ولهذا السبب فإن هذا الحديث لا يمكنه أن يكون سنداً موثّقاً في مسألةٍ عقائديةٍ وحياتية. وبالاضافة إلى ذلك فإن الحديث من حيث الإسناد ضعيف جداً، ويقول (الذهبي) - المتوفى عام ٧٤٨ هـ - في كتابه النفيس (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) الجزء ١ طبعة دار المعرفة ببيروت: نقل (حمزة بن ابي حمزة الجزري النصيبي) حديث: «**حديث اصحابي كالنجوم أيّهم اخذتم بقولِهِ اهتديتم**»، واحاديث هذا الشخص لا يساوي شيئاً، فالبخاري ينكر أحاديثَهُ، ويعتبر (الدارقطني) احاديث هذا الشخص من المتروكات، ويقول (ابن عدي): كل احاديثِهِ موضوعة وكاذبة.

بعد هذا هل يمكن الاستدلال في مسألةٍ حياتية علىٰ مثلِ هذا الحديث؟

ينقل (محمد ناصر الدين) مؤلف كتاب (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة) في الصفحة ٧٨ وحتى صفحة ٨٣ وفي الصفحة ٤٣٦، ينقلُ هذا الحديث بأشكال مختلفة واعتبره بجميع اشكالِهِ كاذباً وانه موضوع. ولتوضيح الأمر اكثر ننقل الحديث باشكالِهِ المختلفة والأحكام عليها:

١ - حديث: «**اصحابي كالنجوم بأيّهِم اقتديتُمُ إهتديتُم**» نقله ابن عبد البر في كتاب (جامع العلم) ج ٢ ص ٤٩١، وابن حزم في كتاب (الاحكام) ج ٢ ص ٨٢ وبالسند التالي: سلام بن سليم عن حارث بن غصين، عن الأعمش، عن ابي سفيان، عن جابر. وحول (سلام بن سليم) فالآراء تتفق على ضعفه، يقول ابن فراش (انه كذاب)، ويقول ابن حبّان: (إنه يروي الاحاديث الكاذبة).

وحارث بن غصين مجهول وعمله نقل الأكاذيب في الحديث.

٢ - حديث: «**إن اصحابي بمنزلة النجوم في السماء فأيّهما اخذتم به إهتديتم**»، نقله الخطيب في كتاب (الكفاية في علم الرواية) ص ٤٨، ونقله آخرون، وسنده سليمان بن ابي كريمة عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. سليمان ضعيف الحديث، وجويبر متروك الحديث، والضحاك لم يلتق بابن عباس ابداً.

٣ ـ حديث: «**يا محمد إن اصحابي بمنزلة النجوم في السماء بعضُها أضوء من بعض**» نقلَهُ البعض، وفي سنده نعيم بن حمال وعبد الرحيم بن ريه، وهما كذّابان.

٤ ـ حديث: «**إنما اصحابي مثلُ النجوم، فأيّهُم اخذتُم بقولِهِ إهتديتم**» نقله البعض وفي سندِهِ حمزة الجزري (متروك الحديث) الذي يقول عنه ابن عدي (عامّةُ رواياتِهِ موضوعة).

٥ ـ حديث: «**مَثَلُ اصحابي مَثَلُ النجوم فمن اقتدىٰ بشيءٍ منها اهتدىٰ**» يوجد في سنده جعفر بن عبد الواحد، وعملُهُ وَضْعُ الأحاديث الكاذبة[1].

بالإضافة إلى ذلك، فإن مضمون هذه الأحاديث دليل علىٰ كذبها، لأن رسول الله (ص) يحدّث فيها بكلمة (اهتديتم) او (اخذتم) فلنرَ إلى من يوجه الرسول (ص) الخطاب فهل يوجّه رسول الله خطابَهُ إلى اصحابِهِ بعبارة: (بايّهم اقتديتم إهتديتم)؟ في هذه الحالة يكون الخطاب غير صحيح، لأن الصحابة بحكم مضمون الحديث هم هداة وقدوة ويجب أن يقتدي بهم الآخرون وليس هم بالآخرين، وفي هذه الحالة سوف لن يكون هناك شخص يقتدي بهم.

وهل يوجّه (ص) هذه العبارة إلى غير صحابتِهِ؟! وهذا الغرض ايضاً غير صحيح، لأن مثل هؤلاء الأشخاص لم يكونوا موجودين في زمن رسول الله (ص) لكي يوجّه إليهم الخطاب.

---

(١) للاطلاع على هذه الأحاديث الكاذبة يرجى لمن يطلب المزيد أن يراجع الكتب التالية:

١ ـ **الموضوعات**: تأليف عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥١٠ ـ ٥٩٧ هـ) ثلاثة مجلدات، طبعة مطبعة المجد.

٢ ـ (**اللئالي المصنوعة في الاحاديث الموضوعة**): تأليف عبد الرحمن السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ.

٣ ـ (**سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة**): تأليف محمد ناصر الدين، طبعة المكتب الاسلامي ـ دمشق.

إليكم هذا التوضيح؛ أحياناً يكون الهدف من الحديث تزوير قانون كلي مثل: «لا رهبانية في الاسلام» او «لا ضَرَرَ ولا ضِرار». ومما لا شك فيه في مثل هذه القوانين التي لها صبغة واحدة علىٰ صورةِ تزوير القانون يكون المخاطب والغائب، والموجود والمعدوم واحداً.

يكون احياناً علىٰ شكل خطابٍ بمجموعة، ومثل هذا الحديث يحتاجُ إلىٰ مخاطب لكي يوجَّه إليه الخطاب. والآن يأتي هذا السؤال: من يخاطب النبي (ص) في حديثه هذا؟ هل هم الصحابة؟ من المسلم به أن توجيه الخطاب إليهم ليس صحيحاً، لأنه من المفروض أنهم من المتقدمين وليس التابعين، من الهداة وليس من الضّالين، وهذا الخطاب يجب أن يكون موجَّهاً إلىٰ الهداة. واذا كان الخطاب موجهاً إلى غير الصحابة، فإنه لن يكون صحيحاً ايضاً لأن مثل هذه المجموعة لم تكن موجودة امام الرسول الأكرم (ص) لكي يوجِّه إليهم الخطاب.

اننا نعرضُ عن كل ذلك ونلفت انتباه القرّاء إلى النقاط التالية:

اولاً: انقسم الصحابة بعد إرتحال رسول الله (ص) إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، وظهرت بينهم اختلافات عميقة،مثلاً: إن مجموعة عزمت علىٰ قتلِ الخليفة الثالث، وقامت مجموعةٌ أخرىٰ بالدفاع عنه، إذن فأي فريق نتبع؟! وإذا تبعَ فريق الفريقَ الأول، وفريقٌ الفريقَ الثاني، فالحقَّ سيكون مع أيٍ من الفريقين؟ إذا كان علينا أن نعمل وفق مضمون الحديث لا بدَّ ان نعتبر الفريقين علىٰ حقّ، فهل من الممكن أن يكونَ الفريقان علىٰ حق؟! إن الحق لا بدّ أن يكون مع فريقٍ ويكون الآخر علىٰ ضلالةٍ وضياع، كما يقول الله تعالى:

- **﴿فماذا بعد الحقّ إلاّ الضّلال فأنّا تُصرفون﴾**[1].

ثانياً: إن مضمون هذا الحديث مخالفٌ مع آيات القرآن الكريم، لأن القرآن يقسّم الصحابة إلى مجموعات مختلفة، قسمٌ منهم لا يستحقون الإتّباع ولا

(١) سورة يونس الآية (٣٢).

يصلحون لذلك، وفي هذه الحالة كيف يأمر الرسول (ص) باتباعهم جميعهم وفيهم المنافقون والسَّماعون ومرضىٰ القلوب وغيرهم؟!

ثالثاً: إن هذه الأحاديث تناقض الأحاديث الواردة في صحاح أهل السُّنة ينقل البخاري حول مجموعة من صحابة الرسول (ص) ما يلي:

الحديث الأول: «**يُجاء برجال يوم القيامة فيؤخذُ بهم ذات الشمال فأقول يا ربّ أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنَّ هؤلاء لم يزالوا مرتدين علىٰ أعقابهم منذ فارقتهم**»[1].

فعندما يقول النبي (ص): (يا رب أصحابي) من المؤكد انه يعني اصحابه غير المنافقين وإلّا فإنه ليس صحيحاً أن يقول عن مجموعة المنافقين (يا رب أصحابي).

الحديث الثاني: «**بينا أنا قائم، فاذا زمرة حتى اذا عرفتهم، خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلمَّ. قلت: اين؟ فقال الى النّار والله، قلت ما شأنهم؟ قال ارتدُّوا بعدك علىٰ أدبارهم القهقرى. . .**»[2].

الحديث الثالث: «**ليرونَّ على اقوام أعرفهم ويعرفونني، ثمَّ يحال بيني وبينهم، فأقول أنَّهم منّي فيقال أنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي**»[3].

الحديث الرابع: «**يرد على الحوض رجال من أصحابي، فيجلون عنه، فاقول يا ربِّ أصحابي، فيقال أنَّك لا علم لك بما احدثوا بعدك، أنَّهم ارتدُّوا علىٰ ادْبارهمُ القهقرى**»[4].

اوضح من كل ذلك (حديث البطانة) حيث يقسّم النبي (ص) صحابته الى مجموعتين، كما نقله البخاري في ج ٤ باب (بطانة الامام) ص ١٥٠:

---

(١) صحيح بخاري ج ٣ ص ٨٥، باب كنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم.
(٢) صحيح بخاري ج ٤ ص ٩٤.
(٣) صحيح بخاري ج ٤ ص ٩٤ باب الصراط.
(٤) صحيح بخاري ج ٣ ص ٣٠.

«ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان، بطانة تأمُره بالمعروف وتحضُـه عليه وبطانة تأمره بالشَّر وتحضُـه عليه، فالمعصوم من عصمه الله».

فهل بعد كل هذه الأحاديث الموجودة في صحيح البخاري، اهم كتب أهل السُّنة بعد القرآن الكريم، يمكن القول: «مَثَلُ أصحابي كالنجوم...»؟!

نحن نختصر الحديثَ هنا ونترك الحكم الصحيح للقراء الكـرام علىٰ هذه الأحاديث، وهي من الأحاديث الموضوعة في العصرين الأموي والعباسي.

* * *

هل يمكن الإكتفاء بالقرآن الكريم وحده؟!

هل يكفي القرآن الكريم وحده في هداية البشر؟ ألسنا بحاجةٍ لفهم مواضيع القرآن الكريم إلى السُّنةِ النبوية الشريفة؟!

الجواب:

يجب أن نذكِّر بأن الله سبحانه وتعالىٰ ارسل للبشر إلىٰ جانب (الكتاب) و (العقل) أرسل حُججاً. والحجة الإلهية لا تنحصر بـ (الكتاب)، لأنه بعد القرآن الكريم الذي يتفق عليه جميع المسلمين، وبعد (العقل) الذي هو الحجةُ الباطنية، هناك حجتان؛ وهما:

١ ـ اقوال وافعال الرسول الأكرم (ص).

٢ ـ اقوال وأفعال خلفاء النبي (ص)، من وجهة نظر القرآن الكريم، هي حجةٌ لكافةِ المسلمين، ولا يمكن لأي مسلمٍ أن يتجاهل سنّةَ النبي (ص) واحاديثه الشريفة، ويقول القرآن عنه (ص): ﴿. . ماآتاكُمُ الرسول فخذوهُ وما نَهاكُمْ عنهُ فانتهوا﴾[1].

ويقول عن النبي (ص) ايضاً: ﴿وما ينطقُ عن الهوىٰ إنْ هو إلاّ وحيٌ يُوحىٰ﴾[2].

وعترةُ النبي (ص) ايضاً وبتصريحٍ منه (ص) حجةٌ اخرىٰ ودليل ثاني، ولا

(١) سورة الحشر الآية (٧)، ولكلمة (آتاكم) معاني كثيرة غير الغنائم والفيء وبيت المال، مجمع البيان ج ٥ ص ٣١١.
(٢) النجم ٣ و ٤.

انفصال بين العترة والقرآن الكريم حتى يوم القيامة، والمسلمون رغم وجود اختلافات بينهم حول الخلافة والحكومة بعد النبي (ص)، إلَّا انه لا يوجد بينهم اي اختلاف حول عترة النبي (ص) وانهم الملجأ الفكري للأمة. وبتصريح حديث الثقلين، فإن الملجأ الفكري والعلمي للأمة بعد النبي (ص) هو (عترة النبي (ص)) أي الأئمة المعصومون. وبما أن (العترة) في مستوىٰ القرآن الكريم في هذا الحديث فلا بد أن علمَهم لا يخطيء ولا ينحرف ابداً، لأن الشيء الذي يلتصق بالقرآن الكريم إلى يوم القيامة لا بد أن يكون مثله مصوناً من الخطأ. وبما أن أحاديث (العترة) مأخوذة عن النبي (ص) ولذا فإن سنّة النبي (ص) وأحاديث العترة من حيث الحُجيّة في مستوىً واحد. إن حديث (الثقلين) من الأحاديث الاسلامية المتواترة نقلَهُ العلماء عن النبي الأكرم (ص)، إن مراجعةً لأسنادِ الحديث في كل عصر وزمان يؤكد صدور هذا الحديث عن رسول الله (ص)، ولا يوجد احد مهما كان صعب التصديق أن يشكَّ في صحةِ الحديث. وحول قوة سند الحديث في رأي علماء السنّة، يكفي أن نقرأ آراء بعضهم؛ يقول (المناوي): نقل اكثرُ من عشرين من الصحابة هذا الحديث عن الرسول الأكرم (ص)[1].

ويقول (ابن حجر العسقلاني): نَقَلَ حديث الثقلين اكثر من عشرين من الصحابة[2].

نقل العالم الشيعي الكبير المرحوم (مير حامد حسين) ـ الذي توفي عام ١٩٢٧ م ـ نقل هذا الحديث عن ٥٠٢ كتاب مؤلف من قبل علماء أهل السنّة، وقد طُبعت مجموعة تحقيقات هذا العالم حول سند ودلالة حديث الثقلين في ٦ مجلدات.

لو أضفنا رواة هذا الحديث عن طريق الشيعة إلىٰ الكتب التي تروي هذا

---

(١) فيض القدير ج ٣ ص ١٣.
(٢) الصواعق المحرقة ص ١٣٥.

الحديث عن طرقِ الماضين فإن اعتبار هذا الحديث وتواتره يكون في أعلىٰ درجة لا نجد له شبيهاً إلّا (حديث الغدير). إليكم متن حديث الثقلين:

ـ «**إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي أهلَ بيتي، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا ابداً، ولن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض**».

الحاجة لسنّةِ النبي (ص) في فهمِ احكام الاسلام:

كيف يمكن القول إن القرآن الكريم وحده يمكنه في جميع الأحوال أن يكون هادياً وقائداً؟ بينما نزلت سلسلة آيات في باب العبادات كالصلاة والصوم والحج، ترك الله سبحانه بيانها وتفصيلها للنبي (ص).

جميع مسلمي العالم يقيمون الصلاة ويؤدون فريضة الصوم، ويشتركون في أداء مراسم الحج، ولكن لو لاحظتم مجموع الآيات الواردة حول هذه العبادات الثلاثة الكبرىٰ ستؤمنون بأن عبارة (إن القرآن يكفي لهداية البشر) لا أساسَ لها.

ليس فقط في هذه المواضيع الثلاثة نحتاجُ إلى بيانِ النبي الأكرم (ص) وإنما هناك في باب المعاملات، كأحكام البيع والشراء، والنكاح والأرث والطلاق، سلسلة من الآيات يجب أن توضّح من قبل النبي المعصوم (ص).

يجب أن لا تتصوروا اننا نريد أن نقول: إن القرآن يحتاج إلى تفسير المعصوم في جميع المواضيع، وبدون مراجعةِ المعصوم لا يمكن فهم أية آيةٍ من آياتِ القرآن الكريم. كلا، المقصود ليس ذلك (ولا نريد الآن الدخول في هذا البحث) طبعاً يجب الإعتراف بأن الآيات التي ترتبط بالعقائد والمعارف او القصص والتقاليد والأخلاق، وحتىٰ قسماً من الآيات التي تتعلق بالأحكام، لها مفاهيم ثابتة، يمكن الوصول إلى مفهوم الآية بامتلاك سلسلةٍ من الامكاناتِ العلمية، واذا كان القرآن الكريم يقول: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكرِ فهل من مُدَّكر**﴾[1] فالمقصود هذه

---

(١) سورة القمر الآية (١٧).

المجموعة من الآيات، ولكن مع ذلك، وبدليلِ القرآن نفسِه هناك مجموعة من الآيات الإجمالية لا يمكن الوصول إلى مفاهيمها بدون توضيح النبي (ص) او اسلوبه في ذلك، وفي هذه الحالة كيف يمكن تجاهل سُنّة النبي (ص) مع وجود مثل هذه الآيات؟!

وهنا يمكن القول عن سهولة فهم القرآن إن الغرضَ من هذه الآيات هو أن النبي (ص) ليس مثل كهنة تلك الأيام الذين كانوا يتحدثون بلغةِ (الأجنة) وان كلامهم كان مُجملاً وغامضاً، وإنما القرآن مفهومٌ كلُّهُ، ولكن هذه المسألة لا تعني اننا لا نحتاج إلى معلمٍ واستاذ. إن كتب الدرس في الثانوية والجامعة مكتوبة بلغةٍ سهلة ومفهومة وواضحة، ولكن هذا لا يعني أن الطلبة يمكنهم الاستفادة من الكتب دون معلم أو استاذ. إن الكتابة السهلة والواضحة مسألة وعدم الاحتياج إلى معلم واستاذ شيءٌ آخر، والقرآن الكريم يؤكد الأول وليس الثاني، ويُصَرِّح بأن النبي (ص) موضِّحٌ للقرآن: ﴿**وانزلنا إليك الذِّكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكّرون**﴾[1].

* * *

(١) سورة النحل الآية (٤٤).

معرفة الأئمة بالغيب والبلايا الدنيوية

مع أن الأئمة المعصومين كان لهم علم بالحوادث والمصائب وعلم الغيب فلماذا تعرضوا لسهام الحوادث غير السارة كالتسمم وغيره؟!

الجواب:

إن الشخصية الإلهية للنبي (ص) والشخصية السامية للإمام (ع) يرتهن قسمٌ منها إلىٰ المواهب الإلهية، والقسم الآخر ينتجُ عن السعي في طريق العبادة والعبودية لله تبارك وتعالىٰ. انهم مجبرون في حياتهم الشخصية وأمام الاحداث والظواهر علىٰ العمل بعلمهم العادي، المتأتىٰ من العلل الطبيعية والاسباب المتداولة المتوفرة للجميع. ورغم أن الشخصية الإلهية هذه وبشعاع من روح الولاية ترىٰ الأحداث والظواهر من أعلىٰ وهي مَطّلعة، نتيجة علمها بما وراء الطبيعة، علىٰ العلل والدوافع لتلك الأحداث والظواهر، ولكن بسبب الجوانب التربوية، التي سنوضحها فيما يلي، ليست مُجازة بالاستفادة من هذا العلم في الشؤون الحياتية العادية وحتىٰ في الأمور المتعلقة بالمجتمع مثل القضاء والحكم. ولا يجب على الإمام أن يزيلَ مشاكلهم الحياتية بالإستفادة من هذا السلاحِ الغيبي، وأن يمنع وقوع الحوادث المؤلمة بعلمِه، وأن يقوم بواسطتِه على حلِّ الخلافات والعداء بين الأفراد.

استسلام النبي (ص) امام إرادة الله تعالى:

كان النبي (ص) في المسجد، فأخبروه بسوء حال ابنه ابراهيم، فذهبَ (ص) إلى البيت واحتضن ابنه فقال له وهو ينظر إليه:

- اي ابراهيم العزيز، إنني لا أستطيع فعل شيء لك، ولا يمكن رد القضاء

الإلهي، إن عين ابيك دامعة وقلبه حزين عليك، ولكنني لن أتفوه بكلمة تجلب غضب الله تعالىٰ، فإن لم يكن وعداً صادقاً من الله تعالى للحقنا بك ولبكيت وحزنت اكثر من هذا لفراقِك[1].

كان للنبي الأكرم (ص) خلال مرحلة الرسالة ثلاثة اسلحةٍ قاطعة، وكان بإمكانِ كل واحد منها أن يكون مؤثراً في اللحظاتِ الحساسة والحوادث المؤلمة، ولاستطاع بواسطتها أن يُعيد سلامة ابنه. ولكنه (ص) لم يستخدم هذه الأسلحة التي هي: ١ ـ الإعجاز، ٢ ـ الدعاء المستجاب. ٣ ـ العلم الغيبي.

كان بإمكان النبي (ص) عن طريق الإعجاز والولاية ـ تلك الولاية التي كانت للسيد المسيح في معجزاته في إحياء الموتىٰ وإعادة صحة وسلامة المرضىٰ من امراضهم الصعبة ـ ان يُعيد سلامة ابنه. كان بإمكان النبي (ص) ببركة الدعاء المستجاب الذي منحه الله تعالىٰ، وكان كلما دعا يُستجابُ، أن يُغيّر الحالة التي كانت لأبنه. وكان بإمكان النبي (ص) عن طريق العلم الغيبي أن يقضي على عواملِ المرض لكي لا يمرض ابنه. ولكنه (ص) لم يستخدم في هذا الأمر ولا في الأمور الأخرىٰ هذه الأسلحة المؤثرة، ولم يخطُ خارجَ الاحداث الطبيعية والاسباب العادية، لماذا؟! لأن هذه الأسباب والأسلحة غير العادية أُعطيت للنبي (ص) لأهداف اخرىٰ، وانه عليه أن يستخدمها فيما يخص إثبات الولاية او في المواقف التي يحتاجُ إليها فيها، وليس في الشؤون الشخصية ومواجهة الحوادث الحياتية او اصدار حكم بشأنها. إنه يستطيع استخدام هذه الأسلحة عندما يقترن الأمرُ بإذنٍ إلهي عندما يريد أن يُثبت ويُبرهن وليُ الزمان النبوةَ او ارتباطَهُ بمقام الربوبية، وليس في المسائل الصغيرة والأعمال الشخصية العادية.

إن الشرطة مجهزون بأسلحةٍ كالمسدس والرشاش، ولكن لا يحقُّ لهم استخدام هذه الأسلحة إلّا في مواقف خاصة وعندما يُسمح لهم بذلك وليس في الأمور الشخصية والأعمال العادية.

---

(١) السيرة الحلبية ج ٣ ـ بحار الأنوار ج ٣٣ ص ١٥٧.

وأحد اسباب عدم استخدام هذه الأسلحة من قبل النبي (ص) او الأئمة (ع) في إزالة المشاكل الشخصية هو: أن استخدام هذه الاساليب في الشؤون الشخصية سيقضي علىٰ عملهم التبليغي، إذ لا شك أن حياة الزعيم القائد والإمام، وصبره في المصائب والمشاكل ومقاومته وايثاره في ميادين الجهاد قدوة للآخرين، وإلّا فإنهم (اي النبي (ص) والأئمة (ع)) يستطيعون عن طريق الإعجاز او الدعاء المستجاب او العلم بما وراء الطبيعة أن يخرجوا من المصائب والمشاكل والبلايا والأمراض، مثلاً أن ينقذ (ص) ابنه عن طريق المعجزة، او يشفيه عن طريق الدعاء المستجاب او العلم بالغيب. ولكنه في تلك الحالة لم يكن ليستطيع أن يوصي الآخرين بالصبر والتحمل في المشاكل والمصائب، او يدعو الأمة للمقاومة وتحمل الصعاب والصبر عليها، ولواجه موجةً من الاعتراض علىٰ حياتِه ولقال الجميع: إن من يدعوننا إلىٰ مثل هذه البرامج الاخلاقية البنّاءة يجب أن يكون هو قدوة فيها ونموذجاً للصفاتِ الإنسانية السامية.

إن الشخص الذي لا يعرف الألم وعدم الراحة، ولم يتلمس طوال حياتِهِ المصائب والمشاكل لا يمكنه أن يكون نموذجاً في الأخلاق وقدوة لحياة الإنسان.

ولهذا السبب ولأسباب أخرىٰ فإن الشخصيات الإلهية تسعىٰ كالآخرين لحل مشاكلها ومواجهة مصائبها ويستخدمون نفس الوسائل العادية لإزالتها او مواجهتها، وربما لأسباب خاصة لا تثمر جهودهم شيئاً.

إننا لو شاهدنا أن اسلوب حياة المعصومين لا يختلف كثيراً عن حياة الآخرين، يمرضون مثلهم ويتوسلون لشفائهم بالأدوية التي كانت في زمنهم. وفي الحياة الاجتماعية او المعارك الجهادية يستخدمون نفس الوسائل التي يستخدمها الآخرون، ويرسلون الاشخاص ليأتوهم بالتقارير عن المعارك، فإن كل ذلك بسبب انهم ما كان مسموحاً لهم بالاستفادة من الوسائل الإعجازية.

بعض الأدلة من الآحاديث الاسلامية:

لفت الائمة عليهم السلام بأحاديثهم انتباهنا إلى هذا الموضوع إليكم بعضها.

١ ـ يقول عبيد الله بن رافع كاتب أمير المؤمنين (ع): حضرت أمير المؤمنين (ع) وقد وجه ابا موسىٰ الأشعري وقال له: أحكم بكتاب الله ولا تجاوزه. فلما أدبر قال: كأني به وقد خُدع. قلت: يا امير المؤمنين فلم توجهه وانت تعلم أنه مخدوع؟. فقال: يا بني لو عمل الله في خلقِه بعلمِه ما احتج عليهم بالرسل[1].

إن أمير المؤمنين يذكّرنا بعلم الله سبحانه الذي لا ينتهي، وانه يتوجب عليه في حياتِه العادية أن يستخدم الوسائل والاسباب العادية ولا يعتمد علىٰ علمِه بما وراء الطبيعة.

٢ ـ نرىٰ في الروايات الاسلامية أن أئمتنا يؤكدون أن ملاك الأحكام التي يصدرونها هي نفس الأصول القضائية في الاسلام، وليس العلوم التي تخرج عن الحدّ العادي، كما ينقل الإمامُ الصادق (ع) عن النبي (ص):

ـ إنما اقضي بينكم بالبينات والإيمان وبعضكم الحن بحجتِه من بعض[2].

ويستفاد من بعض الأحاديث أن الإمام (ع) في احكامِه وتنفيذ الحدود يستطيع أن يتجاوز الشاهدَ والقَسَم ويعمل وفقَ علمِه الذي اكتسبه عن الطريق العادي والأسباب الظاهرية والحسية.

يقول الفقيه الكبير المرحوم (السيد محمد كاظم الطباطبائي) في كتاب (ملحقات العروة): «بإمكانِ القاضي أن يعمل وفقَ علمِهِ الشخصي في حلِّ الدعاوىٰ، العلم المكتسب عن الطريق الطبيعي، وليس العلم المكتسب عن الطرق غير العادية»[3].

---

(١) ابن شهر آشوب: المناقب ج ٢ ص ٢٦١.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ١٦٨.

(٣) ملحقات العروة ج ٢ ص ٣١.

واستدل على كلامِهِ بالرواية التالية: «الواجب علىٰ الإمام إذا نظر إلى رجل يزني او يشرب خمراً أن يُقيم عليه الحدّ ولا يحتاج إلى بيّنة مع نظره لأنه أمين الله في خلقِهِ»[1]. في هذه الحالة التي يعمل فيها الإمامُ بعلمِه، فالمقصود هو العلم العادي والطبيعي، كما يدلُّ علىٰ ذلك كلمة (نَظَرَ).

إذا دُقِّق في احكام أمير المؤمنين لثبتَ بوضوح أن الإمام بسعيه الخاص كان يكتشف الحقائق وعندما يُصدرُ حكمه يعترف الطرفان المتخاصمان بالحقائق.

* * *

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٣٤٤.

هل كانت نهضة الامام الحسين (ع) نهضةً واعية ام إنفجاراً آنيّاً؟

الجواب:

من وجهة النظر الفلسفية فإن كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية تتعلق بالعلل الأربع التي تظهر بفعلها، وبفقدان علة من هذه العلل فإن ظهور تلك الظاهرة يكون في حكم المحال، مثلاً إننا لصنع مائدة نحتاج إلى نجار ليصنعها، ويلزم الخشب لذلك، ومن قطعات الخشب يتألف شكل خاص وبعد أن يتم صنع المائدة فإن هذه تُصبح منبعاً لبعض الفوائد. وفي هذه الحالة فإن النجارِ يكون فاعلاً، وتكون مادة الخشب سبباً مادياً، وشكل المائدة سبباً صورياً، وآثار وفوائد المائدة تكون النتيجة النهائية.

العلل الأربع في النهضات:

ليست هذه هي العلل الطبيعية الوحيدة التي يشملها هذا القانون وإنما تكون الظواهر التاريخية والنهضات والثورات الأقليمية أو العالمية مشمولة بصورةٍ من الصور بهذه العلل الأربع. وشخص محققٌ يستطيع بتحليلٍ تاريخي أن يحصل بشكل واضح علىٰ اسباب النهضة ونتائجها، كما انه يستطيع أن يطّلع علىٰ محتوىٰ النهضة وعناصرها، والشكل الذي تكون عليه النهضة من تركيب العناصر. وفي هذه الحالة فإن اسباب النهضة والثورة بالاضافة إلى نهضةِ الشعب، تعتبر تشكيلة من السبب الفاعل، والنتائج، والاحداث وغير ذلك، وهي تُشكِّلُ بالتالي الاسباب المادية والصورية للثورة.

نهضة الامام الحسين بن علي (ع):

لا تخرج نهضةُ الامام الحسين (ع) عن القانون العام للحوادث، فلنهضتهِ

عليه السلام، اسباب ودوافع وآثار ونتائج، كما كان لها عناصر ومحتويات وشكل ووضع خاص ـ ونحن من خلال شرح العوامل الأربعة سنبحث عن العامل الأول (اسباب النهضة ودوافعها) فقط ومن زاوية خاصة، وهو أن نهضة الإمام عليه السلام قد قامت بكامل الحرية، وانه قد انتخبَ الثورة علىٰ السكوت والسكون طبقاً لمحاسبات خاصة، بينما كان بإمكانِهِ أن لا ينهض، وأن يتبع هو واصحابه الحزب الحاكم، او علىٰ الأقل يدعو إلى عدم الإهتمام والسكوت والسكون. او أن الإختناق والضغط والظلم والاستبداد قد أَلَمَّتْ بالمجتمع الاسلامي في تلك الأيام بحيث أن المجتمع لم يعد يتحمل اكثر من ذلك ووصل إلىٰ حدِّ الإنفجار وبُذرت بذورُ الإنتفاضة.

إن الاشخاص الذين يُفسرون وقوع النهضات والانتفاضات عن طريق (الإنفجار الفجائي) استناداً إلى نظرية هيغل (تبديل الكمية إلىٰ الكيفية ـ المبدأ الثالث في الديالكتيك). فعندما يصلون إلى نهضة وثورة سيد الشهداء ولكي يُبينوا تحليلهم العام، فإنهم يتناولون بنفس الاسلوب الثورة العظيمة التي قام بها الإمام الحسين (ع)، ويعتبرونها ثورة فجائية غير مدروسة، او انفجاراً في قلب المجتمع انهم يقولون: تصل أحياناً التغييراتُ التدريجيةُ في الظواهر المادية إلىٰ درجة لا تقبل بعدها الظواهر تلك التغييرات، وفي النهاية فإن التغييرات الصغيرة الاضافية تتبدل إلى نوع جديد، مثلاً إن الحرارة في الماء لها حدٌ معين، وإذا ازدادت درجة الحرارة فإن الماء يتبدلُ إلى بخار تلقائياً.

إن هذا القانون في نظر هؤلاء يشملُ المجتمع والتاريخ، والمجتمع يتحمل إلىٰ حدٍ معين استبداد الطبقة الظالمة، ثم يصل مرحلة يفقد فيها قدرةَ التحمل، فينهض بعد ذلك في انفجار ضد النظام الحاكم فيُحدث ثورةً.

وعلىٰ هذا الأساس يقول البعض إن استشهاد أمير المؤمنين (ع) أدىٰ إلى زيادةِ ضغط الحكم الأموي علىٰ الأمةِ الاسلامية والطبقة المظلومة. وبعد معاوية زاد ابنه يزيد من ضغطه اضعافاً، ووصلت الحالة إلى الدرجة التي كان يجب أن يحدث إنفجار، وكانت النتيجة أن ظهر هذا الأنفجار علىٰ شكل ثورة الإمام الحسين (ع).

الثورة الواعية:

إن مثلَ هذا الرأي عن نهضة الإمام الحسين (ع) إنما هو رأي نابعٌ عن رأي شخصي للمحللين الماديين، ولو راجع هؤلاء تاريخ نهضة الإمام الحسين (ع) واقعية لما أبدوا هذا الرأي عن اعظم نهضة، إن هؤلاء المحللين قد تقبلوا بعيون غامضة مبدأ (تبديل الكمية إلى الكيفية)، ومن جهة أخرىٰ يعتقدون أن المبادىء الحاكمة علىٰ الطبيعةِ غير الواعية، تصدقُ علىٰ المجتمع والتاريخ البشري بدون زيادة او نقصان، لذا فإنهم مضطرون أن يفسروا نهضة الامام الحسين بن علي (ع) عن هذا الطريق. ولو انهم اعتبروا هذا المبدأ غير شامل للعامل (وهو الحق) او أنهم اعتبروه شاملاً للعالمِ ولكن دون أن يتبعوا مبدأ (الطبيعة) لدىٰ الإنسان، كما اعتبروا ثورة سيد الشهداء انفجاراً غير واعٍ ـ نتيجة انهم يريدون أن يُخلوها من القيم.

إن الإشكالَ لدىٰ هذه المجموعة هو أنهم يريدون تفسير كل شيء وجميع النهضات بمقاييسهم المحدودة، وكلما وجدوا شيئاً مخالفاً لهم فإنهم يقومون بالتحريف، ويحافظون على رأيهم ذي البُعد الواحد.

إن انفجار مجتمع اشبه ما يكون بإنفجار (قِدر) بخار فإذا أغلقت منافذُه فإن الانفجار يحدث بصورةٍ تلقائية، أراد الإنسان ذلك او لم يرد.

إن النهضة الانفجارية[1] بالمقياس الصغير يشبه انفجار إنسان مملوء بالعُقد، بدون إرادةٍ منه، ويكشف عن كل ما في قلبِه، رغم إنه يندم فيما بعد. إن النهضة الإنفجارية تفتقد لأية قيمة اخلاقية، ولا يمكن الثناء علىٰ شخصيات الثورة، لأن جميع المشتركين بالثورة ما هم إلاّ مشاهدو الثورة، وليس القائمين بها، والعامل المؤثر هو نفس تلك التناقضات التي تدفع بالمخالفين إلى الإحتجاج.

ولهذا فإن حماة هذه (النظرية) لكي يُسرعوا بالانفجار يعتقدون أنه عليهم أن يزيدوا التناقضات ويولِدوا المشاكل حتىٰ ينفجر (القِدرُ البخاري) للمجتمع تلقائياً وينهار النظام.

---

(١) المقصود: النهضة الفجائية غير الواعية او المدروسة

وهنا يجب ملاحظة نقطتين بعمق:

١ ـ هل للنهضاتِ الإنفجارية قيمة اخلاقية ام لا؟

٢ ـ وهل نهضةُ الإمام الحسين (ع) من تلك النهضات ام هي نهضة واعية؟ وهل كانت الضغوط والتناقضات عاملاً لمثلِ هذه النهضة ام أن هناك دافعاً من احساسٍ وجداني واخلاقي داخلي؟

حول النقطة الأولىٰ، يكفي أنْ نعلم أنَّ الأعمال التي تخرج عن الإرادة رغم انها مفيدة ومؤثرة إلّا أنها تفتقد للقيم الأخلاقية الفاعلة. افترضوا أن حيواناً مفترساً يزمع الهجومَ علىٰ إنسانٍ شريف، ويقوم صيادٌ (لا يعلم أن رجلاً شريفاً يوشكُ على الوقوع في مخالب حيوان مفترس) باطلاق الرصاص على الحيوان، يقتله او يجرحه، وينجو ذلك الإنسان.

إن مثلَ هذا العمل لا يمكن أن يجلب استحسان أحدٍ لأن عملَ الصياد كان بلا هدف ولم يكن يعلم شيئاً عن نتيجةِ عمله. وفي هذه الحالة كيف يمكننا أن نستحسن عمله ونمنحه جائزة؟

الانفجارات الاجتماعية هي بمقياسٍ اكبر مما اوردناه. والثوريون الذين يفتقدون للإرادة والحرية، إنما تحركوا إثرَ التناقضات الطبقاتية والضغوط الداخلية فيهزّونَ جبلاً من مكانِه ويُحدثون طوفاناً، ولكن مثل هذا العمل ليس له قيمة اخلاقية ابداً.

وفي فتح اسبانيا، فإن قائد الجيش أمر بعد دخولِ الجيشِ عن طريق البحر، أمر باحراقِ جميع السفن التي كانت وسيلتهم الوحيدة للعودة وأُلقيت بجميع المؤن في البحر إلّا القليل، ثم قال قائدُ جيش الإسلام:

ـ البحر من ورائكم والعدو أمامكم والتوقف في هذه النقطة يعني الموت.

ولهذا لم يكن أمامهم سوىٰ أن يقاتلوا ويفتحوا البلاد، وهكذا تقدم الجميع، وقد يكتسب عملُ القائد استحسانَ العالم لأنه بكل حريته وضعَ نفسَه أمام العدو.

ولكن لا يمكن فتحُ صفحةٍ جديدة في دفتر الاخلاق لمثل هذا الفتحِ

والانتصار، واعتباره عملاً قيماً، وإنما العمل الذي يستحق قيمة اخلاقية هو ذلك العمل الذي يعترض الإنسان، علىٰ مفترق طرق، فينتخب الإنسانُ بكل حريته إحدىٰ الطرق التي تتصف بالفضيلة، وليس أن يرىٰ جميع الطرق مغلقة أمامه إلّا طريقاً واحداً فيكون مجبراً علىٰ طيّهِ.

الامامُ الحسين (ع) ونهضته الواعية:

لقد بُذرت في قلب الامام الحسين (ع) وفي قلوب شيعته بعد استشهاد أخيه الامام الحسن عليه السلام، وقد كان الامام الحسين (ع) يقوم بعد استشهاد اخيه المظلوم وحتىٰ وفاة معاوية بدور المعارض ويُدينُ معاوية في الاجتماعات والمحافل، ويُعدّد جرائمه بحق الأمة الاسلامية وكان احياناً يهدده عن طريق الرسائل بالثورة. وعندما هلك معاوية وترك مكانه لأحقر وارذل الاشخاص، فإن ثورة سيد الشهداء (ع) أخذت تأخذ أبعادها ودعا المسلمين بطرقٍ مختلفة إلى الثورة.

إن هذه الأعمال تدل علىٰ تخطيط دقيق نظّمه أبو الأحرار وطلب من الأمة اتباعَه، وعلىٰ هذا الأساس كيف يمكن اعتبار ثورتِـهِ انفجاراً غير واع وانها في مستوىٰ الانقلابات التي تفتقد لأية قيمة.

والآن نقدم سلسلةً من المعالم التاريخية الدّالة علىٰ ثورتِهِ الواعية.

١ ـ خطبة الإمام عند أخذ البيعة ليزيد:

حصل معاوية بعد استشهاد الإمام الحسن المجتبىٰ صلوات الله عليه، بالتطميع والتهديد علىٰ موافقة مجموعة من الشخصيات علىٰ البيعة ليزيد، وهنا تواجه مع الإمام الحسين بن علي (ع)، الذي خاطبه قائلاً[1]: لقد سمعت ما وصفت به ولدك يزيد من كمال وبصيرة، ومن وراء هذا تروم خداع الناس، كأنك تتحدث عن شخص غير معروف، كأنك عليم بشيء نحن لا نعلمه، اظهر يزيد مكانته وكفاءته بهذا العمل، انه ملاعب الكلاب والحمائم، انه مرافق ربات الحجال

(١) الامامة والسياسة. طبعة مصر ج ١ ص ١٧٠.

والعـاهرات، وخيـر لـك أن تـرجـع ممـا رميت، وأن لا تـزيـد اعبـاءك بـالآثـام والخطيئات . . » .

٢ ـ **رسالة الإمام الحسين (ع) إلى معاوية:**

وكتب الأمام الحسين (ع) رسالة مطولة إلى معاوية عدّدَ فيها جرائمـه وفي مقدمتها قتـل الصالحين واكـابر الصحـابة والمتقين من شيعـة أمير المؤمنين (ع)، واضاف في الرسالة[1]: «أخاف أن لا أكون معذوراً امام الله أن لا اكون مؤلباً عليك الجماعات لما يعلمه الله من المعاذير، وأخاف أن لا تكون معاذيري مقبولة أمام الله». ثم يقول الامام في الختام: «إن اكبر جريمة لك تحكمك علىٰ رقاب الناس لولدك العاهر وأخذ البيعة علىٰ الناس لمن لا يؤمن بالله ويشرب الخمور ويلعب بالكلاب».

٣ ـ خطبة الامام الحسين (ع) في منىٰ:

وقف الامام الحسين (ع)، في أواخر حكم معـاوية، في اجتمـاع كبير في (منىٰ) ضم كبار الشخصيات من بني هـاشم واصحاب رسـول الله (ص) وابنائهم والتابعين، والقىٰ خطبة مستدلّة عن النظام الحاكم في بلاد الاسلام. وطلب منهم ايصال خطابه إلى الآخرين وأن يكتبوه إلى الشخصيات الاسلامية الكبيرة المتفرقين في ارجاء البلاد الاسلامية، وان المجتمعين لدىٰ عودتهم إلى بـلادهم عليهم أن يَعْلموا تلك الشخصيات على آراء الإمام (ع).

بدأ الامام كلامه بالحديث عن معاوية وجرائمِهِ بحق الأمة الاسلامية وخاصة شيعة أمير المؤمنين عليه السلام.

يقول الراوي؛ إن الحسين بن علي (ع) قرأ الكثير من الآيات التي نزلت بحق آل بيت الرسالة (ع) أو الاحاديث التي وردت عن النبي (ص) عنهم. ثم طلب من

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٥.

الحاضرين الذين كانوا يمثلون دعامة الاسلام في مكة والمدينة والبلاد الأخرىٰ إظهار حقهم، ثم أقسم عليهم أن يوصلوا هذه الحقائق إلى المؤمنين الملتزمين من المسلمين، فقام الجميع بتأييد الإمام (ع)[1].

بعد كل هذا ابدل الإمامُ الحسين (ع) في اليوم الثامن من ذي الحجة حَجَّهُ إلىٰ عُمرةٍ مفردة، وخطب امامَ جمع من الناس مُبيّناً لهم سبب انصرافِهِ عن الاشتراك في مراسم الحج وخروجه إلىٰ العراق بقولِه:

ـ «خُطَّ الموت علىٰ بني آدم مخط القلادة علىٰ جيد الفتاة، وما أولهني إلى أجدادي إشتياقُ يعقوب إلىٰ يوسف، كأني بأشلائي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربةً سغباً لا محيص عن يومٍ خط بالقلم»[2] ثم قال:

ـ «من كان يريد بذل مهجتِهِ في سبيل الله ويرتدي بلقاء الله فليحضر عندنا فإني راحل صباح غد إن شاء الله»[3].

فهل يجوز لنا بعد كل هذه الخطب اثناء الطريق في كربلاء، وفي ليلة عاشوراء بالذات، عندما طرح بيعته من اعناق اصحابه، ودعاهم أن يأخذوا الليل ستاراً لهم ويتركوه، هل يجوز أن نطلق علىٰ انتفاضة الامام الحسين الغالية اسم الانفجار اللاواعي؟!

إلىٰ هنا اتضح أن ثورة سيد الشهداء عليهِ السلام هي ثورة واعية، وليس انفجاراً غير واعٍ، ولتوضيح هذا الموضوع نشير إلى جوانب من ثورةِ الامام الحسين (ع)، ونحن نعترف بأننا في هذه العجالة لا نستطيع إلتحدث مفصلاً عن الثورة.

---

(١) كتاب سليم بن قيس ص ١٨٣ و١٨٦ طبعة النجف الأشرف.

(٢) مقتل الإمام الحسين (ع) ـ المقرم.

(٣) اللهوف ـ طبعة بغداد ص ٤١.

حكومة الحاكم الفاسد الظالم:

أحد اسباب ثورة الامام الحسين (ع) هو ظهور انحرافات في جهاز الحكومة التي تسمىٰ بـ(الاسلامية) في تلك الأيام. طبعاً لم يكن عهد حكومةِ يزيد بدايةً لتلك الانحرافات، وإنما بدأت الانحرافات في الحكومة مع انحرافها عن المسير الاسلامي الصحيح من قبلِ مجموعة من الصحابة، ولكن هذه الانحرافات لم تكن ظاهرة في السنوات الأولى لحكم الخلفاء الراشدين، فمع وجود البدع الكثيرة كان الخليفة الأول والثاني يتظاهران بالعدالة الاجتماعية، وفي عهد الخليفة الثالث لم تكن هذه الظاهرة موجودة ايضاً، بل اتسع هذا الانحراف وازداد عمقاً، لدرجة ان ابا سفيان، العدو الأول للاسلام والنبي (ص)، الذي كان منذ مدة يتظاهر بالاسلام وانضم إلىٰ المسلمين، قال متجرأً وهو في اجتماع سري حضر الخليفة عثمان وهو في أيامِ خلافتهِ الأولىٰ وبحضورِ جمع من بني أُمية[1]:

- تلقفوها يا بني عبد الدار، فوالذي يحلف به ابو سفيان لا جنة ولا نار.

مثل هذه التوصية الوقحة الدالة علىٰ الكفر والإلحاد قيلت في اجتماع ضم رؤوساء الحكومة التي يصطلح عليها بانها (اسلامية)، وتدل علىٰ الانحراف والرجعية لدىٰ اعضاء هذه الحكومة إلى الاوضاع الجاهلية المظلمة. ليس فقط أن أبا سفيان لم تنزل به عقوبة الإرتداد، بل إنه لم يوبخ من قبل حكومةِ ذلك الزمن، ووصل الأمرُ إلىٰ درجة أن توصيته أخذت تتحقق، إذ لم يمض وقت طويل حتىٰ قام ابن عمه الخليفة بتشكيل حكومة أموية مائة بالمائة باسم الإسلام، وملأ اقطار العالم الاسلامي بأقاربهِ المجرمين وجميعهم من بني أمية.

إذا كان مَلاك انتخاب الاشخاص للأقاليم والقيادة والقضاء في عهد الرسول (ص)، وقسم من عهد حكومة (الشيخين) اللياقة والأمانة، فإنه في خلافة عثمان اصبح هذا الملاك يعتمد القرابة والانتساب لبني أُمية، او بالأحرىٰ وطبقاً

---

(١) الاستيعاب ج ٤ ص ٧٨. شرح نهج البلاغة ابن ابي الحديث ج ٣ ص ٤٤٣.

لإصطلاح هذا العصر فإن الروابط تتغلب علىٰ الضوابط، أي غلبة العلاقات على الأصول.

ورغم أن خلافة أمير المؤمنين الامام علي (ع)، بعد قتل عثمان، قد أنهت الكثير من هذه الإجحافات والغبن والمظالم، ولكن لقصر حكم هذا الرجل الإلهي، فإنه لم يُقضَ علىٰ جذور مرتزقة الحكم الأموي فبعد استشهاد الإمام علي (ع) تغلب ابن أبي سفيان، معاوية، علىٰ جميع الأقطار الاسلامية، وسلّط عمالَـهُ الظالمين المستبدين امثال زياد، عمرو بن العاص، سمره، ومروان، وغيرهم على نواميس واموال وبيت مال المسلمين، وقتل وبأسلوب وحشي حجر بن عدي، رشيد الهجري، عمرو بن الحمق، والمئات من طلّاب الحق والحرية، الذين وقفوا بوجه حكومة الظلم والانحراف عن مسير أهل البيت (ع).

مهدّ معاوية خلال حكمه الذي امتدّ عشرين سنة الأرضية لحكمِ ابنهِ يزيد، عصارة الفساد وثمرة الشجرة الخبيثة لآل أُمية.

وبعد موت معاوية، في النصف من شعبان عام ٦٠ هـ، حلّ محلّه رجلٌ ليس فقط إنه لم يُربَّ تربية دينية، بل إنه كان يحمل معه أحقاد العهد الجاهلي، ومعركةِ بدر وأُحد والأحزاب، ومخالف بشدة للإسلام والنبي (ص). اصبح الحكم الذي كان يجب أن يسعىٰ لتحقيق رسالة الاسلام، وتنفيذ القوانين والأحكام وافكار وآراء المسلمين ويجسّد روح المجتمع الاسلامي، اصبح بيد رجل شرير ينكر الوحي المحمدي ورسالة خاتم الأنبياء (ص)، وكجدّهِ أبي سفيان يرىٰ أن الحكم يجب أن يكون بالقوة علىٰ الجميع.

لقد جاءَ بعد معاوية شخصٌ تربىٰ على التعاليم المسيحية ويَميلُ في باطنه إليها، كان شاباً غرّاً، فاسقاً، مغروراً، غارقاً في اللهو، ويفتقد لأيةِ صفة إنسانية، واختلافُهُ الوحيد عن أبيه، هو أن اباه كان يتظاهر نفاقاً ويراعي الاوضاع، ولكن الأبن لغرورهِ شقَّ ستارَ النفاق واظهر وجهه الحقيقي وداس علىٰ المقدسات علانية،

كان يشرب الخمر، ويشترك في محافل السكارىٰ الذين يحيـون الليالي بـالغناء، وينشد دون أي وازعٍ[1]:

وشعره الدال على حلّية الخمر معروف حيث يقول:

فإن حرمت يوماً على دين أحمد فخذ   هــا علىٰ دين المسيـح بن مــريم

كان بلاط يزيد منبعاً للفساد والخطيئة، ووصلت آثاره المشؤومة إلىٰ الاماكن المقدسة، .كمكة والمدينة[2].

في مثل هذه الظروف رأىٰ الإمامُ الحسين (ع) وطبقاً لتعاليم جدِهِ (ص)، أن السكوت حرام والثورة واجبة حتىٰ ولو انتهت بقتلِهِ وقتل الأعزة وأسر آل بيته (ع).

فقد قال جدُّهُ العظيم (ص):

ـ «من رأىٰ سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّةِ رسول الله، يعمل في عبادِه بالأثم والعدوان، ولم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً علىٰ الله أن يُدخلَهُ مُدخَلَه».

* * *

---

(١) تذكرة الخواص ص ٢٩١.

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٧٧: وغلب على اصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، واظهر الناس شرب الخمر.

عاشوراء الحسين (ع) يطابق اي تاريخ بالتقويم الشمسي؟

يود البعض أن يعلموا أن يوم عاشوراء الحسين (ع) الذي حَدَثَ في العاشر من محرم عام ٦١ هجري قمري، يُصادف أي يوم وشهرٍ وسنةٍ بالتقويم الشمسي؟!

الجواب:

لكي لا يُستفاد من السنة الشمسية في هذا المجال، لذا فإن مبنىٰ التاريخ الصحيح هو التاريخ القمري الذي لم يتغير منذ القديم.

وأما لحساب ذلك فإنني أخذت يوم عاشوراء الماضي بنظر الاعتبار وابدلته باليوم والسنة الشمسية وحَسَبْتُ فرق عاشوراء السنة الماضية ثم حَسَبْتُ مرةً اخرىٰ عاشوراء عام ٦١ هـ ق طبقاً للتاريخ الشمسي وأضفته إلى الفرق الذي حصلت عليه في المرةِ الأولىٰ فجاءَ أن تاريخ عاشوراء عام ٦١ هـ ق يصادف اليوم الحادي والعشرين من شهر (مِهْرْ) عام ٥٩ هـ. ش.

وهذا التاريخ مستخرجٌ طبقاً لمحاسبةِ المرحوم السيد محمد باقر هيوى.

* * *

الإمام المهدي (ع) والكتب السماوية

هل أن الإعتقاد بمنجي العالم خاص بالمسلمين ام أن الشعوب الأخرىٰ تعتقد بذلك؟ وما هي خصوصيات المنجي الموعود في الأحاديث الاسلامية؟

الجواب:

رغم أن الاعتقاد بمنجي العالم عقيدة اسلامية أصيلة ولها جذور قرآنية، وتوجد بخصوصها احاديث اسلامية متواترة. إلّا أن الشعوب الأخرىٰ طبقاً لما هو موجود في كتبها تعتقد بذلك ايضاً، حتى انه يمكن القول طبقاً للمحاسبات الاجتماعية إن الماديين ايضاً يعتقدون بمثل هذه الثورة المتكاملةِ الجوانب، لأنه لا يمكن أن يكون تكاملٌ ببُعدٍ واحدٍ مادي تكاملاً صحيحاً ومثمراً.

الشعوب الأخرىٰ تعتقد ايضاً بوجود المصلح الكبير للعالم والتكاملِ المتعددِ الجوانب للمجتمع البشري، إذ بعد أن يكون الفساد قد شاع ورَحَلَ النشاط والازدهار عن الدنيا، وذبلت الطراوة والنضارة عنها، يهب نسيم الربيع وتشرقُ الشمس في جوٍ معتدل، وتتبدل التربةُ السوداء إلىٰ منبعٍ للأزهار والاعشاب وتخضر الصحارى والسهول.

بعقيدة جميع شعوب العالم أن ظلام الليل الحالك يشمل العالم لمدة من الزمن، ولكن أشعة الشمس القمية تمزق ظلام الأفق وتبزع الشمس بأشعتها الذهبية علىٰ جميع انحاء العالم.

وهذا الشيء لا يختص بعالم الطبيعة والأعشاب، بل إن عالمَ الخليقة مبنيٌ علىٰ مثل هذا المبدأ، إنَّ مَثَلَ (نهاية الليل المظلم صباح مشرق) دليلٌ علىٰ مبدأ كلي وناموس عالمي، ويدل بوضوح أن بعد كل دمارٍ إعماراً، وبعد كل فوضىٰ

واضطرابٍ نظامٌ وهدوء، وبعد كل قمعٍ وضغطٍ حريةٌ، وهذا مبدأ أيّدتْه التجارب التاريخية.

وطبقاً لهذا المبدأ لا بد أن نعتبر وجود إمام الزمان ومنجي العالم، وناشر العدالة، والمساواة، والظُّهر في مدةٍ من الزمن بعد تسلطِ الجور والظلم على المجتمع البشري، نتيجة ناموس عام متكامل لا شيء آخر.

إن قضية منجي العالم ليس شيئاً خاصاً بالشيعة، وأن الشيعة هم الوحيدون بين شعوب العالم ينتظرون مثل هذه الثورة، وإنما هذا موضوع يتفق عليه جميع شعوب العالم.

طبعاً لا يتأتىٰ الإطلاع الدقيق علىٰ خصوصيات المصلح الموعود إلّا عن طريق الكتب السماوية والأحاديث الاسلامية الصحيحة، ولكن يمكن اثبات مبدأ وجود وظهور مُصلحٍ في مدةٍ من الزمن يُصطلحُ عليها بأسم (آخر الزمان)، عن طريق العقل وسائر المحاسبات الاجتماعية. والعقلُ يستدل مثلَ هذا الاستدلال علىٰ وجود التكاملِ.

المجتمع البشري منذ اللحظة الأولىٰ لوجودِه يخطو كل يوم خطوة إلىٰ الأمام، ويتقدم في الصناعات والعلوم، وشؤون الحياة، من مسكن وغذاء ولباس، تقدماً ملفتاً للنظر، ولذا فإن المجتمع البشري تحت ظل مثل هذا التحول العميق في شؤون الحياة والأمور المادية وصل إلى تكامل ملحوظ وحلّ مشاكل كثيرة، ولكن هل يمكن اعتبار تكامل من جانبٍ ماديٍ واحد، تكاملاً؟! ام أن مثل هذا الإندفاع او التقدم ذي البُعد الواحد، يتم مقابل دمار هذا المجتمع؟!

إن التكاملَ الصحيح لموجودٍ، حيّ، ومجتمع، هو أن يظهر التقدم في جميع الأبعاد وليس في بُعد واحد. إن الطفل الذي يولد ويترعرع رويداً رويداً لا بد أن تنمو جميع أعضائِهِ بنسب خاصة، ولكن اذا نما عضوٌ وبقيت الأعضاء الأخرىٰ على حالتها الأولىٰ فإن النتيجة ستكون معكوسة حتماً.

ولهذا يجب اعتبار التكامل الصناعي والتقني، والمظاهر المادية الأخرىٰ،

طليعةً للتكامل الروحي والمعنوي للمجتمع، والاعتقاد بأنه لا بد من تقدمٍ معنوي، بموازاةِ هذا التكامل، علىٰ طريق توسيع ونشر الفضائل والابتعاد عن المحرمات وايجاد مجتمع إنساني بمعنىٰ الكلمة.

إن هذا المنطق يمكنه أن يكون منطقاً لشخصٍ ماديٍ بعيدٍ عن الله تعالىٰ، ويمكنه أن يصل إلى النتيجة التي وصل إليها الإلهيون وأربابُ المذاهب وشعوب العالم عن طريق الكتب السماوية والأحاديث المتواترة، شرط أن يلاحظ أن الفَرقَ في التكامل وحصره ببُعد مادي ليس تكاملاً صحيحاً ومفيداً، واذا لم يكن التكامل شاملاً للفردِ او المجتمع فلن يصل مجتمعٌ إلى السعادة.

واذا كان المادي يعتقد عن هذا الطريق بوجود مصلح عالمي، فمن الأَولىٰ أن يعتقد اصحاب المذاهب والكتب السماوية بوجود مثل هذا المصلح قبل الماديين، لأنهُ اضافة إلىٰ العقل والفكر فإن كتبهم السماوية تصرِّحُ بوجود مثل هـذه الثورة العميقة في جميع شؤون الحياة.

في كتب ايران القديمة، والتوراة والأنجيل، رغم التحريفـات التي حدثت فيها، فإن قضية المصلح العالمي واردة فيها بوضوح. ونحن اختصاراً نعرضُ عن نقل جميعها، ومن يرغب في ذلك عليه مراجعة الكتب القيمة التي كتبت عن الإمام صاحب الزمان عليه السلام، والآن ننقل بعض المَعالم من زبور داود.

مصلح العالم في الزبور: أوضحُ آيةٍ تُثبتُ مثل هذه الثورة الشاملة هي:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعدِ الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[1].

وعندما نراجع الزبور نجد ما يلي في المزمور الأول:

ـ «طوبىٰ للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة لم يقفْ وفي مجلس المستهزئين لم يجلس، لكن في ناموس الرب مسرتُهُ وفي ناموسِه يلهجُ نهاراً وليلاً، فيكونُ كشجرةٍ مغروسة عند مجاري المياه التي تعطي ثمرها في

---

(١) سورة الأنبياءالآيـة (١٠٥).

أوانه وورقها لا يذبل وكل ما يصنعُهُ ينجح. ليس كذلك الأشرار لكنهم كالعُصافَةِ التي تُذريها الريح، لذلك لا تقوم الاشرار في الدين ولا الخُطاةُ في جماعةِ الأبرار، لأن الرب يعلم طويقَ الأبرار، أما طريقُ الأشرارِ فَتَهْلِكُ».

وجاء في المزمور السابع والثلاثين:

ـ «لا تَغَرْ من الأشرار ولا تحسدْ عمالَ الإثم، فإنهم مِثْلَ الحشيشِ سريعاً تُقْطَعون ومثْلَ العُشبِ يَذْبلون. . .».

ـ (الحُلماءُ سيرثون الأرض وسيلتذون لسلامتهم، الصالحـون يؤيدون الله، والله يعلم أيام الصالحين، وسيكون ميراثُهُ ابدياً). (من تشملهم بركتُهُ سيصبحون ورثة للأرض، ومن يلعنهم سينقطعون). (سيرثُ الأرضَ الصالحون ويسكنونها إلى الأبد). (وستكون عـاقبة الأشـرار الإنقطاع والله ينجي الصـالحين). . (انتظر الله واسلك طريقه ليوصِلكَ إلى وراثةِ الأرض. .)، وفي المزمور الخـامس والأربعين يأتي الكلام على ذكر خاتم الأنبياء (ص): (عوضاً عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رؤسـاء في كل الأرض، اذكـرُ اسمك في كـل الـدهـور، ثم تـدعـوك الشعـوب احمد. .).

وفي المزمور ٩٦ يقول: «يَدينُ الشعوبُ بالإستقامة، لتفرح السموات ولتبتهج الأرضُ لِيَعَجَّ البحرُ ومِلْؤُهُ، ليجذلَ الحقلُ وكل ما فيه لتترنَّمَ حينئذ كل الاشجـارِ الوَعْرِ، امام الربّ لأنه جاء، جاءَ لِيَدينَ الأرضَ، يدَينَ المسكونة بالعَدْلِ والشعوبَ بأمانتِهِ».

وجاءَ في المزمور ٩٧:

ـ «أخبرتِ السمواتُ بعدلِهِ ورأىٰ جميع الشعوبِ مجدَه، يخزىٰ كُلُّ عابدي تمثالٍ منحوتٍ المفتخرينَ بالأصنام».

نشكرُ الله تعالى لأن يد التحريف لم توفق لحذفِ هذا القسم من (الزبور). ولا شك أن حكوماتٍ صالحةً قد حكمت عبر التاريخ، ولكن لم يشاهد أن حكومةً صالحة حكمت الدنيا كلها، وشملت الأرضَ كلها بـالصلاحِ والعفـافِ والتقوىٰ،

ولهذا يجب أن ينتظر تابعو الزبور والقرآن الكريم مثل هذه الحكومةِ الصالحة التي تحكم العالم كله.

ورد في الأحاديث الاسلامية أن هذا المصلح العالمي هو (المهدي) و (صاحب العصر والزمان) - عج - ومثل هذه التعابير، وهناك مواضيع قليلة وردت فيها احاديث كموضوع المهدي (ع)، وهذه الأحاديث اوضحت خصوصيات ومميزات هذا الإمام عليه السلام، وقطعت الطريق على المخادعين والمدّعين كذباً المهدويةَ. وبملاحظة هذه الأحاديث والروايات التي تناقلها رجال الأحاديث الاسلامية، سُنّةً وشيعة، كُشِفَ وافتُضِحَ عددٌ من الكذّابين امثال: المهدي السوداني، وغلام احمد القادياني، وعلي محمد الباب.

وإليكم الآن فهرساً للروايات التي وردت فيها مشخصات المنجي الموعود، مع ذكر ارقام واعداد الأحاديث فيها:

١ - الروايات التي تذكر ظهوره وتبشر به	٦٥٧ رواية
٢ - إنه من اهل بيت النبي (ص)	٣٨٩ رواية
٣ - انه (ع) من ابناء الإمام علي (ع)	٢١٤ رواية
٤ - انه (ع) من ابناء فاطمة (س)	١٩٢ رواية
٥ - انه (ع) الأبن التاسع للإمام الحسين (ع)	١٤٨ رواية
٦ - انه (ع) من ابناء الامام زين العابدين (ع)	١٨٥ رواية
٧ - انه (ع) من ابناء الإمام الحسن العسكري (ع)	١٤٦ رواية
٨ - تحدث عنه اجداد الإمام حسن العسكري (ع)	١٤٧ رواية
٩ - يملأ الأرض عدلاً	١٣٢ رواية
١٠ - غيبتُهُ (ع) طويلة	٩١ رواية
١١ - له (ع) عمر طويل	٣١٨ رواية
١٢ - ينتشر الدينُ الاسلامي في كل العالم بواسطتِهِ	٤٧ رواية

١٣ ـ انه الامام الثاني عشر وآخر الأئمة (ع) ١٣٦ رواية
١٤ ـ الروايات التي تحدث عن ولادتِه ٢١٤ رواية

وردت مجموعة الأحاديث والروايات هذه في الكتبِ الاسلاميةِ الأصيلة، حتى اخذ الموضوع صورتَهُ الثابتة[١].

* * *

(١) أخذت هذه الأرقام والاحصائيات من كتاب (منتخب الأثر).

لماذا لم يذكر اسم الإمام القائم (عج) في القرآن الكريم؟

لإزالـةِ أي نـوع من انـواع الغمـوض كـان من الـواجب ذكـرُ اسم الإمـام القائم (عج) في القرآن الكريم، ولكن لم يحدث ذلك، لماذا؟

الجواب:

إن طريقة السؤال تدل علىٰ أن معرفة اولياء الله تعالىٰ الذين يجب أن يتبعهم ابناء الأمة، لها طريقة واحدة هي أن تُذكر أسماؤهم في الكتاب السماوي، بينما لو راجعنا القرآن الكريم لوجدناه يسلك ثلاث طرق لمعرفةِ الشخصيات الإلهية، وفي كل طريقة يتبع اسلوباً خاصاً طبقاً لأغراضٍ معينة:

١ ـ المعرفة بالأسم: عُرِفَ النبي الكريم (ص) عن طريق الأسم في الإنجيل للأجيال القادمة: ﴿. . **ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾[١].

والله سبحانه وتعالىٰ يخاطب أنبيـاءه أحيانـاً بالإسم، مثـلاً:

ـ ﴿**يا داود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض**. . ﴾[٢].

والقرآن الكريم يذكرُ نبي الاسلام (ص) في بعض المواضع بالإسم، مثلاً:

ـ ﴿**وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾[٣].

٢ ـ المعرفة بالعدد: الطريقة الأخرىٰ في القرآن الكريم هي التعريف بالعدد، ولذا فقد عُرِّفَ نقباءُ بني اسرائيل بالعدد:

---

(١) سورة الصف الآية (٦).

(٢) سورة (ص) الآية (٢٦).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٤٤).

- ﴿ولقد أخذَ الله ميثاقَ بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾[1].

ويختار موسىٰ (ع) مجموعةً ليصعدوا الجبل، عُرِّفوا في القرآن الكريم:

- ﴿واختار موسىٰ قومَهُ سبعين رجلًا لميقاتِنا﴾[2].

٣ ـ المعرفة بالصفة: الطريقة الأخرىٰ للتعرف علىٰ الشخصيـة الإلهية هي المعرفة بالصفة، كما عُرِّفَ النبي (ص) في الأنجيل والتوراة بالصفات اضافةً إلىٰ الأسم، ويؤكد القرآن الكريم ذلك وسنأتي بنماذج:

- **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . .﴾**[3].

في هذه الآية عُرِّفَ النبي (ص) بالصفات العشر، ويستفادُ من سياق الآية أن الرسول (ص) قد عُرِّفَ في هذين الكتابَيْن ـ التوراة والأنجيل ـ بجميع او اكثر هذه الصفات، ومَفادُ جملة: **﴿مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** هو أن هذه الصفات والخصوصيات موجودة في التوراة والإنجيل.

ويُعـرِّفَ الله سبحانـه وتعالىٰ في القـرآن الكريم الـذين يجب أن يـطيعهم المسلمـون بصفاتِ (أُولي الأمـر): **﴿واطيعوا الله واطيعـوا الرسـولَ وأُولي الأمر منكم﴾**.

بعد موسىٰ (ع) انتخب رجلٌ من بني اسرائيل، فقال له الناس: «أجعل لنا قائداً لنجاهدَ في سبيل الله تحت لوائِهِ». فآستجابَ الله تعالىٰ لهم، فعرّفَ القائدَ بـالإسم وبالصفة ـ (لإزالةِ اي تشابه ممكن) وعن طريقِ نبيه اخبرهم سبحانه وتعالى بانه قد عيّنَ طالوت كقائدٍ عليهم.

---

(١) سورة المائدة الآية (١٢).

(٢) سورة الأعراف الآية (١٥٥).

(٣) سورة الأعراف (١٥٧).

- **﴿.. إن آية ملكه أن يأتيكم التابوتُ فيه سكينة من ربكم وبقية مما تركَ آل موسىٰ وآل هارون تحمله الملائكة﴾**[1].

إن الهدفَ من نقل هذه الآيات هو لكي نعلم أن المعرفة بالصفات هي إحدىٰ الطرق الصحيحة، ولكن احياناً تكون المعرفة بالصفاتِ مرافقةً مع ذكر الأسم، مثل آية طالوت، واحياناً يُكتفىٰ بذكر الصفاتِ فقط: **﴿.. فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة علىٰ المؤمنين أعزة علىٰ الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾**[2].

النتيجة أنه اذا لم يُذكر اسم المهدي (ع) في القرآن الكريم فإن صفات وخصوصيات حكومتِه مذكورة فيه.

والحقيقة ان القرآن يأخذ بنظر الاعتبار المصالح العليا للأفراد، واحياناً تستوجب المصالحُ أن يُعرَّفَ الأشخاصُ بالأسم، واحياناً بالصفات، كما هو الحال مع ذكر المهدي (ع) لأنه:

اولاً: أن تأسيس مثل هذه الحكومة ذُكِرَ بصراحةٍ، واحياناً بالإشارة، في القرآن الكريم، كالآيات الواردة في سورتي التوبة والصف المبشرة بإتساع وانتشار الاسلام في العالم: **﴿ليظهره على الدين كله﴾** إشارة لتأسيس هذه الحكومة، لأنه طبقاً لتصريح المفسرين أن هذه الآية تنبيء بالانتشار الكامل للاسلام في العالم، الذي لم يتحقق لحد الآن، وجاءَ في الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء:

- **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعدِ الذكر أن الأرضَ يرثها عبادي الصالحون﴾**

إن هذه الآية بشارة بأن الصالحين سيكونون ورثة الأرض وسيمسكون بزمام الحكم. وهذا الوعد الإلهي لم يتحقق لحد الآن.

ثانياً: إن عدم ذكر اسم الامام صاحب الزمان (عج) إنما من أجلِ مصلحةٍ لا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٨.

(٢) سورة المائدة الآية (٥٤).

تُخفىٰ علىٰ العلماءِ أهلِ الفضل، لأنه كما لم يذكر اسم الامام علي (ع) فإن اسم المهدي (ع) لم يذكر أيضاً، ولو ذُكرتَ اسماء هؤلاء الأئمة (ع) لبرزت الاحقاد القديمة لمعارك (بدر) و (أُحُد) و (حُنَين) مرةً اخرىٰ، ولذا طرح القرآن الموضوعَ ككل قائلاً: ﴿إن الأرضَ يرثها عبادي الصالحون﴾ وذكر اسماء الماضين مثل؛ لقمان، وذي القرنين لا يُقاسُ بأشخاص المستقبل، إذ لا تتحرك الأحقادُ ضد الماضين، ولا يستفيد من ذلك اللاهثون وراء الشهرة ونَهّازو الفرص، وذكرُ اسماء اشخاص المستقبل له هذا المحظور.

هل تعتقدون أن ذكر الإسم سيكون كافياً؟

ألا تعتقدون انه لو ذُكر اسم صاحب الزمان (ع) في القرآن الكريم سيقوم نَهّازو الفرص والمحتالون باستغلال ذلك، او ينكرُهُ بعض الناس لاغراضهم الخاصة؟!

إن تجربة التاريخ تدل إنه لو ذُكر اسم صاحب الزمان (ع) صراحةً لقام الدجّالون عبر التاريخ بأدعاء المهدوية، ولَتَسَمَّوْ باسمِ صاحب الزمان ليصطادوا في الماء العكر. ألم يذكر الله تعالىٰ اسمَ النبي (ص) في الإنجيل؟! ولكن مجموعة عنود استغلت هذا الأمر بدناءة، جاءَ في القرآن الكريم: **﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾**[1].

وعليه فإن المهم هو بيان الخصوصيات الأخرىٰ لصاحب الزمان (ع) التي يَعرفُ الأشخاصُ الواعون، من خلالها، المهدي الحقيقي عن مدّعي المهدوية الكاذبين.

توجد بعض هذه الخصوصيات في القرآن الكريم، والبعض الآخر في الأخبار والروايات.

---

(١) سورة الصف الآية (٦).

لماذا اختفىٰ الامام صاحب الزمان عن انظارنا؟

مع كل هذه الرغبة الموجودة لدىٰ محبي وتابعي الامام صاحب الزمان (عج) لماذا لا يزالُ عليه السلام مختفياً وغائباً عن الأنظار؟!

الجواب:

إن قانون العرض والطلب يقتضي أن يكون الطلب متناسباً مع العرض، لأنه في غير هذه الصورة يختل نظام الحياة والتعادل، ويظهر في النتيجة الاضطراب والفوضىٰ.

وكما نعلم، فإن الأئمة (ع) كانوا لسنواتٍ بين الناس المسلمين يدعونهم إلىٰ الطريق المستقيم ودين الحق.

يعترف الصديق والعدو أن ائمة آل البيت، أي الائمة الطاهرين عليهم السلام، من أمير المؤمنين الامام علي وحتىٰ الامام الحسن العسكري (ع) كانوا يمتلكون ابرز الصفات الانسانية والفضائل الاسلامية السامية وكانوا من افضل افراد الأمة الاسلامية في عصرهم، ومع ذلك وبشهادةِ التاريخ فإنهم طيلة قرنينَ ونصف بعد رحيل خاتم الأنبياء (ص) كانوا بعيدين او أبعدوا عن الساحةِ السياسيةِ الاسلامية، لدرجة انهم ما أن كانوا يقومون بإرشاد الناس الغافلين حتىٰ كانوا يواجهون بالاضطهاد والسجن والقتل، وهذا الموضوع واضح لدرجة نحن في غنىٰ عن اي توضيح اكثر.

إن الله سبحانه وتعالىٰ بعث الى العالم احد عشر رجلاً فذّاً لا نظير لهم كانوا أليق خَلَفٍ لرسول الاسلام (ص)، بهدفِ قيادة المجتمع الإنساني، ولكن لم يكن هذا العرض متناسباً مع الطلب، ولهذا السبب من الافضل أن يغيب آخر شخص

منهم عن الانظار لمدة طويلة، ليظهر لدىٰ الناس حس الطلب لمثل هذا الإمام العالي القدر، وفي ذلك الزمن الذي تكون فيه الأرضية ممهدة فإن الله تبارك وتعالىٰ سيبعثه ويجعله بين طالبيه.

إن الشيء الملفت للنظر أن اكثر الروايات تتحدث عن (انتظار الفرج) واستعداد الناس لاستقبال ظهور الامام صاحب الزمان (عج) بلهفةٍ. إن موضوع (انتظار الفرج) لصاحب الزمان (عج) لا يعدو أن يكون ذلك الطلب العام لذلك العرض لوجودهِ المقدس.

ثم انه وكما نقرأ في تاريخ المذاهب والكتب السماوية، خاصة القرآن الكريم الذي هو افضل وثيقة حية تاريخية ودينية لم تطله يدُ التحريف، أن جميع الأنبياء الذين ارسلهم الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ البشر عبر التاريخ لهداية الناس، تواجهوا، اثناء اداء عملهم المقدس، بردود فعل شديدة من الناس المتعصبين الغارقين في الجهل دون أن يهتموا بالهدف السامي والرسالة الإنسانية للانبياء فيقوم بالتعرض لهم وأذاهم والاستهزاء بهؤلاء الأنبياء والقادة السماويين الكبار، لدرجة أن اعظمهم وهو النبي الأعظم والأكرم (ص) قال مراراً (لم يؤذ نبي من قومِهِ كما أُوذيت).

إن استمرار هذا الاصطدام أدت نتائجها بالتالي الى سجن ونفي وأذىٰ الأنبياء (ع) واكثرهم فقد حياتهم العزيزة في هذا السبيل المحفوف بالأخطار، ورغم ذلك، فإن الله الرحيم ولإتمام حجتهِ لم يبخل بنعمةِ وجودهم عن عباده، وقد استمر هذا العطاء، ولكن سوء تصرف الناس وردود فعلهم السيئة تجاوزت الحدود، ووصل الأمرُ لدرجة اصبح من الضروري أن يرىٰ الإنسانُ ردود فعلهِ الدالة علىٰ التمرد والمواجهة وإتّباع الهوىٰ، وبعبارة أوضح أن يدَفع ثمن ما اقترفَه.

طريقة العمل كانت متشابهة في جميع المراحل، او بالأحرىٰ أن سلسلة الأنبياء والأئمة الطاهرين، علىٰ اجمعهم صلوات الله وسلامه، كانوا يسيرون نحو هدفٍ واحد، وبرنامج واحد، والشيء العجيب أن جميع ردود الفعل كانت واحدة.

مع أخذ كل ذلك بنظر الاعتبار يجب القول: دعوا الانسان المغرور،

المتمرد، أن يتذكر الماضي، مع الغيبةِ الطويلة لآخر مبعوثي الله تبارك وتعالىٰ، ويكتشف سبب عدم العثور علىٰ ذلك العزيز اثناء ردود فعلِه. وعندما يتهيء الوقت المناسب من جميع الجهات، وتصبح اوضاع الدنيا مساعِدة لذلك، وَدَبَّ اليأس في قلوبِ جميع الناس، وطلبوا، من أعماق قلوبهم، من الله المنان قائداً، فإن الله سبحانه يظهر منجي العالم لاصلاح الدنيا إصلاحاً اساسياً، ولتبدأ عملية إنقاذ الناس من المظالم والتعاسة واعادة بناء ما دُمِّر والذي حَدَثَ في غياب ذلك الإمام العالمي العظيم الذي سينهي جميع مصائب وآلام الانسان ليعيش العالم بأجمعه في سلامٍ وصفاءٍ وهدوء كامل.

هذا الموضوع يُشاهَدُ في بعض الروايات، ويروي الشيخ الصدوق العالِمُ الكبير في كتاب (علل الشرائع) ان الإمام محمد الباقر (ع) قال في جواب مروان الأنباري عن سببِ غَيبة (صاحب الأمر) صلواتُ الله عليه:

ـ «إن الله إذا كره لنا جوار قوم نزعنا من بين أظهرهم»[1].

دعوا الضمائر تستيقظ: نحن نعلم أن حياة الإنسان ترتبط بعواطفِه وغرائزه، وهذه العواطف والغرائز اذا سارت في الطريق الصحيح، فإن الإنسان سيكون حتماً علىٰ طريق السعادة والطريق الصحيح للحياة، ونعبر نحن عن ذلك بانه الايمان بالله تعالى والتعاليم السماوية، ولكن إذا انحرف عن الطريق الصحيح إلى الطريق الخاطىء المضر، فإن الإنسان والمجتمع يتعرضان للمخاطراتِ والمشاكل. إن هيجان العواطف وتمرد الغرائز يسوقان نظام الحياة إلىٰ الفوضىٰ، والمجتمعَ الإنساني إلى الاضطراب والفساد والدمار.

إن الحكمة من إرسال الانبياء والأئمة المعصومين من قبل الله سبحانه وتعالى

(١) علل الشرائع ص ٢٤٤ (حديث ٢).

لا تعدو ان هؤلاء الرجال العظام كانوا يريدون بتعاليمهم كبح العواطف والغرائز وجعلها في وضعٍ متعادل، لتسير هذه الرغبات القلبية في المجرى الصحيح وبالمقدار اللازم والمعقول ليعيش الإنسان في ظلّها بأمن وهدوء. ولكن الإنسان يتعرض دائماً لطغيان العواطف والغرائز، وفي نزاعٍ مع الضمير السليم، ولذا ليس من السهولة أن يطيع ويستسلم لتعاليم الأنبياء والقادة الدينيين، هذه التعاليم التي هي بنفعِهِ ولصالحِهِ تماماً.

إن ردود فعل الإنسان امام التبليغات والنصائح الخيّرة للأنبياء والأئمة، هي طغيان تلك العواطف وتمرد تلك الغرائز التي، في النهاية، يدفعها الضمير اليقظ والعقل السليم ويُبعدها الحكمُ الصحيح وتشخيص القبيح من الجميل، والباطل من الحق.

ولهذا السبب كان الأنبياء يرون مع ما يبذلونه من مساعي في سبيل هداية البشر، أن الضمائر النائمة لن تستيقظ من طغيان العواطف وتمرد الغرائز، ولا ينصاعون لتعاليمهم، ولذا رأوا أن الحل الأخير هو أن يتركوا مجتمعهم لحالهِ ويخرجوا منه لمدة من الزمن، لعل هؤلاء الناس المتمردين الغارقين في الأهواء يعيدو لنا النظر في مصيرهم، وهم يعيشون الوحدة دون قيادة صحيحة، وذلك في فرصةٍ وظرفٍ مناسب فتستيقظ ضمائرهم من السبات التي هي فيه ويدركون الاهداف النورانية للأنبياء ومدرستهم الإلهية السامية.

نقرأ في القرآن الكريم إنه عندما يئس ابراهيم الخليل، بطل التوحيد (ع) من تعليم قومِهِ الوثنيين، وجوبه بتهديدهم وردود فعلهم الشديدة قال:

ـ ﴿**واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي . .**﴾[1].

خرج ابراهيم (ع) لهذا السبب من بين الكلدانيين، ورحل إلى مدينة (حرّان) في الشام، وكان اهلها من المشركين ايضاً، يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وقام

---

(١) سورة مريم الآية (٤٨).

ابراهيم (ع) بإيقاظ ضمائرهم بالمنطقِ الإلهي، وعرّفهم الإيمانَ بالله الواحد الأحد وقال:

- **﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما انا من المشركين﴾** [١].

ومن هناك توجّه إلى فلسطين، وكما نطالع في التاريخ فإننا نجد أن القومَ في هاتين المدينتين عادوا إلى ما كانوا عليه بعد أن تركهم ابراهيم (ع)، ولكن تذكر عددٌ منهم التعاليم القيمة للنبي ابراهيم (ع) فبقوا علىٰ الايمان بالله في غياب ابراهيم وكذلك نقرأ في سورة يونس أن نبي الله يونس (ع) عندما وجدَ قومه يرفضون دعوته إلى دين الله هدّدهم بأن كفرهم هذا سوف لن يبقى دون عقاب، وأن عذاب الله سيصل إليهم نتيجة تمردهم وكفرهم، وعندما لم يعيروا تهديدَ النبي يونس إلتفاتاً تركهم فيما هم فيه.

ومع ذهاب واختفاء يونس (ع) وظهور علامات العذاب، استيقظت ضمائرُ بعضِهم وتذكروا تعاليمه فتابوا، ولذا لم ينزل بهم عذاب الله تعالى.

والآن نقول: إن الله سبحانه وتعالى ارسل قادةً عظاماً خلال عشرات القرون لهداية الناس وايقاظ ضمائرهم ولتعادل عواطفهم وغرائزهم. ولكن الناس المغرورين لم يكفوا عن غرورهم وغيهم، وإذا ابدوا شيئاً من الموافقة فإن ذلك لا يُقاسُ بما قام به الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ولذا دعوا الموقِظَ الأخير لضمائر البشر - المهدي الموعود - صلوات الله عليه يبقىٰ بعيداً مدة طويلة عن البشر، ليكتسبوا في غيبتِهِ استعداداً ويتهيؤا، وحتىٰ ما وصلوا إلى الحد الذي يكفي لظهورِهِ (ع) ظَهَر، وملأ العالم عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

---

(١) سورة الأنعام الآية (٧٩).

يمتحن الناس في غيبة الامام (ع):

احد الاسباب الأخرىٰ لغيبة الامام صاحب الزمان (ع) هو: لو أن هذا الامام الجليل كان ظاهراً كآبائِهِ العظام وبين الناس لما عُرِفَ الصديقُ من العدو، ولكن غيبته تُظهر الصديق الحقيقي والعدو الواقعي، ومقدارَ صداقتهم وعدائِهم، وقد وصلنا هذا المعنى ضمن الكثير من الروايات الشيعية المعتبرة، ونقرأ قسماً منها في كتب (غيبة النعماني) و (غيبة الشيخ الطوسي).

جاءَ في (منتخب الأثر) الباب ٤٧، الحديث ٥، الصفحة ٣١٥ عن الإمام الباقر عليه السلام أن غيبة الامام القائم (عج) تطول حتىٰ يُمتحنَ الناسُ تماماً، وتزول الخطيئة وتبقىٰ الطهارة. كما أن الإمام الصادق عليه السلام يقول في الصفحة ٣١٤ من الكتاب المذكور ما معناه (إن القائم الموعود لن يعود إليكم، حتىٰ ييئس الناس، لطول الغيبة، كلا، والله إنه لن يعود حتىٰ ينفصل الخبيث من الطيب. كلا، والله إنه لن يعود حتىٰ تتطهروا، كلا، والله انه لن يعود حتىٰ يُعرفَ الشقيُّ من المحظوظ).

يجب أن يحفظ آخر مبعوث لله تعالى: النقطة الأخرىٰ التي تلاحظُ كثيراً في الروايات عن (المهدي الموعود) (ع) هي عندما علم الأعداء لأهل البيت (ع) أن للإمام الحادي عشر طفلاً صغيراً عزموا على قتلِه فأنقذه الله تعالىٰ منهم، وممن الممكن أن يُقال: كان خلفاء بني العباس اعداءً له ولكن لِمَ لَمْ يظهر في العهود التالية؟!

نقول: وهل اختلفت افكار مخالفي آل البيت عنهم الآن؟ ومن المؤكد انه لو ظهر اليوم فإن اكثر المسلمين يخالفونه لأنه إمام للشيعة ومن بيت النبي (ص) ولكان الخطر عليه اشد ممّا كان في العهد العباسي. ثم لماذا لم يُخفِ الله سبحانه آباء الإمام صاحب الزمان؟ للجواب علىٰ هذا السؤال نقول: إن آباء الإمام كانوا بين الناس فلو قتل احدهم لكان هناك آخر، ولكن جميع المسلمين يقولون (لقد أقتضت المشيئة الإلهية أن يكون المهدي الموعود هو آخر مبعوثي الله سبحانه وتعالىٰ).

ولذا وَجَبَ أن يحفظه الله من كل خطر لكي ينتشر العدل في العالم بواسطته، وقد كتب الفيلسوف الكبير الشيخ نصير الدين الطوسي العبارة القصيرة التالية التي تتناسب مع بحثنا:

«وجودُهُ لطفٌ وتصرفُهُ لطفٌ آخر وعَدَمُهُ منا».

ظهور صاحب الزمان وانتشار الفساد:

إذا كان انتشار الفساد سبباً لثورةِ الإمام المهدي (عج) فلماذا لا نسعىٰ لتوسيع ذلك؟!

إحدىٰ علامات بدء ثورة المهدي صاحب الزمان (ع) انتشار الظلم والجور في العالم، ويمكن اثبات ذلك عن طريقين:

اولاً: إن النبي الأكرم (ص) اعتبر انتشار الظلم والجور علامة لبدء الثورة، وقد جاء في الأحاديث التي نقلها المحدثون المسلمون أن النبي (ص) قال: «**يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**».

يقول اصحاب القواميس العرب: إن الاعتداء على حقوق الآخرين (ظلمٌ) ودعم اركان الدولة عن طريق تسلّط مجموعة على حياة واموال الناس واشاعة التفرقة (جورٌ). وإذا كان هذان التفسيران صحيحين لهذين اللفظين، فلا بد أن يكون (القسط) مقابل (الظلم)، و(العدل) مقابل (الجور). وعليه فإن انتشار الفساد، من وجهة نظر الاحاديث الاسلامية، أحد علامات ثورة المهدي (ع).

ثانياً: إذا زاد الضغط والقمع عن الحد فإنهما يؤديان إلى الأنفجار، والانفجارات الاجتماعية تشبه الانفجارات الميكانيكية، حيث أن الانفجار يحدث في درجةٍ معينة. والحقيقة أن انتشار الفساد من قبل الحكام المستبدين يُقَرِّبُ الثورة، حتىٰ تصل الأزمة إلىٰ أوجها وتحدث الثورة.

وبملاحظة النقطتين اعلاه، يُطرحُ هذا السؤال:

ـ اذا كان الفساد والازمات سبباً لوقوع الثورات الأصيلة، إذن واجباتنا في زمن غيبة الامام (ع) هي نشر الفساد، وإلاّ فإننا فإننا سنكون سبباً لتأخير الثورة الإلهية ونشعر بإننا نعيش حياة غير مطلوبة.

إن أي نوع من الاصلاح، وتربية الأشخاص بدرجات كبيرة أو صغيرة، وبذل الجهود لتقليل الفساد والظلم، خطوةٌ نحو دعم اعمدة الأنظمة الظالمة التي تفتح هذا الباب المطمئن للاستمرار في حياتِها المخزية وتسيطر على أموال وحياة الأفراد.

إنني اتذكر، قبل مراحل انفجار الثورة الاسلامية، كان بعض الشباب المتطرفين، ولكن بسطاء، وقعوا تحت تأثير الافكار المادية وانجرفوا نحو المجموعات اليسارية، وكانوا ينتقدون المساعي والجهود الكبيرة لبعض الخطباء والكتّاب ورجال الخير في البلاد ويقولون لهم: إنكم بالاصلاحات الصغيرة هذه تقللون من ضغط جهاز الحكومة مما يؤخر ثورة الشعب، ولذا وعوضاً عن تأسيس المراكز الصحية والثقافية والشؤون الاصلاحية الأخرىٰ اعملوا علىٰ نشر الفساد ليحدث الأنفجار ويخلص الشعب من الشر والظلم والإستبداد الحاكم.

الجواب:

والآن سنقوم بتحليل هذا الاشكال الذي وقع فيه شبابنا، ولدينا هنا جوابان، بامكان كل منهما أن يُزيل الإشكال:

١ ـ انتشار الفساد ليس كافياً بل يحتاجُ الأمرُ إلى الوعي:

إن اساس الإشكالِ موضوعٌ واحد وهو أن يُتصوّر أنَّ انتشار الفساد وتصاعد الأزمة يكفيان لحدوث الثورة، بينما إلى جانب انتشار الفساد يجب وجود شرط اساس آخر لا تحدث الثورة بدونه، وهذا الشرط هو؛ استعداد الناس، عن طريق رفع مستوىٰ الوعي لدىٰ جميع الطبقات.

والمقصود من رفع مستوىٰ الوعي هو أن يشعرِ الأشخاص بموقعِهِم وقيمة وجودهم، وأن يعتبروا تحمل الظلم والفساد حياةً مُخزية مميتة لا تليق بالإنسان، ثم

يقوموا بعد ذلك بتقييم ظروفهم وامكانياتهم، وظلم وقوة الطاغوت، ويبذروا بذور الثورة في أرض مستعدة، ويجتهدوا في اروائها.

والجدير بالذكر أنه إذا لم يحصل مثل هذا الوعي، ولم يدرك الاشخاص قيمة وجودهم، ولم يتعرفوا على امكانياتِهم وامكانيات عدوهم، فإن الثورة ستكون ثورةً عمياء لا تضمن مصالح الشعب.

وبعبارة أوضح؛ لحصول ثورة لا يكفي انتشار الفساد ووجود قائد كفوء وإنما اضافة إلى ذلك يجب توفر الروحية المعنوية والفكر اللازم التي تجعل الشعب يدفع الثمن المناسب، بالإيثار والشهادة في سبيل الهدف، لتحقيق الثورة، وإلّا دَبَّ الإرتخاء والضعف والإكتفاء بالوضع الموجود في المجتمع، وأبتعدت فكرة الثورة عن الأذهان. ثم تشيع مثل هذه العبارات؛ بين الناس، (موسىٰ بدينهِ) و(عيسىٰ بدينه) و(ليهتم كل بنفسِه) و(مالي وللآخرين)، ويفضّل كل واحد راحةَ نفسِهِ علىٰ الانتفاضة والثورة والسجن والتعذيب والقتل والاعدام.

ويجب أن نعرف ان الفساد منذ مدة طويلة قد انتشر في العالم، وقد وصل الفساد في القدرات في كثير من مناطق العالم، وخاصة افريقيا وآسيا، إلى ذروتهِ، ومنذ اليوم الذي نبتت لدىٰ الغرب فكرةُ السيطرة علىٰ الشرق، زاد الغربُ مظالمه في النقاط المختلفة من العالم واستعبد الملايين، ودراسةُ الأوضاعِ في الدولِ المستعمرة في افريقيا وجنوب آسيا وثيقةٌ دافعةٌ لهذا الموضوع.

٢ ـ إعداد قوة للمنتظر:

يلزم لتحقيق ثورة المهدي (ع) إعداد جيش وقوة ضاربة تدعم الإمامَ عليه السلام وتطيع أوامره، ولذا يجب تربية وإعداد اشخاص مضحين داخل جهنم الظلم والفساد والتفرقة، ليكونوا رُسُلَ العدالة، وهذه المجموعة يجب أن تتسلح بقوىٰ الإيمان والتقوىٰ، ويكونوا فدائيين مضحين، إن إعداد مثل هؤلاء الأشخاص ولا يغفلون عن ذلك ابداً.

ولذا لا يمكن أن يخلي الإنسان عاتقه من مسؤولية انجاز الاعمال الاسلامية

التي تؤدي إلى إعداد مثل هؤلاء الأشخاص بحجة واهية هي أن نشر الفساد هو سبب الإنفجار والثورة.

بالاضافة إلى كل ذلك، علينا قبل كل شيء أن نُشَخِّص موقعنا من ثورة المهدي عجل الله تعالى فرجه، ومن البديهي إننا اذا عملنا على نشر الفساد فإننا سنكون ضمن من ستعملُ ثورةُ المهدي (عج) على ضربِهم، واذا كنا ضمن مصلحي المجتمع فإننا سنكون من بين اصحابِهِ (ع) المضحين، ولو افترضنا اننا ساعدنا على نشر الفساد للتسريع بظهور المهدي صلوات الله تعالى عليه فإننا نكون قد وقعنا في موقفٍ خطر. ثم أليس أن بقية الله (عج) يثور لقمع الفاسدين وازالة الظلم والجور؟ إذن كيف نستطيع بنشر الفساد أن نكون من المستفيدين من ثورته؟!

وعليه فإن السكوت على الفساد او المساعدة علىٰ نشره لا يصح كلياً بالنسبةِ لظهور المهدي الموعود (عج)، ولا شخصياً.

ويظهر ان هذا الإشكال والمغالطة إنما هي من صنع الاشخاص الذين يتهربون من المسؤولية او الملوثين بالفساد.

والخلاصة، أن نشر الفساد والظلم، اذا كان يؤدي إلى قبول الظلم، فإنه لن يكون ابداً تمهيداً للثورة عليه، وإنما يكون ذلك مفيداً عندما يكون مقدمة للجهاد في سبيل تحقيق العدالة والصلاح، ومن البديهي أن هذه المقدمة لن تكون عملية إلّا عندما يحس الناسُ بسوء الظلم، ثم يعرفون قبال ذلك مظاهر الصلاح والتقوىٰ الشخصي والاجتماعي ايضاً. والطريقة الوحيدة لذلك دعوة الناس نحو الصلاح والتقوىٰ.

من جهة اخرى فإن أحاديث الرسول الأكرم (ص) والائمة الاطهار (ع) قد عيّنت واجبات المنتظرين، وكلها احاديث عن التقوىٰ والورع والعفاف والصلاح والسداد، والابتعاد عن الخطيئة والتقرّب إلى الله تعالىٰ، وكمثال قال الإمام الصادق (ع):

ـ «من سَرّه أن يكون من اصحاب القائم فلينتظر وليعمل بالورع ومحاسنِ

الاخلاق وهو منتظر. فإن مات وقام القائم بعده، كان له من الأجرِ مثل أجر من ادركه، فجدّوا وانتظروا هنيئاً لكم ايتها العصابة المرحومة»[1].

علماؤنا السابقون كتبوا رسائل مستقلة عن واجبات وتكاليف المنتظرين في زمن الغيبة، وربما كتبوا فصولاً من كتبِهم الخاصة بذلك، مثل (النجم الثاقب) تأليف المرحوم الحاج ميرزا حسين نوري (المتوفى عام ١٣٢٧ هـ) وكتاب (مكيال المكارم) تأليف المرحوم الميرزا محمد تقي الموسوي الاصفهاني (المتوفىٰ عام ١٣٤٨ هـ)، وكتابه (واجبات الناس في زمن غيبة الامام صاحب الزمان (ع)).

في هذه الكتب واشباهها المكتوبة على اساس الروايات المنقولة عن الأئمة المعصومين (ع) لم يذكر ابداً كلامٌ عن (ملأ الدنيا بالظلم) كواجب من واجبات المنتظرين في زمن الغيبة.

في الحقيقة لا يوجد عاقل له معرفة بأبسط احاديث المعصومين يعتقد بذلك، إلّا اذا كان من زمرة اليساريين ذوي الآراء الغريبة الذين يتمسكون بذلك بهدف قمع بعض الفئات والمجموعات.

* * *

(١) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ١٤٠

دورُ الانتظار في إعادة بناء المجتمع الاسلامي

نعلم جميعاً إن احد الواجبات المهمة للإمام هو الهداية والقيادة، ويتحقق ذلك عندما يكون الإمام بين الناس، فإذا كان غائباً عن الأنظار فكيف يمكنه القيامُ بهذا الواجب؟!

الجواب:

منذ أن غاب الإمامُ القائم (ع) عن الأنظار، وبدأ حياةَ الغيبة بدأت مجموعة كبيرة من الاسئلة تجول في اذهان الباحثين، ونوع هذه الاسئلة تشبه الاسئلة القديمة الموجودة في الكتبِ عن الإمام صاحب الزمان (ع) في القرنين الرابع والخامس الهجري، وقد أجاب عليها العلماء اجوبةً مناسبة.

(الشيخ الصدوق) هو أحد محدثي الشيعة الكبار الذي عاش في القرن الرابع الهجري وتوفي عام ٣٨١، وقد تحدث بالتفصيل في كتاب (كمال الدين) عن القضايا المتعلقة بالغيبة، ليس (الصدوق) فقط بل هناك متحدث آخر اسمه (النعماني) - تلميذ ثقة الاسلام الكُليني المتوفى عام ٣٢٩ هـ - الذي كان يعيش في القرن الرابع، تحدث عن الغيبة في كتابه المسمىٰ (الغيبة)، وكذلك استاذ الشيعة المرحوم (الشيخ الطوسي)، ٣٨٥ - ٤٦٠ هـ، تحدث عن هذه المسألة في كتابه بتحليل، وهكذا فإن هذه الأسئلة عن الإمام صاحب الزمان (عج) ليست جديدة، بل ان عمرها يصل إلىٰ ألف سنة، طبعاً أجوبتها ايضاً ليست جديدة، ولها عمر الاسئلة نفسها، والفرقُ هو أن الأجوبة على إمتدادِ الزمن أخذت طابعاً خاصاً ينسجم مع مقتضيات الزمن.

من حملة الأسئلة الشائعة عن الامام صاحب الزمان صلوات الله عليه، مسألة

الفائدة من وجود الإمام الغائب، نعلم جميعاً إن الأثر البارز لوجود الإمام هو الهداية والقيادة. والآن يأتي هذا السؤال: كيف يستطيع إمامٌ غائبٌ أن يقوم بالهداية؟!. بعبارة أخرىٰ؛ مع ملاحظة أن القرآن الكريم يعتبر الهداية من خصوصيات الإمام، حيث يقول ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا.**﴾[1] فكيف يمكن توقع مثل هذا الواجب الثقيل من إمامٍ غائب؟!. وبعبارة أخرىٰ: بما أن الامام (ع) قائد وقدوة، والقائد يكون مفيداً عندما يكونُ على اتصالٍ دائمٍ مع اتباعِه، فكيف يستطيع امام غائب أن يؤدي دورَ القائد؟!

إن حياة الإمام (عج) في مرحلة الغيبة حياةٌ خاصة، وليست حياة اجتماعية في، دور قائد وإمام، في هذه الحالة لنا الحق أن نتساءل: ما هو الأثر العام لهذه الذخيرة الإلهية على الناس، وأية فائدة يمكن أن يستخلصها الناسُ من وجوده؟!

إنه كنبع ماء الحياة في الظلمات، ولا تصل يد أحد إليه.. فما المقصود من (الإمام الغائب)؟ فهل هو وجود بمعنىٰ (خيالي)؟

لا شك أن هذا السؤال مهم جداً، ولكنه من الخطأ أن نعتقد إنه لم يرد جواب عليه. ولكن اسمحوا لنا بالاجابة علىٰ الجملةِ الأخيرة التي أدّت إلى سوء فهم عددٍ من الناس، وبعد توضيحها سنتوجه إلى بقية الأسئلة.

يجب القول بصراحة: إن مفهوم غيبة الإمام (عج) كما اشرنا، لا يعني ابداً أن وجود الإمام (عج) في عصر الغيبة وجودٌ غير مرئي وخيالي، اكثر منه وجوداً عينياً.

انه، من كل النواحي، له حياة طبيعية وعينية وخارجية، دائم الوجود بين الناس ويعيش في نقاط مختلفة.

إن الاستثناء الموجود في حياتِه (ع) إنه يمتاز بعمر طويل فقط.

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٧٣).

إنه يعيش في المجتمع الانساني بشكل مجهول، ولم يرد خلافُ ذلك في أية رواية صحيحة. وكم هو الفرقُ بين (مجهول) و (غير مرئي)!

والآن وبعد زوال ذلك الإشكال او الإبهام نتوجه إلى الموضوع الذي يقول: حسناً، من الممكن أن تكون مثل هذه الحياة مفهومه لشخصٍ عادي، ولكن فيما يتعلق بقائد ـ خاصةً قائداً إلهياً ـ هل هو مفهوم ومقبول؟!

إننا هنا، ندرس هذه المسألة من الجوانب التالية:
١ ـ فائدة الاعتقاد بقائد، مهما كان مجهولاً، طبقاً للمحاسبات الاجتماعية.
٢ ـ الفوائد المختلفة للأمة الاسلامية من الإمام الغائب.
٣ ـ الحجج المخفيون والغائبون لله تبارك وتعالىٰ من وجهة نظر القرآن ونهج البلاغة.

١ ـ وجود القائد سبب لبقاء الرسالة:

تثبت المحاسبات العقلية والتجارب الاجتماعية بوضوح ان الاعتقاد بوجود قائد حي له اثر عميق في حفظ النظام وبقاء الرسالة، إن كان الوصول إلىٰ هذا القائد سهلاً أو صعباً. علىٰ اية حال فإن للاعتقاد بوجود قائد له فوائد. ولكن لا جدال بالنسبةِ لوجود القائد في داخل المجتمع ويتحمل عبء القيادة بصورةٍ مباشرة، والمهم أن يكون القائد لأسباب بعيداً عن المجتمع، ولكن هذا المجتمع يعتقد ويؤمن بحياة القائد وعودتِهِ مرةً اخرىٰ، في هذه الحالة فإن الاعتقاد بوجود مثل هذا القائد له اثر عظيم نشير فيما يلي إليه:

في التاريخ شعوب وأمم كانت لها انتفاضات وثورات، وهناك امثلة كثيرة تدل على ان القائد عندما يكون على قيد الحياة، حتىٰ وإن لم يتسلم القيادة، ولكنّ تشكيلات وتنظيمات تبقىٰ ظاهرة، ولكن ما أن يودع الحياة حتىٰ تتفرق التنظيمات وتتشتت وتصيبها الفوضىٰ. وأفضلُ مثال على أن وجود القائد هو حافظ الرسالة وسبب لتنظيم الأتباع، قصة معركة أحد، حيث ارتفع اثناء المعركة نداءٌ، إمّا عن خطأ او لغرضٍ: (ألا قد قُتل محمد)، ارتفع هذا النداء في وقت كان المسلمون مشغولين بمواجهة عدوانِ المهاجِمين، وعندما انتشر النبأ بين المسلمين بأن القائد

قد مات، حتى تشتت النظام لدرجة أن نرَّ كلُّ واحدٍ إلى جهة، تاركين المعركة، حتىٰ أن البعض فكّرَ في الإلتحاقِ بالأعداء.

وعندما كُذّب نبأ مقتل النبي (ص)، وايقن المسلمون بسلامةِ قائدهم، ورأى بعضهم النبي (ص) بأنفسِهم، اجتمع افراد الجيش المشتت مرةً اخرى خارجين من نقاط مختلفة من جبل أحد وألتفوا حول الرسول (ص) وبدأوا القتال والدفاع.

ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة بهذه الصورة:

- **﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفأن مات او قُتل انقلبتم علىٰ اعقابكم ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**[1].

في ميادين القتال يتركز جهد مجموعة من الجنود المضحين على بقاء العلم خفّاقاً امام هجمات الأعداء، بينما يسعىٰ جنود العدو دائماً إلىٰ اسقاط علم الطرف الآخر، لأن بقاء العلم يبعث الأمل في قلوب الجنود ويحثهم على بذل مساعيهم.

وكذلك أن وجود قائد الجيش في مقر القيادة، حتىٰ ولو كان ساكتاً ساكناً، فإنه يجعل الدم يجري في عروق الجنود ويدفعهم لبذل جهود اكثر بأن (قائدنا حي ورايتنا خفاقة)، ولكن عندما ينتشر نبأ مقتل القائد بين افراد الجيش فإن هذا الجيش وإن كان عظيماً فإنه يتلاشىٰ مرةً واحدة، وكأن ماءً بارداً قد صُبَّ على رؤوس افرادِه، او كأن الروح قد فارقت أجسادهم.

إن رئيس جمعية او بلد، ما دام على قيد الحياة، إن كان في سفرٍ او طريح الفراش، فإنه سببٌ للحياة والحركة والنظام والهدوء. ولكن سماع نبأ وفاتهِ يبعث على اليأس والقنوط بالنسبةِ للجميع.

والشيعة، طبقاً لعقيدتهم بوجود الإمام (عج) حياً، رغم انهم لا يرونَه بينهم، لا يَرَوْنَ انفسهم وحيدين (تأملوا ذلك جيداً). إنهم دائماً ينتظرون عودة هذا العزيز المسافر - الذي ترف له قوافل القلوب - إن انتظاره المؤثر والمفيد يُعطي كل يوم أملاً بظهورِه.

---

(1) آل عمران (١٤٤).

إن الأثر النفسي لمثل فكـرة احياء الأمـل في القلوب ودفع النـاس لإعداد انفسهم لتلك الثورة الكبرىٰ، مفهومٌ ويُمكنُ اداركُه.

ولكن إذا لم يكن لهذا القائد وجود مطلقاً، وكان محبو رسالتِه ينتظرون ولادته في المستقبل، فإن الوضع يفرق كثيراً.

واذا اضفنا إلى هذا الموضوع شيئاً آخر، فإن الجواب يتخذ له شكلاً جدياً آخر وهو: إنه طبقاً لعقيـدة عموم الشيعـة ـ الواردة في الكثيـر من الروايـات من المصادر الدينيـة ـ ان الإمام (ع) بشكـل دائم واثناء مـرحلة الغيبة يـراقب اوضاع اتباعِه، وانه وفق إلهامٍ إلهي يطّلع على اوضاعِ جميعهم، أو بتعبير الروايات إنه يطّلع اسبوعياً علىٰ جدول اعمالهم وتصرفاتِهم واحاديثهم[1].

إن هذه الفكرة تؤدي إلىٰ أن يكون جميع اتباعها على استعداد تام ودائمي، ويتوجهون في اعمالهم إلى أن هناك (مشرف عالي). إن الأثر التربوي لمثل هذا النوع من التفكير لا يمكن انكاره.

والآن لنأخذ هذا المبدأ بالنسبةِ لصاحب الزمان (ع): أليس مؤثراً الاعتقـادُ بوجود امـام حي، حاضـر، ناظـر، مستعد، ومهيـأ للثورة في سبيـل حفظ وحدة المجتمـع والتنظيمـات، وخاصـة إعداد الاشخـاص للثـورة ضـد الـظلم والجـور والإستبداد والغرور؟!

حقاً لن ييأس ابناء شعب يعتقدون أن قائدهم علىٰ قيد الحياة وهـو يترقب دائمـاً الأمر الإلهي لكي يصـدر من وراء الحجاب، كمـا انهم لن يفقدوا وحـدة كلمتهم، ويسعون لحفظ الرسالة، ويهيئـون العدة والعـدد والمقدمـات في سبيل الهدف.

ولكن اذا قيـل لهؤلاء: «إنكم الآن بـلا قـائـد، وان قـائـدكم سيـأتي في

---

(١) كما في تفسير البرهان في ذيل الآية (١٠٥) من سورة التوبة: ﴿. .فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.

المستقبل، وهو غير معلوم اذا كان سيولد أحد، ليس فقط انه لم يولد بل إن اجداده ايضاً لم يولدوا بعد». فهل سيكون لهؤلاء روح الانتظار البنّاء والقوة اللازمة؟! وهل بمثل هذه العقيدة تنشط انظمتهم المادية والمعنوية؟ أم أن ذلك سيؤدي إلى التشتت بين الأفراد والدمار للرسالة؟!

لتوضيح اكثر اننا نقول حول دور الإمام الغائب في المجتمع والأفكار العقائدية:

- إن الايمان بالانتصار النهائي وانتظار مُصلح عالمي، لو وصل مرحلة المعرفة والإطِّلاع، فإنه سيكون مصدراً للتحرك والنهضة.

إن قائد حركة تطالب بالعدالة، ولو لم يكن بين اتباعِه، فإنه يستطيع أن يكون سبباً للوحدة ورص الصفوف بين الافراد الذي يعتقدون بثورتِه.

إننا نرىٰ في نهضة استقلال الهند، أنه بالرغم من أن الدولة الاستعمارية تقبض علىٰ (غاندي) وتسجنه إلّا أن مبدأ (عدم التعاون مع الدولة الاستعمارية) يستمر بشدة. فالشعب الهندي رغم انه لا يجد غاندي بين صفوفِه فإنه يستمر في نهضته، لأن (غاندي) كان ما يزال حياً وقدرته المعنوية توحد ابناء الشعب الهندي.

في الحرب الأهلية في اسبانيا، قبل الحرب الثانية، كانت الحرب مستمرة على كافة الجبهات في الوقتِ الذي كان فيه قادة الجمهوريين في سجون فرانكو، وعندما أُعدم عدد منهم هُزم جيش الجمهوريين.

وفي الحرب الثانية، اثناء حصار مدينة لينينغراد من قبل الجيش النازي كان البرد والقحط يحصدان يومياً الآلاف، كما كان الجوع يفتكُ بالناس، ولكن سكان لينينغراد كانوا يستمرون في المقاومة، وقد استمر الحصار اربع سنوات، وخلال هذه المدة كانت اذاعة (لينينغراد) تذيع بيانات لجنة المقاومة وتدعو الناس إلى الثبات. وفي الأيام الأخيرة للحصار كان اكثر من ثلثي اعضاء اللجنة قد ماتوا جوعاً، ولكن الاذاعة ودون أن تُعلنَ عن موتهم كانت تستمر على ذكر اسمائهم في ختام البيانات.

الطريف أنه بسبب انقطاع التيار الكهربائي انقطعت الاذاعة عن البث،

فاجتمع الناس حول مبنىٰ الإذاعة وهم يهتفون «لا نريد المؤن وإنما اعيدوا الإذاعة إلى العمل لكي نستمع إلى بيانات لجنة المقاومة».

إن هذه الوثـائق والشواهـد تدل على إنـه حتىٰ ولو لم يكن قـائد النهضـة والمقاومة بين الشعب فإن وجوده الواقعي يرفع من المستوىٰ المعنوي ويعطي أملاً وتحركاً.

واما حول لماذا لم يخلق الله تعالى الإمام في موقع الظهور فيجب القول: إنه لو كان كذلك لما كان هناك واقعٌ لانتظار ظهور مصلح، لأن الناس بامكانهم أن يكونوا في انتظار شخصٍ يعتقدون بكونِه حياً، ولا يمكن لأحدٍ أن يكون معتقداً إنه من المحتمل أن يأتي احد بعد عدة سنين يقوم بدور المنجي.

في خضم هذه الحياة المتلاطمة المملوءة بالاضطراب، حيث يستولي اليأسُ على الإنسان فينتخب (فلسفة العبث) طريقاً لحياتِه، كيف يمكن لابناء البشر أن يعتقدوا بوجود منجٍ سيولد بعد سنين؟! ثم هل أن الاعتقاد بوجود قائد سيولد فيما بعد يمكن أن يبلور الروح البنّاءة للإنتظار؟ إنه ضروري للإنسان أن يستلهم من فكرة وجود قائد حي، حتىٰ ولو كان غائباً، في معرفة دقائق الحياة ليتخذ طريقه نحـو التكامل.

٢ ـ الفوائد المختلفة للأمةِ الاسلامية من وجود الإمام الغائب:

وحان الآن الوقت لكي نتعرف على فائدة مهمة اخرىٰ من الفوائد التي تعود من الامام علىٰ الأمة. نحن نضع هذه العنوان تحت عنوان عـام (كالشمس وراء السحب)، وهذه الفوائد جميعها تعكس حقيقة هذا التشبيه.

في الأحـاديث المختلفة والعـديدة التي وصلتنـا عن حكمة وفـائـدة وجـود الامام (ع) في مرحلة الغيبة هناك تعبير ذو معنىٰ كبير في عبارةٍ قصيرة بامكانها أن تكون مفتاحاً لحل هذا اللغز الكبير، جاء ذلك في جواب للرسول الأكرم (ص) على سؤال حـول فائـدة وجود بقيـة الله الاعظم ارواحنـا فداه في عصـر الغيبـة حيث

قال (ص): «أي والذي بعثني بالنبوة إنهم لينتفعون به ويستضيئون بنور ولايته في غيبتِه كانتفاع الناس بالشمس وإنْ جَلَّلَها السحاب».

لفهم مفتاح اللغز هذا، اولاً يجب أن نفهم دور الشمس بشكل عام عندما تكون مُحتجَبة خلف السحاب.

للشمس نوعان من النور، نورٌ عيان، ونور خفي، او بتعبير آخر إشعاعٌ غير مستقيم.

في الاشعاع المستقيم، يمكن رؤية اشعة الشمس بوضوح، مهما يكن سُمْكُ الهواء المحيط بالأرض، حيث يكون بمثابة الزجاج السميك، زجاجٌ مخيف من حدة إشعاع الشمس ليكون محتملاً، كما يصفي نور الشمس ويُبطِلُ الإشعاعَ المميت، ومع ذلك لا يمنع إشعاع الشمس المستقيم. ولكن في الاشعاع غير المستقيم يكون السحاب كالزجاج المعتم الذي يحول دون الإشعاع المستقيم للشمس.

ندخل احياناً غرفةً تكون مضاءة بمصابيح ذات زجاج معتم، فنرىٰ الغرفة مضيئة، ولكننا لا نرىٰ الشعاعَ الأصلي والمستقيم.

من ناحية اخرىٰ يلعب ضوء الشمس دوراً مهماً في دنيا الحياة والموجودات فالضوء والحرارة المنبعثة من الشمس في كل مكان هما الطاقة الوحيدة التي تبعث الحياة في الإنسان والحيوان والنبات.

إن نمو الموجودات الحية، التغذية والتناسل، الحسّ والحركة، سقي الاراضي الموات، تلاطم امواج البحر، حركة الرياح، تساقط حبات المطر التي تبعث الحياة، وتساقط الثلوج، اصوات الشلالات، انغام الطيور، الجمال الباهر للأزهار، جريان الدم في العروق، وخفقان القلب، العبور السريع للأفكار عبر أستار المخ، الضحكة الحلوة من طفل رضيع.. كل ذلك بصورة مباشرة او غير مباشرة ترتبط بنور الشمس، وبدونه يُصيبها جميعاً الموت.. وهذا الموضوع يمكن ادراكه بقليل من التأمل..

والآن يطرح هذا السؤال نفسه: أليس جميع هذه البركات وآلاثار التي تبعث الحياة خاص بالزمن الذي يكون نور الشمس يسطع مباشرة؟

جواب هذا السؤال واضح: كلا، فالكثير من هذه الآثار موجودة في النور غير المباشر للشمس الذي يأتي من وراء السحاب. مثلاً في البلدانِ او المدن التي تكون سماؤها مغطاة بالسحاب لعدة أشهر في السنة، ولا تُرىٰ الشمسُ تكون الحرارة موجودة، وكذلك نمو الأعشاب والاشجار، وانتاج الطاقة الضرورية للحياة، ونضج الأثمار والفواكه، وتفتح الازهار والبراعم.

وعليه فإن إشعاع الشمس من خلف السحاب يحتوي على قسمٍ مهم من بركاتِ الشمس، وليس فقط قسماً من الآثار التي تحتاج إلى الإشعاع المباشر. مثلاً نحن نعلم أن اشعة الشمس لها أثرٌ حياتي خاص على جلد وبقية أجهزة جسم الإنسان والموجودات الحية، ولهذا السبب في البلدان التي تفتقر إلى اشعة الشمس نرىٰ الكثير من الناس يخرجون في الأيام المشمسة ليأخذوا (حمام شمس) فيعرضون اجسامهم العارية امام الاشعة التي تبعث الحياة فتمتص اجسامهم ذرات النور، هذه الهدية السماوية.

ولأشعة الشمس، بالإضافة الى الضوء والحرارة، أثر خاص لوجود الأشعة فوق البنفسجية التي تقتل انواع الميكروبات وتطهر البيئة، وهذا مالا يمكن حصوله في حالة وجود الإشعاع المعتم غير المباشر.

نستنتج من البحث السابق؛ إنه رغم أن طبقات السحاب تمنع بعض آثار الشمس، إلّا أن قسماً مهماً منها يبقىٰ موجوداً.

هذا هو حال (المشبّه به) أي الشمس، ونعود الآن إلىٰ (المُشبَّه) أي وجود القادة الإلهيين في حالِ الغيبة. إن الاشعة المعنوية لوجود الامام (ع) في حالةِ غيابِه خلف السحاب فهو ذو آثار واضحة، رغم تعطيل قضية التعليم والتربية والقيادة المباشرة تكشفُ عن حكمةِ وجودِه.

وبملاحظة إجمالية لهذا الكتاب يُكشَفُ عن قسمٍ من هذه الآثار.

أ ـ صيانة التعاليم الإلهية:

مع مرور الزمن، وامتزاج الاذواق والافكار الشخصية بالقضايا الدينية وميل التيارات المختلفة نحو النظريات المخادعة وبرامجها الانحرافية، وامتداد الأيـدي المفسدة نحو المفاهيم السماوية، فإن قسماً من أصالةِ هذه القوانين تتعرض للتلف والتغييرات المضرة.

إن هذا الماء الزلال النازل من سماء الوحي، يُصيبُهُ العتم بالتدريج خلال عبوره من الرؤوس المختلعة ويفقد صفاءه الذي كان له في البداية.

وهذا النور المشع يفقد بعض نوره خلال عبورِهِ من الزجاج المظلم للأفكار المظلمة.

والخلاصة بـالعمليات التجميليـة والاضافيـة لقصيري النـظر واضافـة فروع جديدة، تصبحُ معرفة المسائل الاصلية متعذِّرة.

وفي هذه الحالة، أليس من الضروري أن يوجد شخص بين جمع المسلمين يحفظ المفاهيم الخالدة لتعاليم الاسلام بشكلها الأصلي لأجيال المستقبل؟

إننا نعلم انه يوجد صندوق حديدي لا يحترق في كل مؤسسة لحفظ الوثائف من التلف والسرقة والحريق، وهذا الأمر يزيد اعتبار المؤسسة هذه.

صدر الإمام وروحُهُ السامية صندوق لحفظ التعاليم الإلهية التي تحتوي على جميع المميزات السماوية والاصالة الأولىٰ بهذه التعاليم. لكي لا تبطل الدلائـل الإلهية والآيات الواضحة لله سبحانه وتعالى، وهذه إحدىٰ آثار وجوده، بالاضافة إلى الآثار الأخرىٰ.

ب ـ إعداد مجموعة المنتظرين الواعين:

خلافاً لما يفكر فيه البعض، فإن علاقة الامام في زمن الغيبة ليست مقطوعة بالمرة عن الناس، وإنما وكما يستدل من الروايات الاسلامية ان مجموعة صغيرة من اكثر الناس استعداداً الذين تمتليء افكـارهم بالعشق الإلهي، وقلوبهم بـالايمان ومنتهى الاخلاص لتحقيق اهداف اصلاح العالم على الارتباط به سلام الله عليه.

إن غيبة الامام صلوات الله عليه لا تعني ان الامام هو على هيئة الروح غير المرئية أو شعاع غير ظاهر، بل إنه يتمتع بحياة طبيعية هادئـة، يجول بين هؤلاء النـاس بشكلٍ غيـر معروف، ينتخب القلوب المتهيئـة. والاشخاص الـذين لهم الاستعداد، مع اختلاف الاستعدادات واللياقات يوفقون لإدراكِ هذه السعادة. وهناك البعض، لساعات او لأيام او لسنين، يكونون على اتصالٍ مع بقيةِ الله ارواحنا له الفداء.

وهؤلاء اشخاص لهم أجنحة من العلم والتقوىٰ لدرجـةٍ ساميـة، وهم أشبه بمسافري الطائرات البعيدة المدىٰ، يطيرون فوق السحاب، إلى حيث لا حجابٌ يمنع إشعاعَ الشمس المانحة للحياة، بينما البقية يقبعون تحت السحاب في ظلام او نور ضعيف.

والحقيقة إن الوضع هو هكذا. فأنا يجب أن لا اتوقع أن اسحبَ الشمس إلى تحت السحاب لكي أراها، إن مثل هذا التوقع خطأ وخيال محض، بل عليَّ انا أن أحلِّق فوق السحاب، لأعبَّ من شعاع الشمس الخالدة جرعةً جرعة حتىٰ ارتوي.

علىٰ أية حال، إن إعدادَ هذه المجموعة هي حكمة اخرىٰ من حِكَمِ وجودِ الإمام في هذه المرحلة.

ج ـ النفوذ الروحي واللاإرادي:

إننا نعلم أن للشمس سلسلة من الأشعة المرئية يتركب منها الألوان السبعة المعروفة، واشعة غير مرئية تسمىٰ (فوق البنفسجية) او (الاشعـة دونَ الحمراء). كذلك القائد السماوي الكبير، نبيّاً كان ام إماماً، فبالإضافة إلى التربية التشريعية ـ التي تتأتىٰ عن طريق الحديث والتصرفات والتعليم والتربية العادية ـ له نوعٌ من التربية الروحية التي تعمل عن طريق النفوذ المعنوي في القلوب والأفكار، ويمكن تسميتها بأسم (التربية التكوينية). وهنا لا اثر للألفاظ والكلمات والكلام والعمل، وإنما الشيء المؤثر هو الجاذبية الكامنة في الباطن.

ونقرأ في سير الكثير من الأئمة الكبار أن بعض الاشخاص المنحرفين بمجرد

اتصال بسيط معهم يُغيّرون مسيرتهم كلياً، وينقلبون تماماً، او كما نقول ينحرفون عن حياتهم بزاوية مئة وثمانين درجة، وينتخبون اسلوباً جديداً، وينقلبون مرةً واحدة إلى اشخاص طاهرين مؤمنين وذوي ايثار، لا يحجمون عن بذل وجودهم.

إن هذه التغييرات السريعة بكافةِ جوانبها، وهذه التحولات الكليـة، وذلك خلال لقاء واحد، طبعاً بالنسبة لهؤلاء رغم انحرافهم لديهم استعداداً أيضاً، هـو نتيجةُ (جذبةٍ لا إرادية) يعبّر عنها أحياناً بأسم (نفوذ الشخصية).

وقد جرّب الكثير في حياتهم انهم اثناء لقاءِهم باشخاص ذوي روحية عالية، يقعون تحت تأثيرِهم دون اختيار او إرادةٍ منهم، حتىٰ انـه يصعب عليهم الكلام أمامهم ويجدون انفسهم في هالة من الغموض لا توصفُ عظمتها.

طبعاً يمكن احياناً اعتبار ذلك تلقيناً وما اشبه ولكن بالتأكيد لا يصح ذلك على جميع الحالات. ولا يوجد طريق سوىٰ أن نقبل أن هذه الآثار نتيجة شعاع غامض ينبع من باطن الاشخاص العظام.

هناك سيرٌ كثيرة في تاريخ الأئمة الكبار لا يمكن أن نفسر هذه الحالة إلّا بهذا التفسير، ونورد فيما يلي بعض النماذج:

إلتقـاء اسعد بن زُرارة الـوثني بالنبي الاكـرم (ص) الى جوار الكعبـة والتغييـر الفكـري الكلي له، أو مـا كانِ يسميـه الأعداء الألـداء للنبي (ص) بـأنـه (سحـر)، وسعيهم لأبعاد الناس عنه (ص) من أجل ذلك.

تأثير رسالة الإمام الحسين (ع) على افكار (زهير بن القين) اثناء المسير إلى كربلاء، الذي وضع اللقمة من يده والتحق به (ع).

الجذبة العجيبة التي شعر بها (الحر بن زيـد الرياحي) في نفسِه واخذ يرتجف رغم شجاعته، وهذه الجذبة هي التي سحبته إلى صفوفِ المجاهدين في كربلاء حتى نال فخر الشهادة العظيمة.

قصة الشاب الذي كان يقيم إلى جوار (أبي نصير) بثروتِه العـظيمة، التي

جمعها من خدمتهِ لنظام بني أمية، والذي كان يعيش حياة لاهية لا ظابطة لها، فتغيّر كلياً برسالةٍ من الإمام الصادق (ع)، فترك اعماله كلها، وأنفق جميع امواله التي جمعها عن طريق غير مشروع في سبيل الله أو اعادها لأصحابها.

قصة الأَمَة المطربَة الجميلة التي بعثها هارون الرشيد لجهلهِ الى الامام الكاظم صلوات الله عليه لكي يحرفه، فانقلبت المطربة خلال مدة وجيزة بحيث أن مظهرها وكلامها ومنطقها ادهش هارون واخافه...

جميع هذه القصص نماذج لهذا التأثير اللاإرادي، ويمكن اعتباره فرعاً من الولاية التكوينية للمعصومين، من النبي (ص) وحتى الأئمة (ع)، لأن عامل التربية والتكامل هنا ليست الألفاظ والجُمَل والطرق العادية، وانما (الجذبة المعنوية) و (النفوذ الروحاني) التي تعتبر العامل الأساسي.

وكما قلنا إن الأنبياء والأئمة، على اساس الفضائل الموهوبة، والابرار والشخصيات الإلهية العظيمة، على اساس الفضائل المكتسَبَة، كلٌ ومنزلة شخصيته له هالةٌ من هذا النفوذ اللاإرادي، طبعاً لا يمكن المقارنة بين المجموعة الأولى والمجموعة الثانية من حيث الأبعاد والإتّساع.

إن الوجود المبارك للإمام صاحب الزمان (ع) خلق سحاب الغيبة له هذا الأثر ايضاً، ففي طريق الشعاع القوي الواسع لنفوذ شخصيتهِ، يؤثر بجذبتِهِ الخاصة في القلوب المستعدة القريبة والبعيدة، ويبدأ بتربيتهم وتكاملهم ليصنع منهم الإنسان الأكمل.

إننا لا نرى قطبي الجاذبية المغناطيسية للأرض بأعيننا ولكن اثرهما ظاهر في البوصلة؛ لدى قيادة السفن في البحار، وفي الصحارى، وفي قيادة الطائرات في الفضاء، والأجهزة الأخرى ومن بركة هذه الامواج على الكرة الأرضية فإن ملايين المسافرين يجدون طريقهم نحو اهدافهم، فيتخلصون بالناقلات الصغيرة والكبيرة بأمرٍ من هذه العقربة الصغيرة في ظاهرها من الضياع.

فهل من العجب أن يكون الوجود المبارك للإمام صاحب الزمان صلوات الله

تعالى عليه، في زمن الغيبة، وبواسطة امواج جذبتِهِ المعنوية هادياً لأفكار وارواح الكثيرين، القريبين والبعيدين، وينقذهم من الضياع؟!

طبعاً يجب أن لا ننسى أن الأمواج المغناطيسية في الأرض لا تؤثر على القطع الحديدية الرخيصة، وإنما تؤثر على العقارب الدقيقة والحسّاسة تلك التي لها خاصية الجاذبية، والتي لها (شبه) مع القطب المُرسِل للأمواجِ المغناطيسية. وكذلك القلوب التي لها طريق الى الإمام عليه السلام وتدّخر في باطنها (شبهاً) تقعُ تحت تأثير تلك الجذبة الروحانية.

مع ملاحظة ما ذكرناه، يتضح أثرٌ آخر من آثارِ وحِكَمِ وجودِ الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف في مثل هذه المرحلة.

د ـ ترسيم هدف الخَلْق:

لا يوجد عاقل يخطو بلا هدف، فكل حركة تتم في ظل العقل والعلم فإنها تكون على مسير هدف، مع فارق أن الإنسان يهدف من وراء إعمالِهِ إلى الحصول على حاجاتِهِ وإزالة النواقص، ولكن في عمل الله سبحانه وتعالى الهدف هو التوجّه الى الآخرين ورفع حاجاتِهم، لأنه (ذاته) سبحانه وتعالى كامل من كل الجهات وبعيد عن كل نقص، ومع هذا فإن إنجاز عمل لمنفعتِهِ لا مفهوم له ابداً، والآن لاحظوا المثال التالي:

نستحدث بستاناً مملوءاً بالورود والفواكه في أرض خصبة، فتنمو الأعشاب بين الأشجار والورود، وكلما قمنا بسقي تلك الأشجار الضخمة فإن الأعشاب هذه أيضاً تُسقى تماماً.

وهنا يكون أمامنا هدفان؛ هدفٌ اساسي وهو سقي اشجار الفواكه واسجار الورود، وهدفٌ تابع اي سقي الاعشاب غير النافعة.

لا شك، ان الهدف التابع لا يمكنه أن يكون هدف عمل، او اعتباره عملاً حكيماً، ولكن المهم ذاك الهدف الاساسي الذي له جانبٌ منطقي.

والآن لنفترض؛ أن اكثر الاشجار في البستان تجف وتبقى شجرة واحدة فقط،

ولكنها تُعطينا وحدها الورود والفواكه التي نتوقعها من الأشجار، وبدون أي تردد، لسقي هذه الشجرة، فإننا نستمر بالسقي، رغم أن أعشاباً كثيرة تستفيد من ذلك. وإذا جفّت هذه الشجرة يوماً ما عندها نكف عن سقي البستان، حتى ولو ماتت الأعشاب.

إن الاشخاص الذين هم على مسيرةِ التكامل، هم الاشجار ذات الاغصان المثمرة، واما اولئك الذين غدروا وانحرفوا هم تلك الاعشاب الضارة في البستان.

ومن المسلم به أن هذه الشمس المشرقة، وهذه الذرات الحياتية للهواء، وجميع بركات الأرض والسماء لم تخلق لمجموعة فاسدة تتشاجر ويأكل بعضها الآخر، ولا يأتي منها الظلم والاستبداد والجهل والفساد للمجتمع. كلا، ابداً، لا يمكن أن يكون هدف الخَلْق ذلك.

إن هذا العالم وجميع مواهبِهِ، من وجهة نظر شخص مؤمن بالله، له معرفة بعلم وحكمة الله تبارك وتعالى، إنما خُلِقَ من أجل الصالحين والطاهرين، كما انه في النهاية سيخرجُ من يد الغاصبين تماماً ليكون تحت تصرفهم.

- ﴿إن الأرض يرثُها عبادي الصالحون﴾[1].

إن خالق الخلق، يفيضُ دائماً بفيضِهِ وعطاياه من اجل هذه المجموعة، حتى ولو أن الاعشاب باعتبارها هدفاً تابعاً تستسقي وتستفيد، ولكن بلا شك انها ليست الهدف الاساسي، ولو، بفرض المستحيل، اذا جاء يوم وقُضي على آخر فردٍ من نسلِ الصالحين على وجه الأرض، فلن يكون هناك من دليل لاستمرار العطايا.

وفي ذلك اليوم تدب الفوضى في الأرض، وتقطع السماء بركاتها، وتقتر الأرض على الإنسان.

ثم أن النبي والإمام، هم حجة الله والهدف المهم لخلق العالم والانسان، يعني تلك المجموعة التى هي الهدف الاساسي للخلق، فلهذا السبب يكون وجود

---

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠٥).

الإمام صاحب الزمان عليه السلام وحده أو على رأس مجموعة الصالحين السبب لهدف الخلق ونزول أي خير وبركة، كنزول المطر الذي هو عطية ورحمة من الله تبارك وتعالى، إن كان الإمام (عج) يعيش حياته بين الناسِ علناً، او مخفياً ومجهولاً.

صحيح أن الاشخاص الصالحين الآخرين هم أيضاً - في حدودهم - هدفُ للخلق، او بتعبير آخر قسم من ذلك الهدف الكبير، ولكن النموذج الكامل لهذا الهدف هم اولئك البشر النموذج والرجال الإلهيين، رغم أن حصة الآخرين تبقى محفوظة ومن هنا يتضح هذا المعنى الذي ورد في بعض الروايات بهذا المضمون:

-« **بيُمْنِهِ رُزِقَ الورى وبوجودِهِ ثبتت الأرضُ والسماء**».

يتضح بالمعلومات التي قدّمنا، أن هذا الموضوع ليس موضوعاً مبالغاً فيه أو بعيداً عن المنطق، او إنه شرك، كما أن العبارة التالية، وهي حديث قُدسي ورد في الكتب المشهورة موجّه من الله سبحانه وتعالى إلى نبيه (ص):

- «**لولاكَ لما خلقتُ الافلاك**».

بيانٌ لحقيقةٍ وليست مبالغة، فالنبي (ص) هو الهدف من الخلق، والصالحون الآخرون كل واحد منهم قسم من هذا الهدف الكبير.

من مجموع ما ورد في هذا الفصل تحت اربعة عناوين نستنتج ما يلي:

إن اولئك البعيدين الذين يعتبرون وجود الامام صاحب الزمان (ع) في عصر الغيبة، وجوداً شخصياً لا فائدة اجتماعية منه، ويوجّهون طعناتِهم، في هذا المجال، إلى عقيدة الشيعة في عدم وجود نفع من مثل هذا الإمام لقيادة وإقامة الناس.. ليس الإمرُ كما تصوروه هكذا وقالوا، فإن آثار وجود الإمام (ع) في هذا المجال كثيرة أيضاً[1].

---

(١) لاستكمال هذا البحث يراجع بحار الأنوار ج ٥٢ ص ٩٣ - ٩٥ للعلاقة المجلسي.

٣ ـ حجج الله المخفيون والغائبون في القرآن الكريم ونهج البلاغة:

الإمام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) يذكر في نهج البلاغة نوعين من الحجة لله عز وجل، احدهما حاضر وعلني، والآخر غائب وخفي، حيث يقول: «**اللهم بلى لا تخلو الأرضُ من قائم لله لحجةٍ، إمّا ظاهراً مشهوراً، او خائفاً مغموراً لئلا تَبْطُلَ حججُ اللهوبِيِّناته**[1]».

جملة(**لِئلا تَبطلَ حججُ اللهَ وبيناته**)تلفت النظر وتُعبر عن أن القادة الإلهيين، في الخفاء والعلن، يؤدون واجب القيادة الثقيل، ويسعون في جميع الأحوال لتوجيه الناس.

وما هو قصد الامام (ع) من (الحجة الخائف المغمور)؟ فهل هو من الأئمة المعصومين غاب لعدم توفر الظروف المساعدة حتى اليوم الذي يتهيأ العالم للثورة؟

بعد الاطلاع على هذين النوعين من الحجج الوارد في كلام أمير المؤمنين (ع) نلفت انتباه القرّاء إلى مجموعةٍ من أولياء الله عز وجل الذين كانوا مخفيين وغائبين، ورغم ذلك كانوا يقومون بهداية المجتمع، اما بصورة مستترة أو يقومون في الخفاء بإعداد الاشخاص، او كانوا من الأنبياء او الأولياء ولكنهم كانوا ينتظرون صدور أمر الله تعالى ليؤدي بعد ذلك الواجب، بعض هؤلاء هم:

أ ـ معلمُ موسى (ع) الذي ورد اسمه في الأخبار (الخضر) (ع)

ب ـ النبي الأكرم (ص) الذي استمر لمدة ثلاث سنوات لهداية الناس.

ج ـ موسى (ع) خلال مدة غيابِهِ اربعين يوماً.

د ـ يونس عليه السلام الذي اختفى مدة في بطن الحوت.

ه ـ المسيح (ع) حيث لم يكن في عهد الطفولة نبياً، ولكنه بعد ثلاثين سنة قام بهداية الناس.

---

(١) نهج البلاغة الكلمات القصار ـ ٤٧.

ألف ـ الولي الغائب الذي كان معلماً لموسى (ع):

يقودنا القرآن الكريم نحو مقام (الولاية) الرفيع، وشؤون واسلوب الهداية لدى اولياء القيادة، ويثبت بوضوح انه من الممكن أن يقوم رجالُ الله تعالى، في وقت اختفاءهم عن الانظار، وارشاد الناس.

القرآن الكريم يعرّف القيادة التى لم تكن معروفة، ولم يكونوا يعرفونها، حتى رسول ذلك العهد ايضاً لم تكن له معرفة بها، واذا كان قد عرفها فإنما إثر معرفةٍ إلهية، وهذا الولي او القائد هو الذي يتحدث عنه الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم في سورة الكهف عن موسى وفتاه:

ـ **﴿فوجدا عبداً من عبادِنا آتيناهُ رحمة من عندنا وعلمناهُ من لدنّا عِلماً﴾**[1].

إن من كان يملك مثلَ هذا العلم الواسع، هو صريح عبارة القرآن، يعلم نبيَّ ووصيَ ذلك الزمن، وهذا بالتأكيد من اولياء الله، وليس إنه كان اوسع علماً بل اقوى معنوية، بحيث عندما يقول له موسى (ع): **﴿.. هل اتبعك على أن تُعلمنِ مما عُلِّمتَ رُشدا﴾**[2]. يُجيبُهُ: **﴿انك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾**[3].

لا شك ان هذا الشخص من أولياء الله والشخصيات الإلهية البارزة. إن التحقيق في حالات (ولي الزمان) هذا، والعالِم المجهول، خلال اللحظات الحساسة من الحياة مع النبي موسىٰ عن ملامح من القيادة منها:

١ ـ إن (ولي الزمان) هذا كان يعيش بشكل مجهول، لا يعرفه أحد، وإنْ لم يُعرِّفهُ الله تعالى، لما عرفه أحد، أذن فلا يشترط على الولي ان يعرفه الناس حتماً.

---

(١) سورة الكهف الآية (٦٥).

(٢) سورة الكهف الآية (٦٦).

(٣) سورة الكهف الآية (٦٧).

٢ ـ إن هذا الولي الإلهي، مع إنه كان غائباً عن الأنظار ومختفياً، لم يكن غافلاً عن حوادث واوضاع الزمن. وبالولاية والصلاحيات الممنوحة له من الله سبحانه وتعالىٰ كان يتصرف في اموال ونفوس الناس. ويتصرف طبقاً لما تقتضيه القيادة مع الأوضاع السائدة، إنه كان دقيقاً في قيادةِ الأحداث بحيث انه لم يرتضِ أن تقع سفينة البؤساء، وهي مصدر حياتهم، بيد حاكم ظالم، فأحدثَ فيها عيباً لكي يمنع مصادرة السفينة. إن صلاحياتِه كانت لدرجة تُعطيه الحق في قتل إنسان، وبناء جدار لصيانة اموال يتيم.

٣ ـ الطريف في الأمر ليس فقط إنه كان مجهولاً، وإنما تصرفاتُهُ ايضاً كانت غامضة على الناس العاديين، فلو أن الناس واصحاب السفينة كانوا علىٰ علمٍ بتصرفِه لما سمحوا له باحداث ثقب في السفينة، لأنهم ما كانوا يعلمون هدفه المقدس، ولو أن الناس شاهدوا قتلَهُ لإنسانٍ لما تركوه وشأنه، و. . . وبما انه أنجز جميع هذه الاعمال العجيبة في المجتمع، ولم يلاحظ أحدُ ذلك، إذن يمكن أن نفهم إنه ليس فقط غائباً عن الانظار، وإنما حتىٰ تصرفاته في الاوضاع والحوادث خفية عن الناس، انهم كانوا يرون أثرَ فعلِه وليس عمله.

٤ ـ اهم من كل شيء كانت قيادته وهدايته، فهو بإمتلاكه لمقام الولاية كان يؤدي واجباتِه، احياناً يظهر أثرُ ولايته في التصرف بالأموال والنفوس او حجز وحراسة اموال الأيتام، وأحياناً عن طريق بناء الشخصية وتعليم الأفراد يقوم بواجبِ ولايتِهِ المهم، فيهدي ويقود اشخاصاً كموسىٰ وفتاهُ.

نفهم جيداً من الحياة الحسّاسة والهازّة لهذا الولي الإلهي، أن (وليَّ الزمان) يكون أحياناً ظاهراً مكشوفاً، واحيانا غائباً مخفياً، ويرتبط ذلك بمصالح واوضاع الزمن.

كما اننا نفهم أن الهداية والقيادة، وهما واجب الامام والولي، يمكن أن يتمّا بشكلين، علني وخفي، وليس ضرورياً أن يُعرفَ الإمامُ حتىٰ يقوم بالهداية، بل إنه يقوم في حال غيابِهِ وخفائِهِ بواجبِه المهم. . .

واوضح من كل شيء، أن الهداية والقيادة ـ وهما من شؤون اولياء الله، يكونانِ احياناً علىٰ شكلٍ (بناء الفرد) واحياناً على شكل (بناء المجتمع). وفي الشكل الأول ليس ضرورياً أن يعرف الجميع (ولي الله) او أن يقوم بقيادة الجميع، وإنما في الظروف الخاصة التي لا يمكن فيها (بناء المجتمع) يقوم بـ (بناء الفرد).

إن واجب الامام (ع) في مرحلة الغيبة شبيه بواجب (الولي في عصر موسىٰ (ع)) فالامام (ع) في حال الاختفاء يتدخل في شؤون الحياة الدنيوية والدينية للناس، ويتصل بالأفراد الخاصّين، ويعمل علىٰ بناء الفرد وتربيةِ الشخصيات.

فهل بعد معرفتنا لمثل هذه الواجبات ايحق لنا أن نتساءل: ما فائدة وجود (ولي الزمان) هذا؟!

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا**..﴾[1].

ليس فقط أن هذه الآية تدل على أن الهداية التي يقومون بها هي بأمر الله تعالىٰ، وإنما تدل على أن اسلوب هدايتهم ايضاً هي بأمرِ الله عز وجل.

واحياناً تقتضي ارادة الله أن يقوم هؤلاء في الخفاء بهدايةِ الناس. واحياناً اخرىٰ أن يخرجوا من وراء حجاب الغيب ليقوموا بهدايةِ جماعية. إن الهداية واساليبها إنما هي بأمرِ الله عز وجل.

ب ـ الدعوة السرية لنبي الاسلام (ص):

في الايام التي كان الرسول الأكرم (ص) مشغولاً ببناء الفرد المسلم، كان (ص) يعمل وفق مضمون الآية ﴿**يهدون بأمرنا**﴾. كان اسلوب الهداية طريقته، إلىٰ أن جاء امرُ الله ودعاه للقيام بهداية الجميع، ليس نبي الاسلام (ص) وحده الذي بدأ الدعوة سراً، ثم بدأ هداية الناسِ علناً بعد ذلك، وإنما هذه هي السُّنة الإلهية، إذ يقتضي امرُ الله عز وجل حيناً ان يكون امرُ الهداية والقيادة علنياً حيناً،

(١) سورة الأنبياء الآية (٧٣).

وحيناً آخر تستوجب المشيئة الإلهية أن يكون سراً (لبنـاء الفرد)، والنموذجان كانا في حياة النبي نوح (ع) فهو يبين عملَه هكذا:

- ﴿ثم إني اعلنتُ لهم وأَسرَرْتُ لهم إسراراً﴾[1].

يذكرُ نوح عليه السلام في القسم الأول من الآية علنيةَ دعوتِهِ ثم يبينُ في القسم الثاني سرية الدعوة، والنوعان من الدعوة كانا بأمر الله سبحانه وتعالىٰ ولهداية البشر. وبملاحظةِ هذه الحقائق والاحاديث التي هي ما فوق المتواتر نستدل علىٰ وجود حياة مثل هذه القيادة. والسؤال الوحيد هو: كيف يمكن أن يتوافَقَ أن يكون الإمامَ هادياً وقائداً للمجتمع، مع هذه الغيبة؟!

الجواب هو؛ إن الإمام يجب أن يكون هادياً وقائداً، ولكن ما هي الضرورة في أن يكون اسلوب الهداية له عاماً وعلنياً؟!

أوَليســـت الهداية التي يقوم بها هي بأمر الله سبحانه وتعالىٰ **﴿يهدون بأمرنا﴾** واذا كان امر الله هكذا في أن يقوم بإعداد الفرد لمدةٍ من الزمن، أي حتى تتهيأ ارضية الثورة باصلاح المجتمع، عندها يمكن القول: «أي نوع من الهداة والقادة هذا الإمام؟ إذا كان يدعو في الخفاء وبأساليب متنوعة الناسَ من خلال اتصالات مختلفة إلى الحق والحقيقة ويؤثر في بعض الناس، فهل يكون قد قام بواجب القيادة تماماً؟ وكيف يكون هذا الأسلوب مناسباً وكافياً لنوح (ع)، وغير مناسبٍ او كافٍ بالنسبة لولي العصر (عج)؟!

الخلاصة، لا يعني ﴿يهدون بأمرنا﴾ أن تكون الهداية دائماً علنية، وإنما مفاد ذلك؛ هو ان الإمام يقوم بالهداية كما امرَ الله سبحانه وتعالىٰ، إن كان علناً او سراً.

نعم إن (صاحب الزمان ـ الولي) غائب عن الانظار، وتبليغاته وهدايته واعماله مخفية وغائبة عن الانظار ايضاً، ولكن دعوته السرية موجودة، وكذلك فيضُهُ وإفادتُهُ سرية وخفية.

---

(١) سورة نوح (ع) الآية (٩).

ج ـ موسىٰ (ع) غاب أربعين يوماً عن الأنظار:

إذا كان يجب أن يكون الإمام والقائد موجوداً دائماً بين الناس وفي المجتمع وغيبتُه تتنافىٰ مع مقام الهداية، فماذا يمكن قوله عن موسىٰ (ع)؟ فهل كان هـذا النبي الإلهي، الـذي اختفىٰ كما جـاء في القرآن الكـريم اربعين يـومـاً عن بني اسرائيل[1]، خلال هذه المدة قائداً أم لا؟! اكان اماماً ام لا؟! فإذا قلنا انه كانت له مكانة النبوة والقيادة، يبرزُ هذا السؤال: ما هي فائدة مثل هذا الإمام؟ فإذا قلنا إن مكانته كقائد سُلبت منه خلال تلك المدة، فإننا نكون قد قلنا شيئاً فريّاً، لأننا نعلم جميعاً أنه بمنزلتِهِ ومقامِهِ قد غاب لكي يستلم التوراة.

إذا كان الامام مُلْهِماً وهاديـاً، فإن المـدة إن طالت او قصـرت يتساويـان، ويستثنىٰ فقط تلك المدة من الغيبة التي تستدعيها ضرورة الحياة، كوجوب النوم.

ربما يُقال؛ إن غيبة موسىٰ تفرق عن غيبة الإمام القائم (عج)، فإذا غـاب موسىٰ فإن وَصيَّهُ كان موجوداً بين الناس، ولكن الأمر يختلف بالنسبة للقائم (ع).

وجواب هذا القول واضح، لأن الهدف من التشبيه هو أن (ولي) الزمان غاب لأسباب عن الأنظار وهي نفس الاسباب التي أجازت غيبة موسىٰ (ع)، فإذا غضينا النظر عن هذا الكلام فإن وجود (الوصي) لا يتوجب غيبة النبي، لأنه امام وقائد فإذا كانت له إفاضة فلأنه إمام ويؤدي في الواقع واجبه، وليس أن يحمل حِمْله وحِمْل موسىٰ (ع)، ثم إن (ولي العصر) له نوابٌ بين الناس، يمكنهم أن يتحملوا مسؤولية القيادة في غيبتِه.

د ـ سجن يونس في بطن الحوت:

يذكر القرآن الكريم في مواضع شتىٰ قصة يونس (ع)[2]، ويصرح القرآن أن يونس كان لمدة من الزمن في بطن الحوت[3] حبيساً مخفياً عن انظار الناس.

---

(١) سورة البقرة الآية (٥١)، سورة الأعراف الآية (١٤٢).

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨٧، الصافات ـ ١٣٩ وما بعدها.

(٣) الصافات ـ ١٤٤.

إن هذا (الولي) الإلهي الذي له مقام (الولاية) كان بعيداً عن أُمَّتِه، فإذا كان الإمام الإلهي مفيضاً وهادياً دوماً فكيف يمكن تفسير غيبتِه؟!

يقول القرآن الكريم بصراحة، إنه بعد خروج يونس (ع) من بطن الحوت ﴿.. وارسلنْا إلى مائة ألف او يزيدون﴾ ويمكن الحدس من ذلك إنه (ع) كان يمتلك مقام الولاية الإلهية اثناء حبسِه، وإنما الشيء الموجود إنه كان بعيداً لمدةٍ ولأسباب عن التبليغ والهداية، وهذه الحقيقة تتوضح إذا علمنا إن المقصود من تلك الكمية او العدد من الناس هم قوم يونس السابقين الذين نجىٰ يونس من العذاب الإلهي لتوبتهم.

هـ ـ نموذج آخر للموضوع: السيد المسيح (ع):

هناك فاصلة زمنية بين نبوة السيد المسيح وابلاغ دعوته فالقرآن الكريم يتحدث عن هذا النبي الذي بُعِثَ نبياً منذ ولادتِه، ولكن هدايته واعلان دعوتِهِ بدأت بعد سنوات طويلة، فالقرآن الكريم يقول:

﴿قال: اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾[1].

قال السيد المسيح (ع) هذا القول في بدايةِ حياته، ولكن هدايته للناس بدأت في سن الثلاثين.

كل إنسان سليم الطوية يجب أن يتبع أسلوب هداية نوح، (ولي) زمان موسىٰ، والسيد المسيح عليهم الصلوات والسلام في حياة صاحب الزمان (عج).

كانت هذه زاوية من اسرار وآثار وجود الإمام الغائب عليه السلام.

---

(١) سورة مريم الآية (٣٠).

ثورة الإمام المهدي (عج) وتأسيس الحكومة العالمية الواحدة

يقال؛ بعد ثورة المهدي (ع)، سيُدار المجتمع الإنساني من قبل حكومة واحدة، فهل هذا ممكن؟!

الجواب:

اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عندما كان الغرب يستغرقُ في القومية والعنصرية، ويُغْرِقُ موسوليني وهيتلر العالم، بحجة العنصر الأفضل، في حمام دم، ويفكر السياسيون بتوسيع سلطتهم على اعتبار (العنصر) و (القومية)، وفجأة تقوىٰ نظرية (العالمية[1] Internationalism) وضرورة تشكيل حكومة عالمية واحدة لدىٰ قسم من علماء الغرب ويضعون لذلك برامج ومشاريع.

وسبب ظهور هذه الفكرة، او بالأحرىٰ تجديد هذه الفكرة التي كانت موجودة لدىٰ الاقوام السابقين، هو الخوف من امثال الحربين العالميتين الأولىٰ والثانية اللتين اظهرتا بجلاء بشاعة الحروب، فالحرب العالمية الأولى قدّمت حوالي تسعة ملايين قتيل و ٢٢ مليون جريح وعشر ملايين مفقود، وتلفات الحرب العالمية الثانية افظع من الأولىٰ.

لقد اثبتت هذه الحروب عملياً أن وجود الحدود المصطنعة بين الشعوب هو سبب الحرب وسفك الدماء، كما أن للقومية والعنصرية نفس هذه العواقب.

---

(١) انترناشيناليزم ـ الدولية، الاستشراف او الصفة أو المبادىء او المصالح الدولية. سياسة التعاون بين الدول وبخاصة في الحقلين السياسي والاقتصادي.

(المورد)

إن تأسيس (عصبة الأمم) بعد الحرب العالمية الأولىٰ، التي كان اعضاؤها ٢٦ دولة فقط في البدء، وتأسيس مجمع عالمي بأسم (منظمة الأمم المتحدة)، والمنظمات العالمية التابعة لها، كلُّها نابعة من فكرة (تأسيس الحكومة العالمية الواحدة) التي ما تزال واردة كفكرةٍ بين المفكرين. قسمٌ من هؤلاء المفكرين يتوقعون بأن (منظمة الامم المتحدة) باعتبارها برلماناً عالمياً ستكون في المستقبل مركزاً لحكومةٍ عالمية واحدة، ثم يتحدثون عن سلطة قانونية، وسلطة تنفيذية، وسلطة قضائية.

هذه المجموعة ذكرت في بيان مؤتمر طوكيو عام ١٩٦٣ بما أن السلام الدائم لا يمكن ضمانه بواسطة المعاهدات والإتفاقيات، وأن منظمة الأمم المتحدة تفتقد إلى سلطة تنفيذية وقراراتها لا تعدوا أن تكون نصائح لذا ومن أجل الحفاظ على سلام دائم وحفظ شرف ودم ومال الناس فإنه لا يوجد من حلٍّ سوىٰ تشكيل حكومة عالمية واحدة.

ولتحقيق هذا الهدف اقترحت هذه المجموعة مشروعاً يقول:

ـ لتشكيل حكومة عالمية واحدة، لا بد من تحقيق الأمور التالية:

١ ـ **بارلمان عالمي**: ويجب أن تشترك في عضويته جميع دول العالم، وممثل اكثر دول العالم نفوساً له رأيٌ اكثر من بقية الدول.

٢ ـ **جيش عالمي**: والهدف من تشكيله حفظ السلام في العالم، وهذه القوة تكون تحت اشراف (المجلس التنفيذي الأعلىٰ).

٣ ـ **المجلس التنفيذي الأعلىٰ**: هذا المجلس هو السلطة التنفيذية للبرلمان العالمي.

٤ ـ **ديوان العدل الدولي**.

إن جميع هذه الاجتماعات والمشاريع والاقتراحات كلُّها تدلُّ علىٰ أن المفكرين هم علىٰ عتبةِ قبول فكرة تحقيق حكومة عالمية واحدة، وقد كانت هذه الفكرة في السابق مجرد (نظرية) تعتبر مستحيلة التحقيق.

بينما امثال هذه الافكار والمشاريع تبعث على السرور والارتياح، ولكن مما لا شك فيه أن تشكيل مثل هذه الحكومة مستحيلة نظراً للأخلاق المادية لدىٰ الإنسان، لأن المقترحين والمخططين والمنفذين والمشرفين جميعاً أُناسٌ فيهم روح الغرور وصفة الانفراد، ولم يشعروا يوماً بعطفٍ على الانسان. واذا كانوا في البداية يمتلكون نيةً حَسَنة، فإنهم اثناء العمل يسيطر عليهم الغرور، وطلب المقام، والقومية والعنصرية وعشرات العوامل الاخلاقية المادية التي تنحرفُ بهم، وفي الختام يُصيب المشروع ما اصاب (عصبة الأمم)، و (منظمة الأمم المتحدة) حالياً إذ اصبحت إلعوبة بيد القدراتِ الكبرىٰ.

وطالما يفتقد مخططو ومؤسسو ومنفذو الحكومة العالمية الواحدة للمعنويات، والطهر، والتقوىٰ، وخشية الله، والايمان به تعالىٰ وبالعالم الآخر فإن هذه المشاريع ذات الظاهر الجميل لن تتحقق، وتصبح في النهاية سلاحاً بيد (القوىٰ العظمىٰ) لمحو حقوقِ المستضعفين والشعوب في العالم.

ولكن بحق (انتظر حتى طلوع دولته) فإن هذه الفكرة دليل على نوعٍ من اليأس لدىٰ المتفكرين والعلماء في العالم بجميع المنظماتِ البشرية والتنظيماتِ المادية، التي يتطلع إليها المفكرون بأمل أن تعالج أدواءَهم، بينما إنْ لم تكن هذه المنظمات مصدراً للألم والمصائب فإنها بالتأكيد ليست مصدراً للخير، ولا بد من القولِ لها: (طالما لا يرجىٰ خير منك، فلتكفي شرَّكِ عنا).

ثورة المهدي (عج) والحكومة العالمية الواحدة:

في الوقت الذي اصبحت فكرة تشكيل الحكومة العالمية الواحدة بالنسبة للبشر ـ الغارق في المادية، ومعنوياته واحساساته الطيبة بالنسبةِ للإنسان قد تدهورت ـ املاً مستحيلاً وحلماً ذهبياً، فإن الأحاديث الاسلامية تعتبر تشكيل الحكومة العالمية الواحدة من مميزات ثورةِ المهدي (عج). وتدل هذه البيانات الإلهية بأن العالم يخضع تحت لواء حكومةٍ واحدة ودولةٍ واحدة وقانون واحد وقوةٍ واحدة، في ظل العدل، وتزول جميع القدرات الأخرىٰ والفراعنة وقارون واشباه قارون، الكبار

والصغار، وترفرفُ راية العدل في جميع انحاء العالم، ويسود الصفاء والمحبة بين البشر.

يقول الامام الباقر (ع): **(إذا قام القائم ذهبت دولة الباطل)**[1].

- يقول في حديث آخر: **(يبلغ سلطانه المشرق والمغرب)**[2].

ويقول في تفسير الآية[3]:

- **﴿الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾**[3].

إن هذه الآية تدل علىٰ حكومة المهدي(ع)،والله تعالىٰ يسلطه واصحابه علىٰ الشرق والغرب لإظهار دين الله والقضاء علىٰ البدع كما يحارب الجاهلون الحق، حتىٰ لا يبقىٰ اثر للظلم ويدعون الناس إلى المعروف وينهونهم عن الباطل ولله عاقبة الأمور.

مميزات حكومة المهدي:

كل جملة من الحديث المذكور تشير إلى مبدأ من مبادىء الحكومةِ العالميةِ الواحدة للإمام (ع)، او تشير إلى ميزةٍ من مميزاتِ حكومتهِ.

من الجدير ملاحظة المعالم التالية:

- يملكهم الله مشارقَ الأرضِ ومغاربها.

وهذا يعني أن حكومته شاملة، وليست إقليمية.

- ويظهر الدين ويميت الله به وبأصحابه البدع والباطل.

وهـذا يعني ان قوانين حكـومتـه هي قـوانين إلهيـةِ رسـالـةِ خـاتمِ الأنبيـاء محمد (ص). ويقول ايضاً:

---

(١) منتخب الأثر ص ٤٧١ نقلاً عن (روضة الكافي).

(٢) منتخب الأثر ـ ص ٤٨٢.

(٣) سورة الحج الآية (٤١) تفسير البرهان ج ٣ ص ٩٦، تفسير الثقلين ج ٣ ص ٥٠٦.

- حتى لا يرىٰ أثر من الظلم ويأمرون بالمعروف.

وهذا يعني ان هذه الحكومة تمتلك قدرةً تنفيذية واسعة، تمحو كل نوعٍ من انواع الظلم في كافة أرجاء العالم وتنشر الخير.

مثل هذه الميزات هي فقط من ميزاتِ الحكومةِ الاسلاميةِ العالمية، التي يحققها (مهدي صاحب الزمان) (عج).

احدىٰ مميزات حكومة الإمام، توسيع العمران في ارجاء العالم وسيطرةِ البشر علىٰ معادن باطن الارض. ووصول الإنسان إلىٰ التكامل في ظلال العدل، يقول النبيُّ الأكرم (ص) في هذا الصدد:

- «**تزيد المياه في دولته وتمد الأنهار وتخرج الكنوز**»[1].

وابن عباس الذي تربىٰ في حضن الرسول الأكرم (ص) ومدرسة امير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب (ع) يصف زمن المهدي (عج) فيقول؛ إن المهدي سيملأ الأرض عدلاً كما ملأت جوراً وتخرجُ الأرضُ ما في جوفها..

وكنموذج لذلك قال: (اعمدة من ذهب وفضة)[2].

مثل هذه الأحاديث وردت في كتب الحديث عن طريق (التواتر المعنوي)، وتتحدث عن حكومةٍ عالمية إلهية واحدة ذات حضارة عميقة ذات جذور مادية حيث تتحقق مسألة العصر الذهبي لظهور الحجة بن الحسن صلوات الله عليه وسلامه.

* * *

---

(١) منتخب الأثر ص ٤٧٣.

(٢) منتخب الأثر ص ٤٧٢.

صاحب الزمان (عج) وتكامل المجتمع

يقولون: ان مرحلة ظهور الامام (ع)، هو زمن تكامل المجتمع البشري، فما المقصود بهذا التكامل؟!

الجواب:

المقصود بهذا التكامل؛ تكاملُ العقل، الفكر والايمان، والتكامل الثقافي والصناعي. ولا يمكن تحقق الثورة العالمية للإمام (ع) وميل شعوب العالم إليه، وتأسيس الحكومة العالمية الواحدة التي هي أحد اهداف بقية الله ارواحنا له الفداء، بدون هذا التكامل.

نذكر فيما يلي بعض شروط تحقيق مثل هذه الحكومة بالاستفادة من الاحاديث:

أ ـ إستعداد شعوب العالم:

اول الشروط لظهور الإمام (عج) هو استعداد شعوب العالم لقبول مثلِ هذه الحكومة ووضع اساسها، ويعدّهم ويعدّ المجتمع الإنساني لذلك مرورُ الزمن، والحؤولُ دون حل الكثير من المشكلات للبشر، ويأسُ الإنسان من المنظماتِ والتنظِيماتِ المادية. وأحدىٰ علامات يأسِ الإنسان من الإلتجاء إلى المنظماتِ المادية، هي تلك التي وردت بشكل متواتر في الأحاديث الاسلامية من أن الجور والظلم، قبل ظهور الامام (ع)، يشمل الأرض، ويضغط الظلم على الإنسان ويثقل عليه لدرجة تجعله مستعداً لتقبل ثورة أخرىٰ عميقة وأساسية، ويفهم عملياً أن مرحلة طلب حلٍ من البرامج المادية قد أنقضت، وهذا السد لا ينكسر إلّا بقوةٍ غيبية.

ب ـ تكامل العقل والفكر الإنساني:

لا يمكن أقامة حكومة عالمية واحدة ذات عدل في جميع الشؤون بالحراب والمدافع والدبابات، رغم أن كل قوة بحاجةٍ إلى القوة ولكن في نفس الوقت ليس القدرة والقوة التنفيذية بقادرةٍ على قلع الفساد او نشر العدل، بل يجب أن يصل المجتمع الإنساني إلى مرحلةٍ من العقل والفكر والعلم لدرجة يطلبُ إقامة حكومة الحق والقانون والقضاء على الظلم والطغيان، ومثل هذه الحالة لا يمكن أن تتحقق إلّا في ظل التكامل الثقافي الإنساني. والكثير من المشكلات تحلُّ عن هذا الطريق في عصر ظهور الإمام (عج).

ويصرح الامام الباقر (ع)، بهذا العنصر من عناصر تحقيق الحكومة العالمية للإمام صاحب الزمان (عج) بقوله: «**إذا قام قائمنا وضع الله يده علىٰ رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت به أحلامهم**»[1].

إن الظلم والاستبداد، والاعتداء على الحقوقِ الإلهية والإنسانية، كلُّها وليدة الجهل، والبُعد عن الثقافةِ الإنسانية الأصيلة، وكذلكَ فإن الجهل ليس مانعاً من صنعِ الغواصات او السفن الفضائية ووصول الانسان إلى سطح القمر واعماق البحار.

إن الثقافةِ الإنسانية ثقافة كاملة، قسمٌ منها يختص بالصناعةِ والاختراعات، بينما الأبعاد الأخرىٰ تتعلق بـ (معرفة النفس والمجتمع) و (معرفة مكانة الإنسان في العالم). مثل هذه المعرفة لا تتيسر إلّا في ظلال تكامل العقل والأفكار. وفي هذا الموقع ينجو الإنسان من (الغرور) و (الانفراد) ويعتبر عشق الكمال والحقيقة أعلىٰ درجات الكمال، وأن الاعتداء علىٰ حقوقِ الإنسان لدليل علىٰ الذلّة والعجز والإنحطاط.

---

(١) الكافي ج ١ ص ٢٥.

ج ـ التكامل الصناعي:

لا يمكن قيام الحكومة العالمية الواحدة بدون التكامل الصناعي، خاصة وسائل الاعلام، لأنّ الحكومة التي تريد ايصال النداء الإلهي الى اقصىٰ نقاط العالم وإلى جميع ابناء البشر لا تستطيع بدون التكامل الصناعي ووسائل الاعلام أن تؤدي هذا الواجب. والحاكمُ الإلهي يجب أن يوصلَ رسالةَ الله خلال ليلة واحدة إلى جميع انحاء العالم ويُبين واجب الناس قبال الحوادث والأحداث، لا بد لـه من الوسائل السريعة والاجهزة القوية. وقد صرح بذلك الإمام الصادق (ع) حيث قال:

ـ «إن قائمنا إذا قام مدّ الله لشيعتنا في اسماعهم وأبصارهم حتىٰ لا يكون بينهم وبين القائم بريد، يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه»[1].

ويقول في حديث آخر:

ـ «إن المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرقِ يرىٰ أخاه الذي في المغرب وكذا الذي في المغرب يرىٰ أخاه الذي بالمشرق»[2].

ربما كانت هذه الأحاديث اشارة إلى التكامل الصناعي ووسائلِ الاعلام؛ التلفون، التلغراف، الراديو، التلفزيون، والوسائل الحديثة التي ستخترع حتىٰ زمن الظهور، إضافة إلى الأدوات التي ستوجد نتيجة إتساع العلم وظهور العلوم المكتومة، ويمكن حملُها على أن المراد من هذه الاحاديث ارتفاع مستوىٰ القدرة المعنوية للمؤمنين في ذلك الزمن.

د ـ الجيش العالمي الواحد:

لا توجد حكومة، حتىٰ ولو إلهية وسماوية، لا تحتاج إلى قدرة تنفيذية، وفي حكومة المهدي (ع) التي ستكون حكومة عالمية واحدة، فإن الحَاجة إلى قوة فعالة وبناءة وجيش عالمي مؤمن ستكون ماسّة لكي تضحي في سبيل الهدف بكل شيء، وتكون كما قال الإمام الباقر (ع): « أجرىٰ من ليث وأمضىٰ من سنان».

---

(١) منتخب الأثر ص ٤٨٣ نقلاً عن روضة الكافي.

(٢) منتخب الأثر ص ٤٨٣ نقلاً عن (حق اليقين).

واذا كان عددهم في بعض الروايات (٣١٣) شخصاً، وفي روايات اخرىٰ اثني عشر ألفاً، او خمسة عشر ألفاً، فإن الهدف هو الاشارة إلى رؤساء ذلك الجيش المؤمن الذي يعمل تحت إمرة الإمام (عج)، ويبعث الرعب منهم في قلوب الاعداء ويحطمهم ساعة المواجهة، وشعار افراد جيشِه عليه السلام: (اقتلوا اقتلوا) ولا تأخذهم في آداء واجبهم الإلهي لومة لائم[1].

هـ ـ يسود العمران كل مكان:

من وجهة نظر القرآن الكريم[2] ان التقوىٰ والطهارة والبراءة من الذنوب لـدىٰ الناس تكون سبباً لفتح ابواب الرحمة الإلهية وتوفير النعمة في كل مكان. ومرحلة حكومة الإمام عليه السلام هي مرحلة الطهارة من كل الذنوب، والنزاهة من الأعمال المخالِفة، ويقول أمير المؤمنين الإمام علي بن ابي طالب (ع) عن نتائج ظهـورِهِ العظيم: « **تخرج الأرض نبتها وتنزل السماء بركتها وتظهر له الكنوز يملك ما بين الخافقين أربعين عاماً** »[3].

بأمل أن نرىٰ ذلك اليوم الذهبي والنوراني، وأن نكون في ذلك اليوم الأغر من اصحاب إمامنا بقية الله (عج) وارواحنا لتراب مقدمِهِ الفداء، آمين يا رب العالمين.

* * *

---

(١) منتخب الأثر ص ٤٨٦.

(٢) سورة الأعراف من الآية ٩٦ وما بعد.

(٣) منتخب الأثر ـ الفصل التاسع ـ ص ٤٨٧ ـ الحديث ٢.

ما هي مكانة التربية من وجهة نظر الاسلام؟

اصبح للقضايا التربوية اليوم فرع خاص، إذا امكن بينوا معنىٰ التـربية من وجهة نظر الاسلام. وما هو المقصود بـ (التربية)؟!

الجواب:

التربية، هي أن يقوم المربي باطلاع كامل على خصوصيات الموضوع، فيقوم المربي بأعمال لتحريك القوىٰ الكامنة في الباطن وتنشيطها، ليسيرَ الشخص الذي يخضع للتربية بالتدريج نحو طريق التكامل. وبعبارة أخرىٰ إن التربية هي عبارة عن أن يقوم الكمال الكامن في ذاتِ شيءٍ بالفعالية والنشاط. ولتوضيح هذا التعريف نطرح مثالاً: نعتبر البُستاني مربياً، والشجرة الشيء الذي يخضع للتربية والآن لنـرَ ما يفعله البُستاني، فعمله لا يخرج عن كونه أن يوفر ظروف نمو الشَتْلة، او البذرة، وباعداد الظروف وإزالة الموانع تبدأ القوة الكامنة في الشتلة او البذرة بالظهور. ومن المسلم به أن الشتلة او البذرة لا تنمو في جميع الظروف، وإنما في ظروف خاصة تظهر (كمالاتها). وهنا لا يعدو عمل البُستاني عن أن يمتحن التربة ويغرس الشتلة او البذرة في الأرض المناسبة او الأرض المستعدة لنموها، وليس في الأرض السبخة او الصخرية، كما يقوم بازالةِ الصخور التي تمنع نمو الجذور، والاعشاب الضارة، ولتقوية الشتلة او البذرة يستخدم الأسمدة الكيمياوية او غيرها. وفي هذه الحـالة سنرىٰ ان الشتلة او البذرة تبدي (كمالاتها) الباطنية، ونشاهد الحديقة أو البستان.

البستاني لا يضيف شيئاً من عنده إلى الشتلات او البذور، وإنما يُعدُّ الأرض ويمهدها لكي تُظهر هذه الشتلات والبذور ما لديها. إن عمل البستاني يشبه عمل المربي، وهو ايجاد العوامل المؤدية للنمو والإزدهار في القوة والقدرة والإمكانيات، واما القوة والقدرة والامكانيات فهي تلك التي تتكفل التربية باظهارها، وهذا هو ما

يقوله الفلاسفة بُهذا الصدد: (التربية، هي تنمية القوىٰ والامكانيات الكـامنة في شيء).

وعليه فإن البستاني ليس خالقاً، وإنما يوجد الظروف المناسبة ويزيل الموانع، والشجرة هي التي تظهر كمالاتها ـ اي ما يكمن فيها ـ.

والآن نصل إلى التربية البشرية، إن الخالق سبحانه وتعالىٰ قد أوجد قُدُراتٍ في الإنسان، ولكن هذه القدرات، او بتعبير أفضل، هذه الاستعدادات إنما هي كوامن وأرضيات، وعلىٰ مربي الإنسان بمعرفتِهِ للمقتضيات الكامنة فيه، أن يعمل على اظهار كوامنِهِ الداخلية، أي أن يمهد لظهور الكوامن وإزالة الموانع، والآن نوضّح وجهة نظرنا بمثال:

يد الخالق سبحانه وتعالىٰ جعلت في باطن كل إنسان رغبة لمعرفة الله، وقول الحق، وإعادة الامانة، والتمسك بالطهر، ولكن جميع هذه (الكمالات) هي على شكل أرضية واستعداد كامنة في الإنسان، تماماً كالمنجم المدفون في قلب جبل. ولا بد لإخراج هذه (الكمالات) المختفية في وجود الإنسان، كما يفعل المهندس لدىٰ اخراجِهِ المعادن من المنجم، لكي تظهر (الكمالات) لدىٰ الإنسان بعد سلسلة من المساعي والجهود.

من وجهة نظر الاسلام، إن الله سبحانه وتعالىٰ كتب، بقلم القضاء الإلهي، على ضمير الطفل (كمالات) كأرضية، علىٰ لوح وجودِه، فيمتلىء ضميـره بهذه (الكمالات) التي لا تظهر هكذا في كل الظروف، وإنما على المسؤولين أن يمهدوا الأرضية لنمو هذه (الكمالات) لكي تظهر في ظروف الإقتضاء وإزالةِ الموانع.

صحيح أن الطفل، منذ اليوم الأول، وعن طريق الفطرة، يميل إلى الاعتقاد بالله، ويكون صادق العمل والقول، ولا يفكر بغير رد الأمانات، ولكن إذا كانت ثقافة البيئة ثقافة كافرة، او أن يترعرع الطفل في بيئة خيانةٍ وفسـاد، فإن جـذور (كمالاتِهِ) تحترق، او علىٰ الأقل تدفن تحت اطنان الموانع، ولهذا يجب (لتربية هذه (الكمالات)) اصلاح الثقافة، وجعل البيئة بيئةً إلهية، وقلع جذور المفسدين.

الأبعاد الأربعة لروح الإنسان:

اكتشف علماء النفس هذه الايام اربعة إحساسات تجذّرت في روح ونفس كل واحد منا، وهي:

١ ـ حس معرفة الله، او الحسّ الديني.
٢ ـ حسُّ الخير، او الأخلاق.
٣ ـ حسّ اكتشاف العلوم، أو البحث.
٤ ـ الحسّ الفني، او الرغبة في الجماليات.

علماء النفس بتوصلهم لمعرفة هذه الإحساسات الأربعة ازاحوا الشعار عن حقيقة كان ماديّو القرن العشرين يتصورون خلاف ذلك، الذين كانوا يعتقدون أن الحس الديني فكرةٌ مستوردة من خارج ضمير الإنسان وليست لها جذور فطرية. ولكن مع إثباتِ هذا البُعد من روح الإنسان ـ ويمكن تسميته بالبُعد الرابع لروح الإنسان مقابل الأبعاد الثلاثة الأخرىٰ ـ تثبت حقيقة فطرة الدين. والعلوم التجريبية التي يعتمد عليها علمُ النفس اليوم، سارعت لتأييد الوحي الإلهي، وإن كان الوحي لا يحتاج إلىٰ تأييد. والآن إليكم شرح هذه الإحساسات الأربعة:

١ ـ لولا أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يودع في باطن الإنسان حب الجماليات والصناعات الفنية، لما رَغَبَ الشبان في الرسم، ولما رسم اللوحات الجميلة والتصاوير الجذّابة. ولو أن مثل هذا الحب الباطني لم يكن لدىٰ الإنسان لما ظهر فن القاشاني، والتذهيب، وانواع المعارض والفنون، وربما أمضىٰ رسامٌ او فنان مئات الساعات لعمل فني واحد دون أن يفكر بالقيمةِ المادية لعملهِ هذا. إن جميع هذه المساعي والجهود للفنانين إنما هي لإشباعِ الرغبات الباطنية.

٢ ـ يمضي العلماء الساعات حتى منتصف الليل في الغرف الرطبة وفي ظروف غير مساعدة وفي حياة فقيرة، بالمطالعةِ والتحقيق، ربما نسوا الطعام والنوم، وقطع ارتباطهم، بشكل مؤقت، مع جميع الأحداثِ المادية. إن مثل هذه الرغبات

لا يمكن أن تكون (مستحدثة) أو (مستورَدَة)، فإن الإنسان لا يمكنه أن يتحمل العناء لولا الرغبة الباطنية والدافع الفطري في هذا العمل.

٣ ـ توجد في جميع افراد البشر رغبة للخير والاخلاق، ودليل ذلك؛ إن خيانة العهد بين جميع افراد القارات تعتبر عملاً قبيحاً، والوفاء بالعهد يعتبر عملاً حسناً لدىٰ الجميع وضرورياً، ولا يوجد شعب يحبذ الظلم والاستبداد، ولا يمكن أن يُردَّ عمل العدل لدىٰ اي شخص ومن ذلك يمكن اكتشاف جذور مثل هذه الرغبات، وهو أن جميع هذه الرغبات لها جذورٌ في خلقة الإنسان، أي أن مثل هذه الرغبات ممتزجة مع وجودنا.

٤ ـ بعد شرح الإحساسات الثلاثة، يجب التوجّه إلى الحس الرابع، الحس الديني. نظرة مختصرة إلى وجود الدين بين الشعوب، والرغبة في مسائل ما وراء الطبيعة بين افراد البشر، هي دليل علىٰ فطرةِ الحاجةِ إلى الدين، واليوم يؤيد علماء الحضارات أن اقدم الأفكار لدىٰ ابناء البشر، هي فكرة (الله) والشؤون المتعلقة بالعبادة والدعاء، ويُوجد في جميع الحضارات نوع من الرغبات الدينية تلفتُ النظر، طبعاً أن الكثير من هذه الشعوب اضاعوا الهدف فأمتزجت مذاهبهم، بالخرافات المختلفة، واعتقدوا بأشياء واعتبروها (ربّاً) واقعياً، وتصوّروا المجازُ حقيقةً. ولكن رغم كل ذلك كان هناك (حسٌّ) بينهم، هو (حسٌّ) علاقة الإنسان مع موجودٍ يتفوّق عليه.

إن تلوث هذا الحس بالخرافات لا يقلل من فطرة الحس الديني. انكم لو ركبتم ايام الجمعة والأحد الطائرة، وجِبْتُم القارات المختلفة في العالم بطائرتكم، لسمعتم نداء (الله اكبر) او اصوات النواقيس في كل مكان، وهذا يدل علىٰ الرغبة في الدين، وهذه رغبةٌ باطنية تنبع من اعماق وجود الإنسان. وليس أن هناك مجموعة قامت بحقن هذا النوع من الأفكار. إن فكرة (مستورَدَة) لا يمكن أن تكون شائعة هكذا بين الجميع وتبقىٰ ثابتة، وهنا نتلمس قيمة الآيات حول فطرةِ مبدأ الدين، او الرغبة في الخيرات، والتنفر من المساوىء. والآن نوردُ بعض الآيات بهذا الصدد:

الآيات الخاصة بالفطرة:

١ ـ ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديل لخلقِ الله ذلك الدين القيم ولكنَّ اكثرَ الناس لا يعلمون﴾[١].

في هذه الآية تم تعريف أن الدين امر فطري، يريده الإنسان من اعماقِه، والمقصود بـ (الدين)، هو اصولُه، كالإلتجاء إلى الله، او طلبِه، والتوحيد، والعدل، والأصول الأخرىٰ.

٢ ـ ﴿ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾ [٢].

من المسلّم به ان هذا الإلهام لا يشبه إلهامَ الأنبياء، وإنما يسمعه الإنسان من الاعماق، ولهذا السبب فإن الإنسان يُشخِّص الطيـب من الخير عن طريق الباطن. من منا لا يعرف أن العدل والإحسان والخير طيباً، والظلم والإستبداد قبيح وخبيث؟ والإنسان حتىٰ ولو لم يطّلع على أية نظرية، ولم يعلم شيئاً عن آراء الفلاسفة عن الطيب والخبيث، الحُسن والقبح، فإنه لا يشـك ولا يتردد في أن العـدالَة حَسَنٌ والظلمُ قُبْحٌ.

٣ ـ ﴿وهديناه النجدين﴾ [٣].

بهذا الصدد هناك آيات وروايات اخرىٰ تدل كلها؛ ان هناك رغبات في باطن الإنسان، لم يتعلمها من أي معلمٍ او مربي.

إن الشيوعية منذ اكثر من سبعين عاماً بسطت ظلها المشؤوم على بلاد الروس والكتلة التابعة لها، وسعت كثيراً لقلع جذور الدين، وتوسلت، في هذا المجال، بشتىٰ الحيل، والاكاذيب، والبرامج والمسرحيات لإخلاءِ قلوب المؤمنين من (الله) تعالىٰ ولكنها لم توفق في الباطن، بحيث إنه لو تم قطع أغلال أسر الشيوعية من

---

(١) سورة الروم الآية (٣٠).

(٢) سورة الشمس الآية (٨).

(٣) سورة البلد الآية (١٠) (أي علمناه طريق الخير وطريق الشر) الميزان ج ٢٠ ـ ص ٢٩٢. (المترجم)

أيدي وأرجل ابناء الشعب في تلك البلاد لأتضح كيف أن الناس جميعاً يبدأون التوجّه بحماس نحو الكنائس والمساجد، والاصلاحات الأخيرة اظهرت هذه الحقيقة[1].

إن كل ذلك يدل على وجود جواذب خاصة في باطن الإنسان امتزجت مع وجودِه، اي انه مثلما يشعر بالجوع والعطش باطنياً، ويطلبُ ذاتياً المنصبَ والثروة، كذلك يطلب باطنياً الله، سبحانه وتعالى، واشاعة العدل، ونشر الخير.

ظروف تبلور (الفطرة):

مع أن مثل هذه القضايا يا تنبع من باطن الإنسان، ولكنها لا تتبلور في كل الظروف ولا تظهر، لذا فإننا لنمو وازدهار الأمور الفطرية نحتاجُ إلىٰ تربية، يعني إزالة الموانع من الطريق وايجاد المقتضيات للنمو والتكامل، أي نعمل علىٰ أن تكون العلاقة بالدين اكثر حياةً، وبالخير اكثر بروزاً، وبالعلم اكثر عياناً، واخيراً تكون العلاقة بالفن والجمال الباطني اكثر وضوحاً.

ليس فقط أن ظهور هذه الغرائز تحتاج إلى تربية، بل إن جميع الغرائز كذلك.

إن الرغبة الجنسية، وهي رغبة طبيعية وباطنية، لا تنمو في بعض الظروف فلا يميل الإنسان إلى الزواج، في هذه الحالة، وانما في الظروف المساعدة والمناسبة تظهر هذه الرغبة. وطبقاً لذلك يجب القول؛ إن المربين لا يخلقون شيئاً، بل إنهم مساعدون للإنسان لكي يصل إلى قمةِ السعادة. او بالأحرىٰ هم مذكِّرون وليسوا خالقي شيء جديد، والمربي لا يعلم الطفل تعليماً جديداً وكلاماً جيداً، وإنما يزدهرُ ويَشرُقُ ما تعلمه الطفل في مدرسةِ الفطرة علىٰ يد المربين.

---

(١) كتب هذا البحث قبل انهيار الشيوعية وزوالها، وهو يدل على صدق تحليل المؤلف العلامة جعفر سبحاني حيث تحقق ما كان يتوقعه، إذ عادت الشعوب الاسلامية التي خضعت اكثر من سبعين عاماً للشيوعية عادت إلى الدين الاسلامي رغم عدم معرفتهم الشيء الكثير عن دين اجدادهم.

(المترجم)

إن عمل المربي يشبه تماماً عمل مهنـدس النفط. إن المهندس لا يخلق الطاقةَ في باطن الأرض أو المادة. بل إنه بتدبيره وفكرِه يعمل على إخراجِ هذه القوة من تحت آلاف الاطنان من التراب، ويضعها تحت تصرف الآخرين.

وهكذا... فهو في الحقيقة لا يعلم الطفل كلاماً جديداً او فكرة جديدة، وإنما يعمل علىٰ تذكيره بما هو كامن في باطنِهِ، والذي لا يظهر منه سوىٰ ظل طفيف، ثم إستحكام هذه القوةِ الكامنة.

الأنبياء معلمو البشر:

في خطبتهِ الأولىٰ، في نهج البلاغة يُعرّف اميراً المؤمنين الامام علي (ع) الأنبياء باعتبارهم مذكِّرين قبل أن يكونوا مجدّدين. بعبارة اخرىٰ أن الأنبياء مربّين للرغبات الباطنية للإنسان، قبل أن يكونوا معلمين، وعبارةُ امير المؤمنين (ع) هي:

- «**فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم انبيائه، ليستأدوهم ميثاق فطرتِه، ويذكِّروهم منسيَّ نعمته، ويحتجوّا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول**»[1].

كما تلاحظون فإن جُمَل (ميثاق فطرته) و(منسي نعمته) و(دفائن العقول) إشارة إلىٰ أن القسم الاعظم من برامج الأنبياء هي تذكير بأمور فطرية وإعادة الإنسان إلى معلوماتِهِ الباطنية، التي ربما يُتَغافل عنها بفعلِ الثقافات والمجتمعات الفاسدة، وتُنسىٰ.

وهنا، ومن بحثنا الواسع عن شرح التربية وواجب الأنبياء (ع)، نذكِّرُ بشكل مختصر موضوعين:

١ ـ من هو المربي، وما هي التربية؟

الجواب: المربي هو ذلك الشخص التي يمهد الظروف لنموِ شيءٍ موجود، فيؤدي إلى سرعةِ تكامله، ويقوّمه من الاعوجاج، تماماً كالبستاني.

---

(١) نهج البلاغة خطبة (١).

٢ ـ الأنبياء (ع) قبل أن يكونوا معلمين للبشر، هم مربّـون لهم، وقبل أن يكونوا مجددين، هم مذّكِّرون. ولكن هذا لا يعني أن جميع تعليمات الأنبياء (ع) (تذكّر)، وإنما لتعاليمهم جذور باطنيـة، والأنبياء أرسلوا لتنميتهـا وازدهارهـا ولذا يخاطبُ القرآن الكريم النبي (ص) هكذا:

ـ ﴿**فذكّر إنما أنت مذكّر، لست عليهم بمصيطر**﴾[1].

من وجهة نظر الإسْلام أن الانسان له شخصيتان ونوعان من الروحية:

١ ـ الشخصيّة الذاتية.

٢ ـ الشخصيّة العرضية.

الشخصية الذاتية هي تلك الروحية الطاهرة غير الملوثة التي وضعها الخالق سبحانه وتعالىٰ في ذاتِ كل إنسان، ويقول الرسول الأكرم (ص) بهذا الصدد:

ـ «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة، ثم أبواه يُهوّدانه أو يُنصّرانه أو يَمجسانه**»[2].

الشخصية العرضية؛ هي تلك الأفكار المستَورَدَة التي تخلق حجاباً من الثقافة الطاغوتية، والبيئة الفاسدة، وأصدقاء السـوء، أمامَ الفـطرة، ويغرق الإنسـان في الأفكار المستوردة لدرجة أن نور الفطرة يختفي تحت ستار او حجاب هذه الأفكار.

وهنا يجب أن يعرف المربون واجبهم الخطير، ويقـودوا شبابنـا بالمبـادىء الصحيحة نحو الدين، والاخلاق، والسجايا الإنسانية.

الحياة الخاسرة:

وهنا يوجد هذا السؤال: إذا كان كل إنسان قد خُلِق بفطرة طاهرة فلماذا يصف (الله) تبارك وتعالىٰ الإنسان بهذه الآيات:

ـ ﴿**والعصر إنَّ الإنسانَ لفي خُسر..**﴾[3].

---

(١) سورة الغاشية الآية (٢١) و(٢٢).

(٢) التاج ٤ ص ٨١، تفسير البرهان ج ٢ ص ١٦٢ الحديث ٢.

(٣) سورة العصر الآية (١).

الجواب: مفاد الآية هو ان الأضرار التي تصيب الإنسان هي عرضية وليس لها علاقة بفطرتِه الطاهرة، والمقصود هو أنْ يفقد الإنسان نتاجَ عمرِهِ دون أن يدّخر شيئاً، لأن الإنسان يولد ومعه (ملاكات)، او رؤوس اموال، واستعدادات كافية، فلو استفاد منها لوصل إلى قمة السعادة، ولكن احياناً ولعوامل سيئة فإنه يغفل عن هذه الملاكات ـ او رؤوس الأموال ـ فيصرف عمره في شيءٍ لا ينفعه في الآخرة. مثلُ هذا الشخص يصرف او يبدل عمره إلى الدولار والريال.. يصرفُ رأسَ ماله الثمين لصحتِه وشبابِه في بناء ناطحات السحاب والحصول علىٰ القدراتِ الجهنمية. مثل هذا الشخص خاسرٌ وضارٌ، لأنه صرف العمر في شيءٍ لن ينتفع منه، بينما كان بإمكانه وبإستلهامٍ من الفطرة ـ التي تدعوه للقيام بأعمال الخير ـ وباتباع تعاليم الأنبياء، أن يصل إلىٰ السعادة، حيث انه لو استخدمَ رؤوس الأموال هذه لكان بامكانِهِ أن يدّخر شيئاً أُخروياً. والقرآن الكريم، في هذا المجال، يستثنى المؤمنين ويقول: ﴿**إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات**..﴾[1].

وطبقاً لهذه الآية فإن المقصود هو الاستفادة من العمر ورؤوس الاموال التي وَهَبَها الله عز وجل للإنسان ولكن مجموعة من البشر لا تستفيد منها، ومجموعة اخرىٰ عكس المجموعة الأولى، وهذا الأمر ليس له أي ارتباطٍ بالقضايا الفطرية.

وهنا نذكّر بنقطةٍ، وهي: إن القرآن الكريم يُبدي رأيين بالنسبة للإنسان في مكان يعرِّفُهُ بأنه خليفته علىٰ الأرض، فيقول. ﴿..**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[2]. وفي آية اخرىٰ إنه (اي الإنسان) كان ﴿..**ظلوماً جهولاً**﴾[3].

إن هٰذين الرأيين، او التعريفين، لا يتنافىٰ أحدهما مع الآخر، لأن المدحَ في الأولىٰ يتعلق بالإنسان الذي كان على طريق الفطرةِ ولم ينحرف عن الجادة التي رسمها الإنبياءُ له، بينما التثريبات فيوردها القرآن الكريم لأولئك الذين سقطوا في

---

(١) سورة العصر الآية (٢).
(٢) سورة البقرة الآية (٣٠).
(٣) سورة الأحزاب الآية (٧٢).

مستنقع الضلالة بفعل مثلث ملوّن، وهذا المثلث هو الاسرة الطاغوتية، والثقافة الطاغوتية والمجتمع الطاغوتي.

عن هذا الطريق يمكن الحصول على الكثير من المفاهيم القرآنية، فكما أن المثلث الملوّث ينحرف بالشاب، كذلك فإن مثلثَ الخير يُوصلُهُ إلىٰ السعادة، وربما كان أحد اضلاع مثلث الخير يُحدِثُ تحوّلاً عظيماً لدىٰ الشاب، والتاريخُ شاهدٌ حي على مثل هذا النوع من التربية.

عمر بن عبد العزيز ثمرة من ثمرات الشجرة الخبيثة لبني أُمية، ومما لا شك فيه؛ ان الشجرة الخبيثة تُعطي ثماراً خبيثة، ولكن احياناً يقومُ البستاني بتلقيح مبارك وطاهر فتعطي الشجرة ثماراً طيبة وحلوة بدلاً من الثمار المُرّة.

كان عمر بن عبد العزيز كبقية ابناء آل بني أُمية يتحدث بسوء عن الإمام علي (ع)، وذات يوم وبينما كان معلمه يمرُّ بالقربِ منه سمعه يتحدث بصوت عال مسيئاً للإمام علي (ع)، فلم يقل له شيئاً بل ذهب إلى المسجد مباشرةً بانتظار مجيء عمر بن عبد العزيز لإلقاء الدرس، وقد كانت حلقات الدرس تُعقد في المساجد في تلك العهود، وعندما دخل عمر بن عبد العزيز المسجد وحضر حلقة الدرس وجد الاستاذ عابساً، ثم وصل الحديث إلى حيث قال الاستاذ لعمر:

- إن علياً عليه السلام من أبطال الاسلام اشترك في بدر وأُحد والاحزاب وحنين، وإن الله سبحانه وتعالىٰ اعلن رضاه عن التابعين له، وفي هذه الحالة كيف تجسر على الإساءة إليه؟

كان عمر بن عبد العزيز يعتقد بصدق وصفاء قلب استاذه، ولذا أظهر أنه يجهل كل شيء، وقال:

- إنني حتىٰ الآن لم اكن اعرف شيئاً عن مقام (علي) في الاسلام، وانني لأعلنُ توبتي عن عملي هذا[1].

---

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٥٨ (ابن ابي الحديد - بتصرف).

ما هو الشرط المهم في المربي؟

يجب توفر شروط مختلفة في المربي، بينها شرطان مهمان، احدهما أن يكون مُلماً بشيءٍ مما يقوم بتربيتِه، مثلاً البستاني إن لم يكن خبيراً بالزراعة والتربة ويعرف شروط تربية الشجرة في المنطقة المعينة، فإن جميع زحماتِهِ تذهب هدراً، كذلك مربي الطفل يجب أن يعرف الرغبات الباطينة وموانع النمو وكيفية إزالة هذه الموانع، وإلّا فإن جهوده تذهب ادراج الرياح.

والشرط الآخر هو أن يكون مؤمناً بكلامِهِ، فإذا كانْ عمله يكذب قوله فإنه لن يستطيع أن يقوم بدور المربي ابداً، لأن التلميذ يركز إهتمامه في حديث وعملِ المربي. فإذا أحسّ بازدواجية واختلاف بين القول والعمل فإن جميع الجهود تذهب هدراً، ولذا قال القرآن الكريم: **﴿يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾**[1].

النموذج البارز في هذا المجال، عمل النبي الأكرم (ص) فإنه (ص) كان يفعل ما يقول، فإذا قال يجب أن لا تغفلوا عن دعاء وصلاة منتصف الليل، فإذا كان يصلي ويدعو لدرجة نزلت في حقِهِ الآيات التالية في القرآن:

- **﴿طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقىٰ إلّا تذكرةً لمن يخشىٰ﴾**[2].

فلو أن الرسول الأكرم (ص) أمر الناس بالجهاد وقتال الأعداء فإنه (ص) كان في المعركة يقترب من العدو لدرجة كان يقول اميرُ المؤمنين الامام علي (ع) إن النبي (ص) كان اقرب الناسِ إلى العدو في ميادين القتال. وكذلك كان «النبي (ص) في العمل بالأوامر النورانية هو أول القائمين بها».

وهنا نورد حديثاً عن (العالِم)، والمقصود هو (المربي) قال الإمام علي (ع):

- **«العالم من عمل بعلمِه، فمن لم يعمل بعلمِه فليس بعالِم»**[3].

---

(١) سورة الصف الآية (٢ و٣).

(٢) سورة طه الآية (٢ و٣).

(٣) اصول الكافي ـ الكليني ص ١٨ الطبعة القديمة.

هل الخطيئة، تفقد قوة التشخيص لدىٰ الإنسان؟

يستفاد من الروايات والأحاديث الإسلامية أن الإمعان في الخطيئة ومعصية الله عز وجل يقضيان علىٰ العقل والفكر وحسن التشخيص لدىٰ الإنسان، والآن تفضلوا بالإجابةِ عـن ما هو تأثير الخطيئة علىٰ تشخيص الإنسان وكيف تقضي عليه؟!

الجواب:

إن قيمة الإنسان الحقيقية تكمن في عقله وتشخيصه الصحيح، وكلما كان تقييمنا واقعياً وصحيحاً، فإن شخصيتنا ترتفع بنفس المقدار. وبالعكس، كلما كان حس تشخيصنا وتقييمنا عن الحقائق ضعيفاً، نبتعد عن مقام الإنسان الواقعي بنفس النسبة، ونفقد قيمتنا.

إن اضطراب، وعدم تعادل حس التشخيص معلولُ مرض خاص يسيطر على نفس وروح الإنسان، مثلاً الاشخاص المصابون بمرض (اليرقان) يرون كل شيء بلونٍ أصفر، وسوء تشخيصهم مَردُّهُ المرض، ولذا فإنهم بعد تحسن حالهم تماماً يعودون إلى رؤية كل شيء كالسابق.

إن ارتكاب الخطيئة مراراً، هو مرضٌ نفسي يعشعش في روح الإنسان وبنفس النسبة التي تسيطر القوىٰ الشيطانية على العقل والفكر فإن هـذا المرض ينتشـر، ويتجذر في اعماق الروح.

واذا تم، في الأيام الأولى للمرض، إبطال التأثيرات السيئة (وذلك عن طريق الإهتمام بالمباني الدينية او معرفة المفاسـد الاجتماعيـة والفرديـة التي تؤدي إلىٰ الخطيئة) فإن جذور الخطايا تحترق ويقضىٰ عليها، ويعود الروح إلى البيئة السليمة.

ولكن إذا استمر الإنسان في الخطيئة، ففي هذه الصورة، تُخلَقُ حالة خاصة

ينسىٰ فيها الإنسان الصورة السيئة للخطيئة، حيث تأخذ الخطيئة حالة أمرٍ طبيعي، ويأخذ فاعل الخطيئة شكل الخطيئة نفسها. إن تكرار الخطيئة لدىٰ الإنسان توجد لديه حالة الإدمان عليها، ولا يجد لنفسِهِ راحةً إلّا فيها، ويتصورها ضرورة حياتية له.

مثلاً إن الشخص المدمن علىٰ الأفيون، فإنه، في الأيام الأولىٰ لـلإدمان، يُصابُ بحالةٍ أن العين تدمع، ويسيل المخاط من أنفِه، ويعطس ويسعل، لأن عمله مخالف لعمل الإنسان السليم، ولكن الإصرار على تدخين تلك المادة المخدرة، يجعل من الشخص مدمناً، ويصبح له التدخين هذا ضرورةً في تصورِه.

وبما أن الإنسان خلق فطرياً، منزهاً، وطاهراً، فإنه في الأيام الأولىٰ يستقبح كل عمل سيء، هذا في حالة ان الإنسان يرىٰ الخطيئة عملاً مخالفاً، ولكن بتكرار الخطيئة، فإنها تُصبح عملاً ثانوياً، أي الشخصية الثانية لـه. وهنا يكـون حس الشخصية قد تغيّـــر ويأخذ القبيح والحَسَن صورةً اخرىٰ في نظره. وهذه اللحظة من اللحظات الخطرة، التي يقول فيها القرآن الكريم:

- ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سَمْعِهِمْ وعلى ابصارهم غشاوة﴾[1].

* * *

(١) سورة البقرة الآية (٧).

من هـو الشاعـر المقبول والمـرفوض من وجهـة نـظر القـرآن الكريم؟

وردت آيات في سورة الشعراء تذم الشعر والشعراء، فهل الاشعار الـدينية والاخلاقية والاجتمـاعية التي لهـا اهداف سليمـة في تحريـك المشاعـر الطاهـرة والتربوية والإنسانية السامية، تشملها هذه الآيات؟

الجواب:

اولاً يجب ملاحظة حقيقة الشعر الشائع في عهد الجاهلية وفجر الاسلام، ثم معرفة هدف الآية من ذم الشعراء.

الشعر في ذلك العهد، كان مجرد مجموعة من الأوهام التي لا اساس لها، ولهدفٍ مادي بحت صُبَّ في قـالبٍ من النظم، ويقـرأ في المحافـل الصغيرة او الكبيرة للمفاخرة والغرور او الطعن في الخصم وتحريك وتحريض افراد القبيلة علىٰ القتال والسلب والنهب[1]، والقصد من هذا النوع من الشعر هو أهداف ماديـة او أحاسيس جنسية او التشجيع علىٰ القتال وسفك الدماء، وغير ذلك.

إن الشعر الجاهلي، مظهرٌ لسلسلةٍ من العواطف الإنسانية الكاذبة والمشاعر المادية الـواطئة، ووسيلة لمغـازلة الغـواني، والمعاشقـة مع النسـاء والفتيات، او توصيف الوجوه واعضاء جسم المعشوقات، والإساءة ونميمة الصالحين، ومدح وثناء الظالمين، والتملق عند الأقوياء والأغنياء.

---

(١) نموذج هذا الشعر المعلقات.

والجدير بالذكر أن الشاعرَ الذي يكون دافعه المنافع وإرضاء الغرائز الحيوانية، ولا يحظىٰ بالمواهب المعنوية والتربية الإنسانية الصحيحة، مثل هذا الشخص لا يعرف لنفسِهِ حدوداً، ولا يحجم عن إحياء الباطل، وإخفاء الحق، وسحق الضعفاء، والتعرض للنواميس، وإشعال أوار شهوات الشباب والعشرات من الأمور القبيحة والمرفوضة.

حقاً أن الحديث، او الكلام، يكشف عن هوية شخصية الإنسان ونفسياته والكلام، نثراً او نظماً، مظهر لفكر وضمير قائله.

والقرآن الكريم يقول عن هؤلاء الشعراء الذين لا هدف لهم سوىٰ تأمين مصالحهم المادية وارضاء مشاعر الجنسية اللامشروعة وغرائزهم الحيوانية:

- **﴿والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون﴾**[1].

يُستفادُ من هذه الآيات، أن هدف القرآن الكريم تلك الفئة من الشعراء الذين يفتقدون للمباني الدينية والحراسة الباطنية للصفات التالية:

١ - يتبعهم الغاوون؛ اي يقودون الضالين.

٢ - في كل واد يهيمون؛ لا حدود لأقوالهم، يظهرون الحق باطلاً والباطل حقاً للناس.

٣ - وانهم يقولون ما لا يفعلون؛ بما انهم لا يعتقدون فيما يقولون لذا فإن عملهم يخالف أقوالهم.

لذا فإن اي نوع من القصائد يُبينُ فيها قائلها الحقيقة بمشاعر صادقة وعن عشقٍ للحقيقة، ومجاهدة للباطل، ودعوة لأعمال الخير، يكون هذا الشعر والشاعر مشمولاً بالآياتِ الأخرىٰ التي تأتي بعد تلك الآيات كاستثناء؛ كهذه الآية:

---

(١) سورة الشعراء الآية (٢٢٤ - ٢٢٦).

ـ ﴿إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدما ظُلموا﴾[1].

لا يُخفىٰ أن أي قائل او شاعر تنبع أفكارُه واقوالُه من الإيمان بالله، والعمل الصالح، وذِكر الله، والإنتقام من الظالمين، فإن حديثه وشعره لا يحتوي إلاّ على الحكمة والموعظة، واشاعة الحق، وإزهاق الباطل، وقد قال الرسول الأكرم (ص) عن هذه الفئة:

ـ «إنّ من الشعر لحكمة»[2].

لذا عندما سُئل الإمام الصادق (ع) عن معنى الآية المذكورة قال: المقصود هم الفئة من شعراء الجاهلية الذين كانوا ينظمون للتسلية غير السليمة[3].

ونقل المفسرون، إنه عندما نزلت الآية المذكورة أخذ جميع الشعراء في عصر الرسالة بالدفاع عن الاسلام والمسلمين، ثم حضروا امام الرسول الأكرم (ص) وقالوا: إذن إن حياتنا كانت ضياعاً. في هذا الوقت نزلت الآية (إلاّ الذين آمنوا) إلى آخرها، فأستثنت تلك الفئة المؤمنة من الشعراء الذين يعشقون الحق والمعنويات.

الشعراء لدىٰ الأئمة المعصومين (ع):

لا يمكن انكار تأثير شعرٍ تعليمي مفيد في روحية المجتمع، ويكون احياناً ذا قدرة خلاّقة لا يحل محلّه شيء آخر. ولهذا السبب فإن الأئمة (ع) كانوا يستقبلون الشعراء الملتزمين دائماً ويحترمونهم ويشملونهم بمحبتهم.

في اليوم الذي آستُجيب دعاء النبي (ص) بنزول المطر ذكر عمَّه ابا طالب (رض) فقال لو كان ابو طالب حيّاً لفرح لهذا المشهد، هل هناك من يقرأ لنا شعره؟ فقام أحدهم وقال: ايقصد رسول الله هذا البيت:

وما حملت من ناقة فوق ظهرها ... ابرَّ وأوفىٰ ذمّة من محمدٍ

---

(١) سورة الشعراء الآية (٢٢٧).

(٢) من لا يحضره الفقيه ج ٤ باب النوادر، ـ الدر المنثور ـ للسيوطي ذيل الآية المذكورة.

(٣) اعتقادات الصدوق، وراجع مجمع البيان ج ٤ ص ٢٠٨.

فقال النبي (ص): هذا من شعر حسان بن ثابت، فقام الإمام علي (ع) وقرأ بعضَ اشعار أبيه، أبي طالب، وأولها هذا البيت:

وأبيضَ يُستسقىٰ الغمامُ بوجهِهِ ثَمال اليتامىٰ عصمةٌ للأراملِ

ثم قام أحدُ بني كنانة وطلب الأذن بقراءةِ بعض الاشعار عن رسول الله (ص) فسمحَ له، فقرأ اشعارَهُ، فدعا له النبي (ص) وقال:
- لك لكل بيت قلته بيت في الجنّة.

إن تقدير الإمام السجّاد (ع) للفرزدق، والإمام الصادق (ع) لهاشميات الكميت، والإمام الرضا (ع) لدعبل الخزاعي، معروف ومشهور.

ونظراً للآثار البارزة للشعر في ميدان الدفاع عن الحق وإحياء الحقيقة، فقد قال النبي الأكرم (ص) عندما سأله عبد الرحمن بن كعب عن الشعر:
- «**إن المؤمن مجاهد بسيفهِ ولسانه فوالذي نفسي بيده لكأنما ينضحونهم بالنبل**»[1].

* * *

(١) مجمع البيان ج ٤ ص ٢٠٨ طبعة صيدا.

ما هي الحكمة من استلام (الحجر) والسعي بين الصفا والمروة؟

مكافحة الشرك واي نوع من انواع الوثنية في مقدمِة برامج الأنبياء، يقول الله عز وجل:

- ﴿وما ارسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه انه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾[1].

هذه الآية تبين بوضوح أن محو مظاهر أي نوع من الشرك، في اي عهد من العهود، من اساس واجبات الأنبياء (ع). وبملاحظة هذا المبدأ، فإنه تشاهد أعمالٌ في الصلاة ومراسم الحج، هي في الظاهر لا تتلائم مع مبدأ التوحيد، مثل التوجّه إلى الكعبة وما هي إلاّ أحجار وطين، أو وضع اليد علىٰ (الحجر الأسود) وهو لا يعدو جماداً، او السعي بين جبلين بأسماء (الصفا) و (المروة)، وأمثال ذلك، والآن يُطرح هذا السؤال:

ما هو سر هذه الواجبات والاعمال؟ وبماذا يفرقُ عن اعمال الوثنيين؟!

الجواب:

قبل أن نوضح اسرار هذه الأعمال، نقول إن هذا السؤال له ماضٍ قديم، فقد جاءَ ابن أبي العوجاء، رئيس ماديّي عصرِهِ، مع جماعةٍ له إلى الإمام الصادق (ع)، وقال: إن الحديث الذي سأقوله امامك يجب أن يبقىٰ سراً لا يخرج عن هذا

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥.

المكان، فلكل إنسان الحق في أن يسأل عن مشكلتِه، فهل تسمح لي بسؤالك[1]؟! فقال الإمامُ الصادق (ع): اسأل ما بدا لك، فقال: ـ «إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير، فهناك من فكرّ في هذا وقدّر بأنه فعل غير حكيم ولا ذو نظر فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه». فقال الصادق (ع): إن من أضله الله وأعمى قلبه استوهم الحق فلم يستحث به، وصار الشيطان وليّه وربّه يورده مناهل الهلكة ولا يصدره، وهذا بيت إستعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارتِه، وجعله قبلة للمصلين له، فهو شعبة لرضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانِه، منصوب على استواء الكمال ويجمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر وأنتهي عما زجر، هو الله المنشىء للأرواح والصور.

فقال له ابن أبي العوجاء: فأحلت على غائب.

فقال الصادق (ع): «كيف يكون يا ويلك غائباً من هو مع خلقه شاهد، وإليهم اقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويعلم اسرارهم، لا يخلو منه مكان ولا يشغل به مكان، ولا يكون إلى مكان اقرب من مكان، تشهد له بذلك آثاره، وتدل عليه افعاله، والذي بعثه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة محمد رسول الله (ص) الذي جاءنا بهذه العبادة، فان شكلت في شيء من أمره فأسأل عنه»[2].

إن الهدف من نقل هذا القسم هو للإشارة إلى أن هذا السؤال قديم.

١ ـ سر التوجّه إلى الكعبة في الصلاة:

خلافاً لما كان يفكر فيه ابن أبي العوجاء الرجل المادي في عصر الإمام

---

(١) أصل العبارة هي: يا ابا عبدالله إن المجالس أمانات ولا بد لكل من به سعال أن يسعل افتأذن لي في السؤال؟.

(المترجم)

(٢) أوردنا العبارات بنصها (المترجم).

الصادق (ع)، ليس التوجه اثناء الصلاة للكعبة هو عبادة الكعبة او حجراً وطيناً، فجميع المصلين يعبدون الله تبارك وتعالى، وهم عندما يتوجهون للكعبة يقولون: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾**، والسبب من التوجّه للكعبة عند الصلاة هو أن الكعبة أقدم معبدٍ وبيتٍ للتوحيد بني على يد الأنبياء الكبار لله عز وجل لأهل التوحيد، ولا يوجد معبد يوازيه قِدماً، كما يقول القرآن الكريم: **﴿إن أوَّلَ بيتٍ وضِعَ للناس لَلَّذي ببكة مباركاً وهُدىً للعالمين﴾**[1].

لقد اوجب الدين الاسلامي المقدس على جميع المصلين، لإيجاد الوحدة بينهم، أن يقرأوا الصلاة بلغةٍ واحدة، وأن يتجهوا جميعاً نحو أقدم معبدٍ لدىٰ الصلاة، ليحفظوا عن هذا الطريق وحدتهم وعبادتهم، وهذا يعني أن يقول الملايين في وقت واحد كلاماً واحداً، ويتجهوا إلى نقطةٍ واحدة، ويعلنوا عن وحدتهم وانسجامهم، ولذا فإن التوجه إلىٰ هذا المعبد ليس لعبادتِه، وإنما لكونه رمزاً للوحدةِ عند العبادة.

في الحقيقة أن المسلمين، في صدر الاسلام، كانوا يقيمون الصلاة جماعةً، وصلاة الجماعة من المستحبات المؤكدة في الاسلام. فإذا كانت جماعةٌ تريد الصلاة فلا بد عليهم جميعاً أن يتجهوا وجهةً واحدة، وإلّا لما أمكن أداء هذه الفريضة. وكان الرسول الأكرم (ص)، لهذا السبب، يصلي مع جميع المسلمين متجهاً نحو (المسجد الأقصىٰ) ـ وهو ايضاً معبد إلهي ـ ولكن، في الشهر السابع عشر من الهجرة، ولأسباب ستذكر في موضعها، صدر أمرٌ للمسلمين اينما كانوا أن يتجهوا إلى البيت الحرام الذي يضم الكعبة. يقول الله عز وجل: **﴿.. فولّوا وجوهكم شطرَه﴾**[2].

الامام الصادق عليه السلام لَفَتَ نظر المعترض كبير ماديي عصرِهِ إلى اسرار التوجه إلى الكعبة عند الصلاة فقال: «وهذا بيت استعبد الله به خلقَه ليختبر طاعتهم

---

(١) سورة آل عمران الآية (٩٦).

(٢) سورة البقرة الآية (١٤٤).

في اتيـانِه فحثهم على تعـظيمة وزيـارته، وجعله قبلةً للمصلين لـه، فهـو شعبـة لرضوانِه، وطريق يؤدي إلى غفرانِه».

٢ ـ لماذا نلمس الحجر الأسود؟

يستفاد من الأحاديث الاسلامية أن بناء الكعبة كان قبل ابراهيم الخليل عليه السلام، وأن حائطه قد تهدم اثناءَ طوفان نوح عليه السلام، ثم أُمر ابراهيم (ع) أن يُعيد بناء المعبد الاول، وبأمر الله عز وجل وضع الحجر الأسود الذي كان جزءاً من جبل أبي قبيس داخلَ حائطه.

والآن يأتي هذا السؤال: لماذا نلمس هذا الحجر، وما الهـدف من ذلك؟ وجواب هذا السؤال هو؛ إن وضع اليد على الحجر هو نوع من انواع التعاهد مع ابراهيم النبي (ع) ونبي الاسلام (ص) في أن نحـارب أي نوع من انـواع الشرك والوثنية، وأن لا ننحرف عن التوحيد في جميع مراحل الحياة.

إن البيعة مع شخص تكون حيناً بالمصافحة وضغط اليد، وحيناً بلمس طرف لباس شخص، وحيناً بأشكال اخرىٰ. ونقرأ في التاريخ أنه عندما نزلت هذه الآية: ﴿**يا ايها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يُشركن بالله شيئاً. .**﴾[1]، فأمر النبي (ص) بأن يأتوا بوعاء ماء، فوضع يده في الماء ثم سحب يده من الوعاء وقال: من اراد منكن المبايعة فلتضع يدها في الماء وتبايع طبقاً للآية.

وهنا تمت البيعة بوضع اليد على شيء وضع رسـول الله (ص) يده عليـه. وبالنسبةِ للحجر الأسود الموضوع هو نفسُه. الهدف هو أن نبـايع بـطل التوحيـد والرسول الأكرم (ص) في الثبات على التوحيد. ولذا يقول الإمام الصادق (ع): ضع يدك على الحجر وقل: «أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدتُه لتشهدَ لي بالموافاة».

يقول ابن عباس: إن وضع اليد على الحجر بمنزلةِ البيعة مع رسول الله (ص)

---

(١) سورة الممتحنة الآية (١٢).

الذي رحلَ من بيننا[1]. وعليه فإن الهدف من تقبيل الحجر ووضع اليد عليه تجسيم لمعاهدةٍ قلبية الذي مركزها روح ونفس الإنسان. وفي الحقيقة أن زائر بيت الله بهذا العمل يعكس عملياً تلك المعاهدة القلبية بشكل ملموس ومحسوس.

واليوم، وفي الكثير من بلدان العالم، يقف الجنود امام علم البلاد ويُقسمون لأنهم يعتبرون العَلَمَ مقدساً. وفي الحقيقة أن العَلَمَ لا يعدو اكثر من بضعة امتار من القماش، ولكن عندما يُصبح هذا القماش عَلَماً يصير رمز استقلال البلاد ومظهراً لقادة الشعب، والجندي بدلاً من مصافحة يد القادة يشير إلى العلم ويؤدي القَسَم. في الاقسام القادمة ستقرأ أن الهدف من بعض مراسم الحج هو تجسيم بعض الوقائع التي تظهر من خلال اعمال الحج.

٣ ـ ما هو الهدف من رمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة؟

يرمي زوارُ بيت الله، خلال العاشر والحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة اعمدةً خاصة في (منىٰ) ـ بالقرب من مكة المكرمة ـ بالحجارة، إنهم يرجمون نقطةً خاصة في الظاهر، ولكنهم في الباطن يرجمون الشيطان. إن الاحاديث الاسلامية تشرحُ لنا ماهية هذا العمل، وتقول: إن الشيطان قد تجسم في النقاط الثلاثة لابراهيم عليه السلام، ولكي يبدي تنفره منه فقد رماه بالحجارة، واصبح عملُ ابراهيم سُنّة إلهية في مراسم الحج[2].

إن زائري بيت التوحيد دليلاً علىٰ كرههم للشيطان وذوي الصفات الشيطانية كأبراهيم يرجمون تلك النقاط بالحجر، وبهذا الشكل يبدون كرههم لكل موجود شرير، وكره الشر أمرٌ معنوي وقلبي، وبهذا الأسلوب يجسّمون هذا العمل بشكل ملموس ومحسوس.

إن الشعوب المستضعفة، الرازحة تحت الظلم، تحرقُ أعلامَ القوىٰ الكبرىٰ،

---

(١) وسائل الشيعة ج ٩ أبواب الطواف ـ باب ١٣ ـ حديث ١٥ ص ٤٠٦.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٠ ـ أبواب رمي الجمرات ـ الباب ١، الحديث ٥، ص ٦٨.

والعلم لا يعدو اكثر من عدة امتار من القماش ملونة، ولكن الشعوب لاظهار غضبها بالنسبة للفجائع التي ترتكبها القوىٰ العظمىٰ تحرق علامات تلك البلدان، وكأنها تحرق البلدان نفسها وتدمّرها، وهذا العمل، على الأقل، ابراز للغضب الشديد للشعوب المستضعفة.

وكذلك هو السعي بين جبلي الصفا والمروة، وبهذا العمل نجسم حالة هاجر ام اسماعيل، ويحدثنا التاريخ إنها دون أن تيأس من رحمة الله قامت بقطع المسافة بين الجبلين في تلك المنطقة غير ذات الزرع سبع مرات سعياً تبحث عن الماء، واخيراً شملتها العناية الإلهية وحصلت على هدفها وذلك عندما انبجَسَ الماء من تحت قدمي اسماعيل، فنجت هي وابنها من العطش.

وتذكرُ بعض الأحاديث أن الشيطان تجسم لابراهيم في النقطة ايضاً، فسعىٰ وتعقّبَهُ حتىٰ أخرجه من الساحة المقدسة لبيت الله. ونحن بعملنا هذا ايضاً نجسّم ذلك العمل المعنوي، كذلك بتقديم القرابين في صحراء (منىٰ) نحيّ ذكرىٰ تضحية ابراهيم (ع) الذي قدّم كل شيء في سبيل الله حتى ابنه.

الخلاصة، إنه اذا دقّق شخص في تاريخ فرائض الحج فإنه يتلمس هذه الحقيقة وهي أن الكثير من هذه الأعمال هي تجسيم لسلسلةٍ من الذكريات البناءة لحياة ابراهيم (ع) والأمور المعنوية والاخلاقية. التي اصبحت بمجموعها سلسلة أعمال نموذجية تؤدّى، ولم يكن هدفنا عبادة الحجر والطين والجبل.

* * *

لماذا لا تحترم حياة المرتد في الاسلام؟

الدين الاسلامي، هو دين الحرية، وشعاره منذ اليوم الأول الآية: ﴿**لا اكراه في الدين**﴾، ومع ذلك، فلماذا يجب قتل المسلم المرتد عن الدين الاسلامي؟ فهل نقبل الاسلام بالإجبار حتىٰ إذا خرج عنه أحد يجب قتله؟

بالإضافة إلى ذلك، هل هذا الحكم يبقىٰ علىٰ مفعوله بالنسبةِ للشخص الذي تَحدُثُ في ذهنِهِ شُبهة؟!

الجواب:

الاسلام لا يجبر احداً على قبول الدين، رغم انه يدعو الجميع إليه باعتباره الدين الوحيد الذي يرتضيه الله سبحانه وتعالىٰ إلّا انه بإمكان اليهود والنصارىٰ البقاء على دينهم تحت شروط، وهذه الشروط ليست بضرر او نفع طرف معين، بل إنها اتفاقية ومعاهدة بين طرفين، حيث تتعهد الحكومة الاسلامية امام الاقليات الدينية الذين يدينون بأحد الأديان الإلهية ـ أن تحافظ على حياة ومال وناموس كل واحد منهم وتحرس وتصون معابدهم، وهم قبال هذه الخدمة يتعهدون أن لا يتعاونوا مع أعداء المسلمين والاسلام، ثم يدفعون ضريبة قليلة (جزية او ضريبة على الافراد) إلى الدولة الاسلامية.

في الواقع إنه لا يمكن إدخال الايمان والعقيدة بالقوة في قلوب الاشخاص وطالما لا توجد العلل وعواملها في الإنسان، فإنه لا يمكن بأي صورة ايجاد العقيدة والايمان لدىٰ أي شخص. ولهذا السبب جعل القرآنُ الكريم شعاره منذ اليوم الأول ﴿**لا إكراه في الدين**﴾.

في الواقع أن (الاكراه) لا يؤمِّن الهدفَ الذي يسعىٰ إليه الاسلام. إن أحقِّية

رسالةٍ مُرسلة من قبل الله سبحانه وتعالىٰ هي حالةٌ تبرز في اعماق القلوب مع مرور الزمن او مطالعة ودراسة خصوصيات وجذور الدين ودلائلهِ وبراهينِه، ولا يفيد الضرب ولا القوة في ذلك. إن الإيمان برسالةٍ والاتجاه نحو دين ليس كتسجيل اسم في دفتر حزب حيث يكتب اسمه ويصبح من اعضائهِ، كان معتقداً بآيديولوجية الحزب ام كان مخالفاً.

مع كل ذلك فإن الدين الاسلامي له احكامٌ خاصة عن الشخص المرتد، هي في النظرة الأولىٰ لا تنسجم مع سماحة الاسلام، ولكن مع ملاحظة ملاك التشريع وحكمـه هذه الشـدّة تتضحُ صحـة وثبات هـذه الاحكام. ومن بين الاحكـام عن المرتد[1]، هو الحكم الذي سأل عنه السائل، وندرسُهُ فيما يلي:

١ ـ الشخص الذي يولدُ في عائلةٍ اسلامية، إنْ كان أبوه مُسلمـاً او أُمُّهُ او الإثنان وبلغ سنَّ الرشد، وانكر احد اصول الدين المشتركة بين جميع الـطوائف الاسلامية (التوحيد، الرسالة، المعاد)، أو انكر حكمَ الدين الاسلامي عن عِلم، ويكون انكاره ملازماً لإنكار رسالة نبي الاسلام (ص)، فمثل هذا الشخص حتى ولو أعلن التوبة، وثبتَ ارتداده عند حاكم الشرع، يجب أن يقتل، ومثل هذا المرتد يُسمىٰ (المرتد الفطري).

٢ ـ الشخص الذي لم يُولَد في عائلة مسلمة، كما ذُكر، ولكنه اتجـه إلى الدين الاسلامي بعد بلوغِـه، ثم انكره بعد ذلك، أي اصبح (مرتداً)، فإن مثل هذا الشخص، بعد إزالة ما استُشْكِلَ عليه واشتبه فيه (إن كان لديه مثل ذلك) ولم يتب ويعود الىٰ الدين الاسلامي، فإنه يُقتل. وهذا المرتد يُسمىٰ بـ (المرتد الوطني).

٣ ـ واذا إرتدّت إمرأة، إن كان ارتدادها من النوع الأول او الثاني فإنه يُقبض عليها، ويقوم حاكم الشرع بإعداد المقدمات لعودتِها إلىٰ الاسلام.

---

(١) للمرتد احكام اخرى، فأموال المرتد تقسم بين وارثيه، وزوجته تنفصل عنه مع احتفاظها بعدة وفاتِه. وهذه الأحكام تسري في حالة عدم توبتهِ.

والآن حان الوقت لدراسة التشريع الاسلامي عن المرتد، ولتوضيح الموضوع نشير إلىٰ نقطتين:

١ ـ إن تنفيذ الاحكام المتعلقة بالمرتد منوطة برئيس الاسلام وهو ما اصطلح عليه بـ(حاكم الشرع) الذي يستقر علىٰ رأس الحكومة الاسلامية، ولا يحق للأشخاص العاديين التدخل في هذا الأمر[1]، ويجب علىٰ الاشخاص العادلين والموثق بهم أن يعلنوا عن ارتداد الشخص، والحاكم مع الأخذ بنظر الاعتبار جميع انواع القوانين الاسلامية يدرس الموضوع، وفي حالة ثبوت الإرتداد، يُصدر حكم الإعدام بحقه، ويُنفِّذ المأمور الحكم.

ليس فقط في موضوع (الإرتداد) يكون صدور الحكم والأمر بتنفيذِهِ منوطاً برأي الحاكم، وإنما جميع قوانين الجزاءِ ايضاً. يقول القرآن الكريم:

ـ ﴿**السارق والسارقة فاقطعوا ايديهما** . .﴾. المائدة (٣٨).

ـ ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة**﴾ . النور (٢).

المقصود من هذه الآيات هو ان ينفذ من بيدهم زمام امور المسلمين هذا الأمر، وليس أن يقوم كل عابر سبيل بقطع يد السارق، أو جلد الفاسق او الفاسقة، وإنما علىٰ الحاكم، الذي هو مظهر القوة وممثل المجتمع، أن ينفذ هذا الأمر، والقرآن يوجه الخطاب إلى المجتمع ولكن الحاكم هو المسؤول عملياً عن تنفيذ الحكم.

٢ ـ إن الحكومة الاسلامية هي حكومة تقومُ على أساس الايمان والعقيدة.

وجميع الإفراد، من كافة الطبقات، صغاراً وكباراً لإيمانهم بصحةِ واستحكام الدين والكتاب المرسل من قبل الله سبحانه وتعالىٰ واصول الدين وفروعِهِ، اجتمعوا وأسّسوا مثل هذه الحكومة، وهذا الأمر هو الوحيد الذي وَحَّدَ هذه المجموعة، ولا يوجد غيره من عامل مشتركٍ بينهم.

---

(١) من وجهة نظر الفقه فإن من يُقدم على اهانة نبي الاسلام (ص) في الملأ العام فإنه يستثنى من هذا الحكم، أي يحق للجميع التدخل.

وهذا النوع من الحكومة، خلافاً للحكومات الأخرىٰ في العالم لم تؤسس بسبب اللغة الواحدة، او الأرض، او الدم والعنصر، او العناصر الأخرىٰ التي تُشكل الأمة، بل إن جميع هذه العناصر تذوب في عنصر الايمان بالله ورسالةِ النبي (ص)، وينضوي جميع البشر، مع حالهم من امتيازات مختلفة، تحت راية واحدة.

وبملاحظة هذين الموضوعين، يتوضح موضوع (المرتد) امام الحكومة الاسلامية بصورة كاملة، لأن الإرتداد هو انكار لأساس واعمدة حكومة قامت هذه المجموعة من المسلمين بتأسيسها.

الشخص المرتد يقول: إن جميع هذه الانظمة والتشكيلات الفرديةِ والاجتماعية للمسلمين التي تقوم على أساس التوحيد والايمان بالرسالةِ، باطلة ولا أساس لها، بل هي مضرّة ويجب إقامة نظام آخر بدل هذا النظام.

صحيح أن ارتداد شخص قد لا يعدو احياناً اللسان، ولكن بحثنا هو من الجانب الكلي، ولا يرتبط بشخصٍ نادر، ولهذا يمكن القول:

- إن عودة شخص مؤمن إلىٰ الإنكار والاعتراض لا تخلو غالباً من ردود فعل وتحريكات ضد النظام الموجود القائم، ليس ضد المسائل السطحية والفرعية، بل ضد نظام قام بفعل دماء الملايين من البشر المضحين، الشهداء والمعوقين.

وفي هذا الموقع، يُصبح ارتداد شخص بؤرةً للفتنة، وتجذبُ تحريكاتُهُ واعمالُهُ الاعداء والمغرضين والمغامرين، وضِعافَ الايمان فيؤدي ذلك إلىٰ التمرد.

إن الدين المقدس، ولقلعِ جذور مثل هذه الفتن والمفاسد، يُصدر أمره بحزمٍ، بقتلِ المرتد، لكي لا يتعرض نظام الدين وحكومة الاسلام، والدين وكتابه لمثل هذه الحوادث المشؤومة، ويلعب المغرضون برسالةِ الله عز وجل.

صحيح أن البحث والنقد مسموح بهما في الحكومات الديمقراطية، ولكن الحرية هي في فقد شخص ومسؤول خاص، وليست الحرية في نقد اساس مجتمعٍ او مواجهة النظام الحاكم علىٰ البلاد، بل إن الفعاليات المضادة جزاؤها أشد الاجراءات في العالم.

وعليه، فإن الاسلام ليس الوحيد الذي يمنع مواجهة اساس ونظام الحكومةِ الاسلامية، وإنما في جميع العالم، مواجهة نظام البلاد له نفس هذا الحكم. مع فارق أن الحكومة الاسلامية تقوم على اساس الايمان، وكونها إلهية، بينما اساس الحكومات الأخرىٰ تعتمد القومية والعناصر الأخرىٰ.

إن معاقبة هذه المجموعة من الاشخاص في البيئة غير الاسلامية لا يمكن قياسها مع البيئة الاسلامية، حيث انه يُدان وحده فقط.

لقد جعل الاسلام فرقاً بين (المرتد الفطري) و (المرتد الوطني)، فالأول يُقتل بدون قيد او شرط، بينما الثاني يُعدم لدىٰ عدم عودتِهِ إلى الاسلام. وسبب هذا الفرق واضح، فضرر ارتداد شخص مسلم بالولادة اكثر من الشخص الغريب الذي لم يكن مسلماً في البداية ثم أسلم. الشخص الأول بسبب ارتباطِهِ الوثيق يمكنه أن يؤثر سلبياً علىٰ العوائل الاسلامية ويستطيع بسهولة أن يقوم بنشاطٍ ضد الحكومة الاسلامية، بينما الأثر السلبي للشخص الثاني أقل من الأول.

واما المرأة المرتدة فلا تقتل، لأن المرأة بما أنها إنسان كامل، إلّا انها لعواطفها الجياشة تقع بسرعة تحت تأثير الآخرين، ورغم انها تنحرف فكرياً بسرعة، فهي تعود إلىٰ الحق بسرعةٍ ايضاً.

في هذا الجواب، يبقىٰ هناك سؤالان:

١ ـ احياناً يُنكرُ شخصٌ بعض احكام الاسلام الضرورية، إثر اتصالٍ وارتباط مع مجموعةٍ ضالةٍ باطلة فتتولّد شبهات في قلبِهِ وتبدأ بالرسوب في أعماقِهِ، ولكن إذا زالت شبهاتُهُ فإنه سيعود فوراً إلى احضان الحق، فهل مثل هذا الشخص يُقتَلُ ايضاً؟

الجواب: إن هذه المسألة دُرست بدقة في الكتب الفقهية، ورأي المحققين هو ان الانكار الذي يستند علىٰ الشبهة لا يستوجب القتل، لأن موضوع الحكم، في الاحاديث الاسلامية، هو (الجحد) و (الإنكار).

وتصدق هذه الحالات اذا كان الإنسـان، بعلمٍ ودراية، واستنـاداً لأغراض خاطئة، يقوم بالإنكار، وليس على اساسِ إغواء الآخرين وشبهة الاعداء. وإليكم نموذجاً من هذه الأحاديث: قال الامام الصادق (ع):

«الاسلام قبل الايمان، وهو يشارك الايمان، فإذا أتىٰ العبد بكبيرة من كبائر المعاصي، او صغيرة من صغائر المعاصي التي نهىٰ الله عنها، كـان خارجـاً من الايمان، وثابتاً عليه اسم الاسـلام. فإن تـاب واستغفر، عـاد إلى الإيمان، ولم يخرجه إلىٰ الكفر والجحود والإستحلال. وإذا قال للحلال هذا حرام، وللحرام هذا حلال، ودان بذلك، فعندها يكون خارجاً من الايمان والاسلام إلىٰ الكفر»[1].

ويقول الإمام الباقر (ع):

- **«فما بال من جحد الفرائض كان كافراً»**.

فقهاء الاسلام، مثل صاحب كتاب (جواهر الكلام) - في المجلد السادس، والمحقق الهمداني في (مصباح الفقاهة) ص ٥٢ - بحث الكافر، والمرحوم آية الله الحكيم في كتاب (المستمسك) ج ١ ص ١٧٣ طبعة النجف الاشرف بحثوا المسألة بشكل موسّع.

٢ - واذا لم يُقتل المرتد لأسباب ويعود إلى الاسلام، فهل يستطيع الزواج من زوجته مرةً اخرىٰ او أنه عليه أن يتزوج بأخرىٰ؟!

الجواب: إن اسلامَهُ من جديد يجعله يتمكن من الزواج بالمسلمة وأن يكون صاحباً لأموالِهِ بعد اسلامه، ومنذ لحظةِ إرتدادِهِ، وتُقبلُ عبادتُهُ، وتوبته مقبولة عند الله تعالىٰ باطناً، رغم أن حكم القتل في (المرتد الفطري) يبقىٰ علىٰ قـوتِـه ولا يسقط عنه[2].

---

(١) وسائل الشيعة ج ١ - ابواب العبادات - باب ٢ - حديث ١٨ - ص ٢٥ - ٢٦.

(٢) جاء في (مباني تكملة المنهاج) لآية الله الخوئي ج ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

إذا تابَ المرتد عن فطرة لم تقبل توبته بالنسبـةِ إلى الأحكام اللازمة عليه من وجـوب قتلهِ وانتقال اموالِهِ إلى ورثته وبينونة زوجتهِ منه، واما بالاضـافةِ إلى غيـر تلك الاحكام فـالأظهر قبول توبته فتجري عليه احكام المسلم فيجوز أن يتزوج من زوجته السابقـة أو امرأة مسلمـة اخرى وغير ذلك من الاحكام.

هل يوجد اختلاف بين الآيتين التاليتين؟!

نعلم جميعاً ان احدىٰ جهات اعجاز القرآن الكريم، هي انه لا يوجد بين مفاد الآياتّ ادنىٰ اختلاف او تناقض، والقرآن نفسه يستدل علىٰ وحدة المضمون والمحتوىٰ لأنه يستند إلى الله سبحانه وتعالىٰ حيث يقول: **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً﴾**[1].

وعلى هذا الاساس يُطرحُ سؤال؛ وهو: يُستفاد من بعض الآيات أن مجموعة من العرب الجاهليين كانوا يعبدون (الملائكة) والدليل على ذلك الآيات التالية: **﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾**[2]. **﴿لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله ولا الملائكةُ المقربون﴾**[3].

هذا بينما يُستفادُ من آية أخرىٰ انه في يوم القيامة تنكر الملائكة هؤلاء وتقول: إن هذه المجموعة لا تعبدنا بل تعبدُ الجن، كما يقول عز وجل:

- **﴿ويوم يحشرُهُمْ جميعاً ثم يقول للملائكةِ أهؤلاءِ إيّاكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك، أنت وليُّنا من دُونِهم، بل كانوا يَعبُدُون الجِنَّ اكثرُهُمْ بهم مؤمنون﴾**[4].

والآن يأتي السؤال: كيف يمكن الجمع بين مفاد هاتين الآيتين؟!

الجواب:

لا مجال للبحث في أن الله سبحانه وتعالىٰ عالم بالأحداث، وكذلك

---

(١) سورة النساء الآية (٨٢).

(٢) آل عمران الآية (٨٠).

(٣) سورة النساء الآية (١٧٢).

(٤) سورة سبأ الآية (٤٠ ، ٤١).

الملائكة، إن هدف السؤال ليس التحقيق في وضع العابدين، فإن وضعهم لا علاقة له بالملائكة ليكون جواباً علىٰ السؤال، والشيء الذي له علاقة بهم هو؛ ماذا كان حالهم بالنسبة لعبادتهم؟ هل كانوا راضين ام لا؟ وهل كانت عبادة هؤلاء بدعوةٍ منهم هم؟ وكما أن هذا السؤال كان وارداً بالنسبة للسيد المسيح (ع)، فهل كان هو راضياً ام لا؟! وعليه فهل أن مفاد هذه الآية تعني: هل انتم دعوتموهم لعبادةِ غير الله؟ فقالوا: لا بل الجن (الشيطان وجنوده) فعلوا ذلك.

إن جملة (انت ولينا من دونهم) تدل انهم قطعوا كل علاقة بالعابدين هؤلاء واحتفظوا فقط بعلاقتهم بالله تعالىٰ، وهذا دليل على أن الملائكة كانت تنفر من اعمال هؤلاء.

ويكون مفاد الآية (اهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) هل انتم كنتم في رضاً من عبادةِ هؤلاء او دعوتموهم لذلك؟ فأجابوا فوراً بقطع أي نوع من العلاقـةِ بهؤلاء العابدين، وقالوا «أنت ولينا من دونهم» وهذا يعني أننا لسنا راضين بهذا العمل، واذا كانوا يعبدوننا فإنما كان بدعوة من الجن.

مثل هذا الموضوع ورد في الآية التي تتحدث عن السيد المسيح (ع) إذ قال له الله عز وجل:

﴿. . أنت قُلتَ للناسِ اتخذوني وأُمِّيَ إلهين﴾ . [1].

من هذا البيان يمكن التوصل إلىٰ هدف الآيتين وإزالةِ الاختلاف الابتدائي بينهما. المفسرون المسلمون، يذكرون وجهاً آخر في هذا الصدد، ونحن للإختصار نصرف النظر عنه.

---

(١) المائدة آية (١١٦).

ما هو المقصود بـ (الازلام)؟

نهى القرآن الكريم، في سورة المائدة، الآية الثالثة، من تقسيم اللحم بواسطة (الازلام) حيث يقول: ﴿.. وان تستقسموا بالازلام﴾، وفي الآية ٩٠ نهى من أربعة أشياء أحدها (الازلام): ﴿إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ ما هو المقصود بالازلام والتقسيم بالازلام؟

الجواب:

الازلامُ جمع (زَلَم) بمعنى أعواد يقسم بها لحم البعير المشترى، و(تقسيم اللحم) ورد في الآية المذكورة، ولذا منع ذلك في الاسلام.

في العصر الجاهلي، كان عشرة اشخاص يشتركون في بعير ثم يذبحونه، ويقسمون اللحم بين سبعة اشخاص بأسهم مختلفة حيث ينتخب كل واحدٍ سهماً ويُحرم ثلاثة اشخاص من أخذ شيء من اللحم بشكلٍ مبهم وغامض على الوجه التالي:

١ ـ الفذ = سهم واحد.

٢ ـ التوأم = سهمان.

٣ ـ المُسَبِّل = ثلاثة اسهم.

٤ ـ النافس = أربعة أسهم.

٥ ـ الحَلَس = خمسة اسهم.

٦ ـ الرقيب = ستة أسهم.

٧ ـ المعلّىٰ = سبعة أسهم.

فيكون المجموع ثمانية وعشرين سهماً. ثم يكتبون الاسماء، وكل اسم رمزٌ

لسهمٍ معين، على كل سهم، ثم يضعـون الاعواد (السهام) داخل كيس، ثم كانوا يكتبـون اسماء (السفيـح) و(المنيح) و(الـوغد) على الأسهم التي لا حصـة لها للاشخاص الثلاثة الباقين، ويضعـون هذه الأسهم مع السهام السابقة في الكيس. بعد ذلك يستخرجون كل سهم لشخص بالقرعة، فالسهام المكتوب عليها الحصص إن خرجت بأسم أحدٍ يأخذ السهم (الحصة) المكتوبة على السهم (الزَلَم) دون أن يدفع شيئاً واما الثلاثة التي تخرج السهام والتي لا تأخذ حصة من اللحم بالاضافة إلى انهم يُحرمون من أخذِ شيءٍ من اللحم فإنهم يدفعون قيمة البعير أيضاً، يدفع كل واحد ثلث قيمة البعير.

إن تقسيم اللحم بهذا الاسلوب أشبه ما يكون بما يُسمىٰ (اليانصيب) الشائع في هذا العصر، وهو نوع من (القمار) المحرم من قبل الاسلام.

بهذا البيان فإن مفاد جملة (وإن تستقسموا بالازلام) قد اتضح تماماً، وظهر أن (الازلام) نفسـها ليس حراماً، بل ان تقسيم اللحم بهذا الاسلوب حرام.

وهكذا يتضح ايضاً معنى الآية ٩٠ من هذه السورة ايضاً، كما يزولُ الغموض في الآية الثانية بواسطة الآية الأولىٰ التي تتحدث صراحةً عن (الاستقسام بالازلام)، وتصبح النتيجة أن تقسيم اللحم بواسطة الازلام نوع من القمار، وهو حرام.

في الأحاديث الاسلامية، فسر (الاستقسام بالازلام) بالشكل المذكور، كما انتخب آخرون هذا الرأي.

تفسير آخر للازلام:

احياناً يفسر الاستقسام بالازلام بشكل آخر، وهو أن العـرب كانـوا يعدون اعـواداً اثناء الاسفار التجارية او اثناء أداء الاعمال المهمة، فيكتبون على أحدها (أمرني ربي) ويكتبون على آخر: (نهاني ربي) ويكتبون على ثالث (غفـل ربي) ويضعون هذه الأعواد في كيس، ثم يستخرجون عوداً واحداً ليعينوا علىٰ ضوئِهِ ما يجب أن يفعلوه، مثلاً انه لو خرج سهم مكتوب عليه (أمر) او (نهي) فإنه كان يفعل طبقاً لما هو مكتوب، واذا اخرج عوداً لم يكتب عليه شيء، فإنه كان يقـوم مرةً

اخرىٰ بخلط الأعواد في الكيس، ويبدأ القرعة من جديد. القرآن الكريم نهىٰ ذوي الإيمان بهاتين الآيتين عن هذا العمل[1].

وهنا يحتمل أن يسأل القارىء: هل الاستخارة (ذات الرقاع) الشائع بيننا تشبه عمل المشركين اولئك؟

بهذا الصدد نذكّر بنقطتين:

١ ـ المعنىٰ المعروف لجملة (وان تستقسموا بالازلام) هو ذلك التفسير الأول المنقول ايضاً عن الائمة الصادقين صلوات الله عليهم في رواياتنا. والمعنى الثاني فبالإضافة إلى انه غير معروف فإنه لا يتطابق في الظاهر مع الآية، لأن مسألة (تعين التكليف) و (إزالة التحيّر) هما غير التقسيم بـالازلام.

والمعنىٰ الثاني في الحقيقة هو وسيلة لإزالة التحيّر، أو اسلوب للتصميم، وليس (تقسيماً بالازلام) وهو ما صرّحت به الآية المذكورة.

٢ ـ وإذا فُرِضَتْ صحةُ التفسير المذكور، فإن (الاستخارة ذات الرقاع) تختلف مع عمل اولئك وذلك:

اولاً ـ انهم كانوا يقومون بذلك العمل بأسم (الرب) وهو الأوثـان عندهم، بينما الشخص المسلم لا يهتم بغير إله واحد، ولهـذا السبب ففي استخارة ذات الرقاع، يُصلي اولاً ويذكر مشكلته امام الله عز وجل ويطلب الهداية منه، بعد ذلك يبدأ باخراج الرقاع.

ثانياً ـ لا يوجد ابداً كلام اهـانة وكفـر مثل (غفـل ربي) في استخارة ذاتِ الرقاع، بل هو يعتقد بالله العظيم باعتباره عز وجل الرب الحاضر الناظر الذي لا يخفىٰ عليه شيء ولا يغفل عن شيء، ويطلب منه سبحانه وتعالىٰ العون.

ولهذا السبب يجب أن لا يؤدي التشابه الظاهري في العمل إلى الخطأ، بينما هناك تباين وتمايز ذاتي بين العملين في الماهية والواقع.

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ١٥٨، لسان العرب، ج ١٢ ص ٢٧٠ مادة (زَلَم).

ما هو المذهب الوهابي؟ ومن هو مؤسسه؟

إن الحادثة الدموية للجمعةِ السوداء في مكة المكرمة أدّت إلى استشهاد المئات وجرح آلاف الأشخاص من زوار بيت الله الحرام، وجعلت عبارات (الوهابية) و(المذهب الوهابي) على الألسن، وتناقلتها وكالات الانباء ووسائل الاعلام.

قدّموا بعض المعلومات إلى القرّاء.

الجواب:

المذهب الوهابي، رغم انه وليد فكر (محمد بن عبد الوهاب النجدي ١١١٥ ـ ١٣٠٦ هـ. ق.) ولكن جذوره تمتد إلى (احمد بن عبد الحليم) المعروف باسم (ابن تيمية) الشامي، الذي مات عام ٧٢٨ في سجن دمشق، وكتابات هذا الشخص تشكل اساس معتقدات الوهابيين.

عندما اعلن ابن تيمية عن آرائهِ حول زيارة قبر الرسول الأكرم (ص) والسفر إليه، وحرّم ذلك، قام علماء أهل السُّنة في مصر والشام بنقد آرائِهِ وكتبوا كتباً قيمةً في الرد عليه، وقد طُبع ونُشر القسمُ الاعظم منها.

ولم يكتفِ القضاة الأربعة لأهل السُّنة بذلك، بل قام زعماؤهم في مصر والشام بـ(تفسيقه)، واعتبروه شخصاً منحرفاً، حتىٰ أن صديقه ومعاصره (الذهبي) كتب إليه ودّية، اعتبره في اشاعة الفساد كالحجّاج[1].

غائلة[2] ابن تيمية خمدت بعد موتِه، ورغم ان تلميذه المعروف (ابن القيّم)

---

(١) نص الرسالة موجود في كتاب (تكملة السيف الصقيل) ص ١٩٠.

(٢) الغائلة = المصيبة، المهلكة، الشر العناد. (الرائد ـ حرف الغين) ـ المترجم.

سعىٰ إلى اشاعة آراء استاذه، ولكنه لم يحصل علىٰ نتيجة، ومات هو الآخر عام ٧٥١ وبموتِهِ اسدل الستار علىٰ آراء استاذِهِ ايضاً.

ولكن في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، أي حوالي عام ١١٤٥ قـام شخصٌ باسم محمد بن عبد الوهاب بإحياء افكار ابن تيمية في اراضي نجد، وبما أن والده (عبد الوهاب) كان مخالفاً لآرائِهِ فإن الابن انصرف عن اظهار عقائده في حياته، وعندما مات الأب عام ١١٥٣ فإن الابن وجد الميدان واسعاً أمامَهُ لنشـر آرائِهِ، فاستعان بأمير مدينة (عُيينَة) عثمان بن حمد في ذلك. ولم يمض وقت طويل حتىٰ وبخ اميرُ الإحساء (عثمانَ) فأضطر هذا إلىٰ إخراج (الشيخ) من المدينة.

خرج (الشيخ محمد) عام ١١٦٠ من مدينة (عُيينـة) وتوجّـه إلىٰ (درعيّة)، وكانت تخضع في ذلك العهد لرئاسة (محمد بن سعود) ـ (جد آل سعود) واخيراً حصلت علاقة بين الاثنين، فأوعده أمير المدينة بالعون، واوعدَ هو الأميرَ بـالقوةِ والغلبة علىٰ البلاد.

وبدأ الشيخ دعوته تحت اسم (التوحيد) ومكافحة الشرك، واعتبر الجميعَ، غيرَهُ واتباعه، مُشركين، وشرع بشن الحملات باطرافِ واكنافِ نجد، فقُتل عدد كبير من النساء والرجال والأطفال للقبائل هناك علىٰ يد اتباع الشيخ، وجمعوا اموالاً طائلة باسم (غنائم من المشركين). وكان الناس، عندما جاء (الشيخ محمد) إلى الدرعية والتقىٰ بـ(محمد بن سعود)، كـانوا يعيشـون في ضيق وفقر.

ينقلُ الآلوسي عن (ابن بشر النجدي) إنه قال: إنني في البداية شاهدت فقر اهالي الدرعية، ثم شاهدت هذه المدينة في زمن (سعـود) وأهلُها يملكـون ثروة طائلة، ويزيّنون اسلحتهم بالذهبِ والفضة، ويركبون الخيـول الأصيلة، ويلبسون الملابس الفاخرة، ويمتلكون الاشياء الغالية لدرجة يعجز اللسان عن شرح ذلك. وذات يوم شاهدت في أحـد اسواق الدرعية، الرجال في جانب، والنساء في جانب آخر، وكان هناك الذهب والفضة والاسلحة والجِمـال والأغنام والخيـول والألبسة الفاخرة، واللحم والحنـطة وبقية المـأكولات، متـوفرة لـدرجة يعجـز اللسان عن

وصفها، والسوق تمتد علىٰ مدىٰ البصر، وكنتُ اسمع اصوات البائعين والشارين كأصوات النحل، احدهم يقول (بِعْتُ) وآخر يقول (اشتريت).

طبعاً (ابن بشر) لم يذكر من اين جاءت هذه الأموال الطائلة، ولكن القرائن التاريخية تدل علىٰ أن هذه الاموال جاءت من حملاتهم وغاراتهم، علىٰ مسلمي القبائل والمدن الأخرىٰ في (نجد) بحجةِ انهم لم يوافقوا علىٰ آراء (الشيخ).

وكان اسلوب (الشيخ محمد) بالنسبة لغنائم الحرب التي كان يحصل عليها من مسلمي تلك الديار، هو انه كان يصرفها كيف يشاء، فأحياناً كانت الغنائم جميعها تكون من نصيبه، ومقدارها كبير جداً، ثم يعطي لشخصين أو لثلاثة بعض الشيء منها، فالغنائم كلها كانت تحت تصرف الشيخ واما أمير نجد فإنه كان يأخذ قسماً بعد استئذان الشيخ في ذلك.

احدىٰ ابرز نقاط ضعف برنامج حياة الشيخ محمد هي انه كان يعامل المسلمين الذين لا يتبعون مذهبه معاملة الكافر المحارِب، فلم يكن يقيم وزناً لحياتهم وناموسِهِم واموالِهم.

والخلاصة أن محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى التوحيد، ولكن التوحيد الخاطىء، فمن آمن به فحياته وامواله في أمن وإلاّ فإن دمه واموالهُ حلال ومباح كالكافر المحارِب.

إن حروب الوهابيين في نجد وخارجها، في اليمن، والحجاز، واطراف سوريا والعراق، كانت تسير على ذلك المنوال. فكل مدينة كانوا يستولون عليها، فهي حلالٌ لهم، واذا استطاعوا فإنهم يعتبرونها جزءاً من املاكهم، وإلاّ فإنهم كانوا يكتفون بالغنائم التي يحصلون عليها[1].

والاشخاص الذين كانوا يوافقون على آرائِهِ ويقبلون دعوته فإنه يجب عليهم أن يبايعوه، وإذا واجهوه فإنهم يستحقون القتل وتقسم أموالهم، وطبقاً لهذا

---

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٣٤١.

الأسلوب، مثلاً، فقد قُتِلَ من أهالي إحدىٰ القرىٰ المسماة (فصول) في الإحساء ثلاثمائة رجل ونهبت اموالُهم[1].

توفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب عام ١٢٠٦ (وهناك اقوال اخرىٰ في هذا الصدد)، وبعده استمر اتباعُهُ علىٰ اسلوبه، مثلاً في عام ١٢١٦ قام (الأمير سعود) الوهابي على رأس جيش مؤلف من عشرين الف مقاتل بالهجوم علىٰ كربلاء، التي كانت في تلك الأيام مشهورة وعظيمة يزورها الكثير من الايرانيين والاتراك والعرب، وبعد محاصرة المدينة تمكن (سعود) من دخولها حيث شرع يقتلُ ابنـاءها والآمنين والمدافعين عنها.

ولقد قام الجيش الوهابي بمذبحةٍ في مدينة كربلاء لا تـوصف، فقد قتلوا خمسة آلاف إنسان (ولقد ذكروا أرقاماً تصلُ إلىٰ عشرين الفاً)، وبعد أن فرغ من اعمال القتل توجّه إلى خزائن حرم الإمام الحسين (ع)، وكانت مملوءة بأموال طائلة واشياء نفيسة، فأخذ كل ما وجد هناك نهباً.

وبعد هذه الحادثة اصبحت كربلاء في حالةٍ بدأ الشعراء يرثونها فيها. واخذ الوهابيون خلال اثني عشر عاماً يهجمون بين الحين والحين علىٰ كربلاء واطرافها وعلى مدينة النجف الأشرف فينهبون ويدمرون، واول هجـوم قامـوا به كـان عام ١٢١٦ وهو ما وصفناه، وقد وقع كما يقول الكتّاب الشيعة في عيد الغدير.

إن حملات الوهابين المتمركزين في نجد علىٰ جدة ومكة والمدينة المنورة وسوريا والعراق هي اكثر مما يمكن شرحها هنا، وكانت تحدث اشتباكات دامية بين الحكومة العثمانية عن طريق امراء مصر، وبين الوهابيين. واحياناً لضـعـف الحكومة العثمانية كان الوهابيون يستولون علىٰ الطائف ومكة والمدينة المنورة فيهدمون الآثار والمشاهد الاسلامية وينهبون اموالها. واخيراً تمكنت من طرد الوهابيين من هناك إلى نجد، وسيطر العثمانيون على المناطق تلك، ونصبت عائلة (الشريف) على رئاسة الحرمين.

---

(١) تاريخ المملكة العربية السعودية ج ١ ص ٥١.

وفي الحرب العالمية الأولىٰ، تم إحياء (القومية العربية)، ومع احتلال الشام والأردن والعراق من قبل الدول الكبرىٰ كبريطانيا وفرنسا تمزّقت وحدة الدول العربية، واستقطع كل قسمٍ من هذه البلاد لأميرٍ مطيعٍ للدول الكبرىٰ. بلاد نجد منحت لآل سعود، وكان كبيرها في ذلك الوقت عبد العزيز بن سعود ـ والد الملك الحالي فهد ـ لتعاونه مع بريطانيا في تدمير قدرة الدولة العثمانية، وقد كان هذا المنح بشروط استعمارية تماماً مذكورة في التاريخ.

بعد ذلك استوجبت مصالح بريطانيا بالدرجة الأولىٰ ثم مصالح الدول الاستعمارية أن تزداد قوة الوهابيين وأن يخضع الحرمان الشريفان ومنطقة الحجاز لآل سعود، وطبقاً لذلك وببرنامج وتخطيط خاص من قبل بريطانيا استولىٰ الوهابيون عام ١٣٤٤ هـ. ق وبعد معركة دموية علىٰ الحرمين الشريفين، وقُتِلَ في الطائف وحدها ألفا عالِم ورجال كبار ونساء، لدرجة أن عبد العزيز اعترف بنفسه بذلك. وكانت النتيجة أن انتهت فترة حكومة آل الشريف في تلك البلاد، وحملت هاتان المنطقتان الواسعتان من بلاد المسلمين بالإضافة إلى نجد والحجاز اسم عائلة (سعود) وسُجِّلَ في دفاتر الدولِ الاستعمارية الكبرىٰ. وأُلغي اسم (نجد) و (الحجاز) واعلن عبد العزيز في عام ١٣٥٠ هـ. ق نفسه ملكاً على المنطقتين واسمىٰ البلاد باسم (المملكة العربية السعودية) و (المملكة الاسلامية السعودية)، وامسك بزمام الأمور حتىٰ عام ١٣٧٤، حيث جاء بعده اولاده (سعود، فيصل، خالد، وفهد).

عقائد الوهابية:

تحتاج الحياة السياسية للوهابيين في المنطقة، وعلى رأسهم آل سعود، إلى فصلٍ مستقل، ولكنها غير واردة الآن بالنسبة لنا، ولكن الضروري هو كشف اجمالي لعقيدة الوهابيين التي يروّجُ لها آل سعود، والوهابية بالنسبة لهم تعني حياتهم.

نقطتان تشكلان اساس مذهب الوهابية:

١ ـ هدم وتدمير آثار الرسالة منذ عهد النبي (ص) والصحابة والتابعين بحيث لا يبقى شيء ملموس من ذلك العهد. وجميع هذه الاعمال تتم تحت غطاء (التوحيد) و(مكافحة الشرك). ولهذا السبب دمّروا قبور الصحابة وعترةِ النبي (ص) والتابعين والعلماء والشخصيات الاسلامية وساووها بالأرض، ولولا خوفهم من مسلمي العالم لدمّروا قبر النبي (ص) ولجعلوه على شكل مصلّىٰ.

وطبقاً لهذه (النظرية) غير المعقولة دمّروا قبور الأئمة الاربعة للشيعة، وقبر عم النبي (ص)، وقبر عبد الله والد النبي (ص)، وقبور جميع الصحابة في البقيع. ومن الواضح أن استعمارَ شعب ينسىٰ ماضيه سهل وبسيط جداً.

واليوم فإن وجود السيد المسيح (ع)، ومريم العذراء (س) والحواريين، لكثير من مسيحيي الغرب، لا يعدو اسطورة تاريخية بحيث أن وجود مثل هذه الشخصيات، بكل خصوصياتها، يُصاحبها الشك والترديد، لأنه لا يوجد اي اثر ملموس عن السيد المسيح (ع) واصحابه.

ولا سمح الله اذا حدث وأصيبت الآثار الاسلامية الأصيلة بمثل هذا المصير، فإنه يكون انكار اصل مبدأ وجود نبي الاسلام واصحابه سهلاً.

٢ ـ التقليل من مقام ومكانة الشخصيات الإلهية، من الأنبياء والأولياء، في حالةِ الحياة او الموت، بحجة انهم لا يعدون أن يكونوا من ناقلي الأوامر الإلهية، الرسالة في هذه الحالة تنتهي بموتِهم، ولا يختلفون كثيراً عن باقي ابناء الأمة.

إن هذين المبدأين جاءا بنتائج وخيمة جداً:

أ ـ اصبح الدين الاسلامي لديهم مجرد مذهب (او دين) متحجّر، اتخذ أي تحوّل او تحرك فيه لوناً من الشِّرك والعبادة الازدواجية، بحيث اصبح إحترام المعلمين الإلهيين في احتفال شِركاً ايضاً، وكأنهم يريدون قطع أي ارتباط للناس برسُلُ الخليقة، ولا يبقىٰ من الاسلام غير الكتاب، وأحاديث (معلومة).

ب ـ ايجاد التفرقة بين المسلمين، بشكل أن عالَمَ السُّنّة أُصيب بالتفرقة

وجـرت معارك داميـة، وصُرفت جهـود العلماء بـدلاً من الـدفـاع امـام حمـلات المسيحيين والماديين، إلى الدفاع امام شبهات محمد بن عبد الوهـاب، وامضىٰ العلماء الكبار في مصر والعراق والشام ولبنان خلال القرون الثلاثة الأخيرة، قسماً من وقتهم لنقدِ هذا (المسلك).

إن اساس مذهب الوهابية هو ذانك المبدأين، وبقية عقائده تعتمد على ذلك المبدأين، مثل:

١ ـ تحريم بناء السقوف علىٰ القبور.

٢ ـ تحريم الصلاة في المشاهد والمناطق والأماكن المقدسة.

٣ ـ تحريم السفر لزيارة نبي الاسلام (ص)، وبقية الأولياء الصالحين.

٤ ـ تحريم التوسل بأولياء الله، بعد مماتِهم.

٥ ـ تحريم التبرك والاستشفاء.

٦ ـ تحريم طلب الشفاعة من الشافعين الحقيقيين.

٧ ـ تحريم الاحتفال بذكريات الأنبياء واولياء الله (ع).

٨ ـ تحريم القَسَم بغير الله.

٩ ـ تحريم النذر لدىٰ اولياء الله.

وكأن ليس هناك من حكم في الاسلام غير التحريم، ودعوة لمكافحةِ فطرة الإنسـان، والناس جميعـاً يجب أن يسمعوا دومـاً كلمـات (الشِّـرك) و(الحـرام) و(ممنوع).

للاطلاع علىٰ تاريخ الوهابيين يمكن مراجعة الكتب المتوفرة في الأسواق.

* * *

السلام على اساس الحقوق المتقابلة

هل الجهاد يجب أن يكون على شكل حربٍ وقتال، أم أن السلام علىٰ اساس الحقوق المتقابلة، فرعُ من الجهاد؟

الجواب:

السلام العادل المشرف، هو السلام الذي يعتمد على حفظ الحقوق المتقابلة. والسلام هو الوجه الآخر من الجهاد في سبيل الله، لأن (الجهاد) ليس بمعنىٰ الحرب والقتال، وإنما بمعنىٰ السعي التام في نشر دين التوحيد وإنقاذ الانسان من براثن الوثنية. ومثل هذا الهدف، كما انه يتم عن طريق الحرب والقتال، احياناً يمكن انجازُهُ ايضاً عن طريق السلام والتوافق تحت ظروف معقولة. وهنا نشير إلى موضوعين:

١ ـ بما أن الدين الاسلامي هو آخر الأديان الإلهية، فإذا كان يحتوي علىٰ قانون الحرب والقتال مع العدو، فإنه الى جانب ذلك لديه قانون السلام والمسالمة ايضاً، وإنه لو اكتفىٰ ببُعدٍ واحد لما أمكنه أن يكون علىٰ المستوىٰ العالمي، آخر الأديان.

٢ ـ الموضوع الثاني أن الاسلام في الاغلب يستخدم لفظة (جهاد) لتأمين مقصده، وليس من لفظة (القتال) او كلمة (حرب)، وعن هذا الطريق يكشف عن وجهه العاطفي تجاه البشر، ويُذكِّرُ أن (الحرب)، علىٰ طريق تحقيق الاهداف السامية للاسلام، إنما هي وسيلة فقط، وذلك اذا لم تبق وسيلة أخرىٰ، واذا حلت وسيلةٌ اخرىٰ محل (الحرب) فهي ايضاً مساعي في سبيل نشر دين الله. وفي هذا المجال هناك آيات تدعو إلى (السلام) و(المسالمة) في ظروف خاصة. منها:

- **﴿وان جنحوا للسَّلْم فاجنح لها. . ﴾**[1]

وفي آية اخرىٰ يقول: **﴿فإن اعتزلوكم فَلَمْ يقاتلوكُمْ وَأَلْقواْ إليكُمْ السَّلَمَ فما جعلَ الله لكم عليهم سبيلاً﴾**[2].

اي دين أسمىٰ من هذا الدين الذي أمر نبيُّـه (ص) انه لـو كفَّ العدو عن المعاندة، عنـد ذاك لا يحق لك التعـرض له، ولا يجب أن يـدفعك جُـرمُهُ إلى التعرض له.

وفي آية أخرىٰ، يحدد القتال بثلاثة قيود حيث يقول: **﴿فإنْ لم يعتزلُـوكُمْ ويُلقوا إليكُمُ السَّلَمَ ويكُفُوا ايديَهُمْ فخُذُوهم واقتلُوهُمْ حيث ثقفتموهم﴾**[3].

إن هذين الوجهين، (وجه الحرب، ووجه السلم) هما علىٰ عُملةٍ واحدة، وكلاهما سبب لبقاء الحكومة والنظام، والنظام ذو البُعد الواحد، الذي يطلب السلم دائماً او الحرب دائماً، لا يمكنه الاستمرار في العالم، وتوجد كلمات جميلة لأمير المؤمنين الإمام علي (ع) في هذا الصدد حيث كتب إلى مالك الأشتر:

«لا تدفعن صلحاً دعـاك إليه عـدوك ولله فيه رضـا، فإن في الصلحِ دعـة لجنودك، وراحة من همومك، وامناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحِه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بـالحزم واتهـم في ذلـك حُسن الـظن»[4].

الإمام عليه السلام في رسالتِه هذه لا يجيـز السلام المـطلق، وإنما يجيـز السلام الذي فيه رضا الله سبحانه وتعالىٰ، السلام العادل المشرف الذي يضمن حقوق الاسلام وعزّة وعظمة المسلمين، واما السلام المذل، الذي يسحق الحقوق

---

(١) سورة الانفال الآية (٦١).
(٢) سورة النساء الآية (٩٠).
(٣) سورة النساء الآية (٩١).
(٤) نهج البلاغة ص ٤٤٢ (طبعة صبحي الصالح).
(المترجم)

فإنه غير مقبول، مثل هذا السلام في حالة القدرة علىٰ الدفاع يجلبُ الهزائم المنكرة.

الامام عليه السلام يذكِّر بنقطة مهمة وهي استراحة الجنود الذين أمضوا مدةً في الجبهة في القتال والدفاع، كما أن المدن تشعر بالقلق لإتساع رقعة الحرب.

ولكن النقطة الأهم هي أن ينتبه القائد إلى أن السلام يجب أن لا يكون فرصة لكي يقوي العدو ويجدد قواتِه ثم يهجم مرةً اخرىٰ، أي أن السلام لا يجب أن يصبح (سلاماً مُسلحاً)، فمثل هذا السلام سبب للخسرانِ والضرر. علىٰ اية حال فإنه يجب على القائد أن ينظر للعدو نظرة شك وبتعبير الإمام عليه السلام (واتهم في ذلك حسن الظن)، ولهذا السبب يجب أن لا يفقد الاحتياط اللازم في تأمين الاحتياجات الدفاعية.

وفي اللحظاتِ الأخيرة من حياتِهِ الشريفة يلتفت الإمام علي (ع) الى ابنهِ الامام الحسن المجتبىٰ (ع) ويخبرُهُ بالسلام الذي سيفرض عليه في المستقبل قائلاً: **«واعلم ان معاوية سيُخالفك كما خالفني فإن وادعته وصالحته كنت مقتدياً بجدك في موادعتِهِ بني ضمرة وبني أشجع.. وإن اردتَ مجاهدة عدوك فلن يصلح لك من شيعتك من يصلح لأبيك»**[1].

ثم يُبينُ الإمام عليه السلام في توصيته أرضية السلام.

شروط الصلح:

إذا كان للجهاد عن طريق القتال له شروط، فإن الجهاد ضمن السلام له ايضاً شروطه، نذكِّر ببعضها:

١ ـ الصلح على عتبة الانتصار ممنوع: عندما يكون الجيش الاسلامي علىٰ

---

(١) نهج البلاغة ـ الرسالة (٥٣).

عتبةِ الانتصار وله الغلبةُ علىٰ العدو، والعدو بدأ ينهك، وفي هذه الحالة يقترح العدو صلحاً، فهذا الصلح لا يجوز، لأنه يحصل بسبب أن العدو بدأ يشعر بخسارته، ولو كانت له القدرة لواصل الحرب، يقول القرآن الكريم:

- **﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وانتُمُ الأعلَوْنَ والله معكم ولن يتِرَكُم اعمالَكم﴾**[1].

يقول المحقق الحلي في كتاب الشرائع - شرائع الاسلام، كتاب الجهاد: عندما تكون القوة موجودة لدىٰ المسلمين ولهم القدرة علىٰ القتال، وكان العدو ضعيفاً عاجزاً، بحيث أن انتصار المسلمين بدون خسائر ظاهر فإن القتال واجب ولا يجوز الصلح.

٢ - مصلحة الاسلام والمسلمين: الشرط الثاني من شروط الصلح، هو أن يكون هناك فائدة من وراء هذا الصلح والمسالمة للمسلمين، مثلاً أن يستعيد جيش الاسلام انفاسه، او بأمل أن يعيد العدو النظر ويفكر في اهداف الاسلام ويقبل الاسلام ديناً. ويشير أمير المؤمنين الامام علي (ع) في كتابه إلى مالك الاشتر إلى هذا الموضوع فيقول: **«فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وامناً لبلادك»**.

٣ - عدم نقض قرارات الاسلام: الشرط الثالث في اتفاقية الصلح أن لا تحتوي علىٰ مادة تخالف قرارات الاسلام أو تذل المسلمين، يقول أمير المؤمنين (ع):

- **«وجدت المسالمة ما لم يكن وهن في الاسلام أنجعَ من القتال»**[2].

يقول الرسول الأكرم (ص) في حديث نقله علماء السُّنة والشيعة:

- **«الصلح جائز بين المسلمين إلّا صلحاً حرم حلالاً او حلل حراماً»**[3]

---

(١) سورة محمد (ص) الآية (٣٥).

(٢) غرر الحكم.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٣ كتاب الصلح باب ٣ حديث ١ ص ١٦٤.

هذا الحديث، رغم انه عن الصلح بين المسلمين، ولكن حكمه لا يختص بالصلح بينهم. الحقيقة أن الجهاد بوجهيه هو لحفظ الاسلام، واذا كان حكم الاسلام يُسحق عن طريق الصلح، فإنه سيكون نقضاً للهدف.

سكان ثقيف معروفون بين العرب بالتمرد والعصيان، فهم لم يرضخوا للاسلام بأي ثمن، والرسول الأكرم (ص) لم يستطع أن ينفذ الى المنطقة بعد محاصرتها. وفي النهاية رضخوا وقبلوا أن يصالحوا الرسول (ص) ويقبلوا الاسلام بشروط، وحضروا امام النبي (ص) وذكروا بأن اهل الطائف مستعدون لتقبل الاسلام بشروطٍ يشترطونها، وهي:

١ ـ الابقاء على بيت الاصنام في الطائف لثلاث سنوات، ولا يمنع النساء من العبادة فيه.

٢ ـ يعفىٰ سكان الطائف من الصلاة.

٣ ـ أن يكون الربا حلالاً لهم.

٤ ـ أن يكون الفحشاء رسمياً لديهم.

ولم يقبل الرسول الأكرم (ص) مثل هذا الصلح، وذكر لهم حول كل شرط من الشروط امراً، وهي مذكورة في تاريخ الاسلام.

٤ ـ ممنوع الصلح الدائم مع المشركين:

سنقول فيما بعد إن الصلح مع المشركين يجب أن يكون محدوداً، خلافاً للصلح مع أهل الكتاب الذي بإمكانِه أن يكون دائمياً ومستمراً. ولكن الشيء الجدير بالذكر هو لو أن الحاكم الاسلامي رأىٰ أن الطرف الآخر بصددِ استغلال الصلح لصالحِهِ ويريد أن يفاجىء المسلمين بحملة، في هذه الحالة بإمكانِهِ أن يتجاهل إتفاقه ويمنع الطرف الآخر من الخيانة ويُلفت نظره الى ذلك. وهذا هو احد قوانين الصلح الاسلامي، وفي هذا الصدد يقول القرآن الكريم:

ـ **﴿وإمّا تخافنَّ من قومٍ خيانةً فانبذْ إليهم علىٰ سواءٍ إنَّ الله لا يُحِبُ الخائنين﴾**[1].

(١) سورة الأنفال الآية (٥٨).

يقول (المحقق) في (الشرائع):

- «لو أستشعر الإمام خيانةً جاز له أن ينبذ العهد إليهم وينذرهم».

إلى هنا تعرفنا إجمالاً علىٰ شروط (الصلح)، وحان الوقتُ الآن لكي نتعرف علىٰ انواعِه.

اقسام الصلح :

الرسول الأكرم (ص) طوال حياتِه القيادية كانت له انواع مختلفة من الصلح مع المشركين واهل الكتاب. ونحن نشير هنا إلىٰ بعضها مع صلح آخر موجود في القرآن الكريم، ولكن لم يحدث ما يستوجبه في زمن النبي (ص).

١ - الصلح مع المشركين:

الدين الاسلامي كباقي الأديان السماوية، لا يعترفُ بالشركِ أبداً، وفي الحقيقة لا يمكن لأي دين توحيدي أن ينسجم مع الوثنيين باستمرار، ولكن بإمكانِه، في الوقت نفسِهِ، أن يعقد معهم إتفاق صلح موقت ومحدود.

عقد النبي الأكرم (ص) في الحديبية صلحاً مع مشركي قريش بعد مباحثات موسعة، وكُتب (كتاب الصلح) في سبع مواد قُبِلَتْ من قبل الطرفين، ولم تتجاوز مدة الإتفاق عن عشر سنوات.

جاءَ ذلك لأن الاسلام لا يستطيع أن يقبل الشرك كظاهرة ثابتة. والاعتراف بالشرك مناقضٌ تماماً لدين التوحيد ولأول مبدأ من دستور الاسلام. ولكن هذا لا يمنع أن يحصل توافق محدود كهدنةٍ في زمن مُعين، يتوقفُ فيه القتال لكي تسنح الفرصة للمبلغين أن يقوموا بتبليغ الدين في صفوف المشركين.

إن قراءة (صلح الحديبية) تبين لكل عاقل سماحة وسعة صدر النبي (ص) وكانت هذه السماحة لدرجة أن النبي (ص) قبل ردَّ كل قريشي يلجأ إلى المدينة، وإذا التجأ مسلم إلى مكة فإن القريشيين مميزّون في ردِّهِ او عدم ردِّه.

إن الانعطاف البطولي الذي ابداه الرسول الأكرم (ص) في الحديبية لا مثيل له، ويكتب التاريخ؛ كان امير المؤمنين الإمام علي (ع) كاتباً عن الرسول الأكرم (ص) عند كتابةِ (صلح الحديبية)، فكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل ممثل قريش (انني لا اعرف الرحمن الرحيم، يجب أن تكتبوا بأسلوبنا (بسمك اللهم) فوافقَ رسول الله (ص) وقال لعلي (ع): اكتب (بسمك اللهم)، ثم كتب كاتب النبي (ص): (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله).

فقال ممثل قريش: (لو اجبتك في الكتاب الذي بيننا إلى هذا لأقررتُ لك بالنبوة، فسواء اشهدت علىٰ نفسي بالرضا في ذلك او اطلقته من لساني، إمح هذا الإسم واكتب؛ هذا ما قاضىٰ عليه محمد بن عبد الله.

رفض النبي (ص) ذلك في مثلِ هذه الشروط، وبعد مذاكرات رَضِيَ.

لم يكن الرسول الأكرم (ص) هو الوحيد الذي أبدىٰ مثل هذا الإنعطاف فوصيه (ع) ايضاً واجه مثل هذا الموقف في معركة صفين، ورضي للحفاظ علىٰ (الصلح) أن يكتب اسم (علي) ويحذف عبارة (امير المؤمنين) فقال عليه السلام: (الله اكبر سُنّة بسُنّة).

اثار صلح الحديبية، في تلك الأيام، غضب جمع من المسلمين، ولكن مرور الزمن أثبت الآثار الإيجابية له، إذ لم تمض سوىٰ مدة قصيرة حتىٰ طالبت قريش نفسها بإلغاء هذه المادة. وفي الحقيقة إن الرسول الأكرم (ص) استطاع في ظلِ هذا الصلح أن يذهب بحرية في السنة التالية (العام السابع للهجرة) إلى مكة ويؤدي مع اصحابِهِ مناسك الحج وأن يبين للمشركين عظمة الاسلام والمسلمين عن كثب.

وكما ذكرنا فإن مثل هذه الاتفاقيات يجب أن لا تكون دائمية مستمرة، لأن نتيجتها الاعتراف بالشركِ في عالم البشرية، لذا فإن القرآن الكريم، يمهلهم اربعة اشهر في سورة البراءة:

ـ ﴿. . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر. . .﴾[1].

وفي آية اخرىٰ يأمرُ الرسول الاعظم (ص) أن يلتزم بالمعاهدات حتى المدة المذكورة فيها: ﴿. . فـاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾[2].

علىٰ أية حال فإن مهلة المشركين كانت اربعة أشهر، والعمل بالمعاهدات كانت حتى انقضاء مدتها لأولئك المشركين الذين لم ينقضوا العهد.

يستفاد من مجموع هاتين الآيتين أنَّ الصلح بإمكانِه أن يكون اكثر من أربعة أشهـر، ولكن في النهايـة يجب أن يكون محـدوداً، إن هذا النـوع من (الصلح الموقت) يتعلق بالوثنيين، وولي الأمر بإمكانِهِ أن يهادنهم في ظروف خاصة، وبشكل موقت ومحدود.

٢ ـ الصلح مع أهل الكتاب:

اتبـاع الشرائـع السماويـة، مهما كـانت محرّفـة، يستـطيعـون، في الـدين الاسلامي، وتحت ظروف خاصة أن يبقوا على أديانِهم، وأن يعيشوا بين المسلمي، والفرق في مثل هذا (الصلح) و(الصلح) مع المشركين هو أن الثاني يجب أن يكون محدوداً، وأما الأول فبإمكانِه أن يكون دائمياً ومستمراً، لأن الشِّرك والمُشْرِكَ يفتقدان الاعتراف بهما، وقبول الصلح مع المشركين إنما هو عمل موقت، بينما الصلح مع أهل الكتاب هو حقٌّ لهم، كما من حقِّهم أن يعيشوا أحراراً ويبقوا على دينهِم بعد دفع الجزية والعمل بشرطِ الذِّمة. ولهذا السبب كانت لرسول الله (ص) معاهدات دائمية مع اتباع المذاهب والشرائع السماوية ونذكر فيما يلي امثلة على ذلك:

أ ـ الصلح مـع أهـل نجـران[3]: كـان اهـل نجـران على مـذهب السيـد

---

(١) سورة التوبة الآية (٢).
(٢) سورة التوبة الآية (٤).
(٣) نجران ـ مدينة على الحدود بين الحجاز واليمن.

المسيح (ع) وبعد مباحثاتٍ مع رسول الله (ص) قبلوا أن يدفعوا جزية قليلة ليبقوا علىٰ دينهم ويحظوا بحمايةِ الاسلام. في الحقيقة انهم كانوا يدفعون جزية قليلة ومقابل ذلك كانت دولة الاسلام تقدم لهم خدمات كالتي تقدمُها إلى المسلمين ويحصلون على الأمن بصورة متساوية.

عقد النبي (ص) صلحاً مع أهل نجران بشرط أن يقدموا سنوياً ألْفَي رداء، على دفعتين الأولىٰ في شهر صفر والثانية في شهر رجب، إلى جيش الاسلام. كما انه (ص) اشترط ايضاً أن يقدموا عند الحاجة ٣٠ درعاً، و ٣٠ فرساً، و ٣٠ جملاً، ومن كل نوع من انواع السلاح ثلاثين قطعة كعاريةٍ مضمونة إلى المسلمين[١].

النقطة المهمة في هذا الصلح هي أن كل ما يأخذُهُ (ص) منهم (عدا اللباس) هي وسائل دفاعية وقتالية لدفع شر العدو عن جميع مواطني الجزيرة العربية من مسيحيين ومسلمين. والعجيب انه (ص) يأخذ جميع هذه الوسائل الدفاعية كعاريةٍ مضمونة، فإذا فُقِدت او أُتلفت فإن على دولةِ الاسلام أن تُعيد مثلها.

ب ـ الصلح مع (أكيدر) حاكم دومة الجندل: دومة الجندل منطقة تقع في شمال المدينة المنورة، وتقع جغرافياً بين ارض الحجاز والشام، ويسكنها المسيحيون، وقد اخضع رسول الله (ص) اهل هذه المنطقة بإرسال خالد بن الوليد إليهم فدفعوا الجزية للبقاء على دينهم رسمياً[٢].

ج ـ الصلح مع الزردشتيين في البحرين: كان سكان البحرين يدينون بمذهب زردشت، وعندما اتسعت قدرة النبي (ص) ووصلت إلىٰ هذه المنطقة، ارسلَ (ص) (علاء بن الحضرمي) إلى هناك كحاكم اسلامي فأخذ منهم الجزية وبقوا على دينهم[٣].

(١) جامع الاصول ج ٣، كتاب الجهاد حديث ١١٢٣ ص ٢٤٧.
(٢) جامع الاصول ج ٣ كتاب الجهاد ص ٢٦٤ حديث ١١٥٣.
(٣) مسند احمد ج ٤ ص ٣٢٧.

هذه نماذج للصلح مع اهل الكتاب وردت في التاريخ. وهناك نوع آخر للصلح يذكره القرآن الكريم في سورة الحجرات، وها نحن نتحدث عنه:

٣ ـ صلح الطوائف الاسلامية مع بعضها:

مع أن المسلمين يتّبعون ديناً واحداً، ولهم نبي واحد، وكتاب واحد، ويتجهون جميعاً إلى قبلةٍ واحدة عند الصلاة، ولكن احياناً يبذر المنافقون والكافرون بينهم بذور العداوة، وينتج أن تتقاتل مجموعتان من المسلمين.

لا يدفعُ قتال المسلمين مع المشركين او أهل الكتاب إلى الدهشة، وإنما هو شيء طبيعي بكل معنى الكلمة، وإنما العجب قتالُ فريقين من المسلمين هما في نظر القرآن الكريم اخوة ومتساوون، ومع ذلك يتقاتلون في هذه الحالة ايضاً فإن الاسلام، وتحت شروط يدعوهم إلى الصلح، ويطلب من بقية المسلمين أن يتوسّطوا وأن يعاقبوا المعتدي، واثناء العقاب ايضاً يراعون القسط والعدل:

ـ وإنْ طائفتانِ من المؤمنين اقتتلوا فأَصلِحُوا بينهما فإن بغتْ إحداهما على الأخرىٰ فقاتِلوا التي تبغي حتىٰ تفيءَ إلى أمرِ الله فإن فَاءَتْ فأصلِحوا بينهما بالعَدْلِ وأقسِطُوا إنَّ الله يُحِبُ المُقسطين﴾[1].

ـ ﴿إنمـا المؤمنـون اخـوةٌ فـأصلِحـوا بين أخـويكم واتقـوا الله لعلكم تُرحمون﴾[2].

هاتان الآيتان ترتبطان بالصلح بين طائفتين من المسلمين، وفيهما نقاط:

أ ـ في بداية إشتعال اوار الحرب فإن الصلح مقدم بينهما (فاصلحوا بينهما).

ب ـ وإذا استمر احدُ الطرفينَ بعد الصلح بالعدوان فإن على جميع المسلمين أن يحاربوا المعتدي، وهنا ليس الصلح وارداً، وإنما العمل هو ردعُ المعتدي حتىٰ لا يفكر بالعدوان مرةً اخرىٰ.

---

(١) سورة الحجرات الآية (٩).

(٢) سورة الحجرات الآية (١٠).

ج ـ إن قتالَ وردعَ المعتدي يستمران طالما هو لا يزال في خط عدوانِه، وإذا عاد إلى الخطِ الإلهي فإن الصلح يستقر مرةً أخرىٰ.

د ـ عند كتابة اتفاقية الصلح يجب أن يكون الاساس هو العدالة والقسط لا أن تكون قوة احدهما سبباً للعدوان على ضعف الطرفِ الآخر، ولهذا السبب فإن القرآن يؤكد العدالة ثلاث مرات:

ـ فأصلحوا بينهما بالعدل. .

ـ واقسطوا. .

ـ ان الله يحب المقسطين. .

هـ إذا كان الصلح مع المشركين مقطعياً وتاكتيكياً، واذا كان الصلح مع أهل الكتاب صلحاً استراتيجياً ومن أجل المشتركات بينهم وبين المسلمين، فإن الصلح بين المسلمين هو صلح أخوة، وليس صلح غرباء، وقد جاء في القرآن الكريم **﴿فاصلحوا بين اخويكم﴾**.

هذا الصلح، في زمن النبي الأكرم (ص)، لم تكن له مصداقية، لذا لم يعمل به، لأن المسلمين حفظوا وحدة الكلمة في حياةِ رسول الله (ص)، ولكن بعد وفاة النبي الأكرم (ص)، اشتعلت نار القتال بين طائفتين من المسلمين وقام المنافقون وامثالهم المتزيّون برداء الاسلام أَسْمَوا طائفةً بـ(العثمانيين) وبذروا فيهم بذور الحقد ضد اتباع الاسلام الحقيقي وشيعة امير المؤمنين الإمام علي (ع)، والمصداق الواضح لذلك معركة الجمل، ومعركة صفين، ومعركة النهروان.

والمصداق الواضح لهذا النوع من الصلح هو صلح أمير المؤمنين الإمام علي (ع) مع معاوية في (صفّين) وقد تم في ظروف خاصة، وصلحُ ابنه الإمام الحسن المجتبىٰ (ع) في الكوفة مع معاوية وقد تم في ظروف خاصة.

* * *

من هم كتّاب الكتب الأربعة؟

نقرأ في الكتب الدينية انه توجد أربعة كتب مهمة وقيّمة في المذهب الشيعي، كانت منذ كتابتها مرجعاً للعلماء الكبار في الأصول ومصدر احكام، والفروع العلمية للعلماء ومراجع التقليد. هذه الكتب الأربعة تحظى من بين كتب الشيعة الأخرىٰ بمكانة خاصة. ضعوا معلومات مختصرة عن هذه الكتب واسماء كاتبيها.

الجواب:

بعد رحيل نبي الاسلام العظيم (ص)، سار شيعه علي (ع) على نهجِه بتسجيل أحاديث رسول الله (ص) وخلفائِهِ، وقد احجم اهلُ السُّنّة، وحتىٰ زمن عمر بن العزيز، اي ما يقرب من تسعين عاماً، عن كتابة الاحاديث النبوية الشريفة، ولكن الشيعة وبهمة عالية قاموا بتسجيل احاديث الرسول (ص) وخلفائِهِ، وخلال ٢٥٠ عاماً، أي منذ وفاة الرسول الأكرم (ص) وحتىٰ وفاة الامام الحسن العسكري (ع)، كتبوا كتباً كثيرة في مختلف العلوم الاسلامية، بقيت تذكّرُنا بهم.

وقد اثبت المحققون الكبار، اليوم، بدلائل حية وثابتة إن اكثر لا بل معظم واضعي العلوم الاسلامية كانوا من الشيعة، وهم الأوائل الذين فتحوا ابواب العلوم الاسلامية بوجِه البشر[1]. وقد ثبتت اسماء هذه الكتب في الفهارس الموضوعة من قبل علماء الشيعة في القرون الاسلامية، وخاصةً الكتاب النفيس (الذريعة) للمرحوم آقابزرك الطهراني.

---

(١) يراجع كتابي المرحوم العلامة الكبير السيد حسن الصدر (تأسيس الشيعة الكرام لفنون الاسلام) ومختصرهِ كتاب (الشيعة وفنون الاسلام).

والإمام الصادق (ع) استطاع خلال الفترةِ التي لم تكن الدولة العباسية قد استقامت بعد، استطاع إعداد اربعة آلاف تلميذ بقي من تراثهم اربعمئة كتاب تُعرفُ باسم (الأصول الأربعمئة).

وقبل الإمام الصادق (ع) فإن والده الكبير الإمام محمد الباقر (ع) استطاع أن يربي تلاميذ كباراً اثناء سنوات الصراع بين بني أمية وبني العباس، وخلال ايام الثورات الواسعة للإطاحة بحكم حكومة بني أمية الظالمة.

وكذلك التلاميذ لسائر أئمةِ الدين مثل الإمام موسىٰ بن جعفر (ع) والإمام الرضا (ع). لقد ترك هؤلاء التلاميذ آثاراً وكتباً قيّمة المحتويات اقتبسوها من الأئمة المعصومين.

إن هذه الكتب التي تجمعت فيها علوم واحاديث اهل البيت (ع) استنسخت بواسطة علماء الشيعة، وعقدوا جلسات تُسمىٰ بأسم (جلسات الحديث) لفهم معانيها ومعضلاتها. وكانت كتب هؤلاء العلماء متوفرة في المكتبات العامة والخاصة في ايران وبغداد.

وبعد هذه المقدمة المختصرة، نريد معرفة مؤلفي الكتب الأربعة:

١ ـ الكليني: (المتوفىٰ عام ٣٢٨ هـ): خلال مرحلة الغيبة الصغرىٰ قام عالم كبير بجمع وتنظيم الكثير من الكتب المؤلفة في زمن المعصومين. ونظّم قسماً منها بنظم خاص في كتاب أسماهُ (الكافي).

وُلد المرحوم ثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني الرازي في زمن الإمام العسكري عليه السلام، وتوفي في نهاية عام الغيبة الصغرىٰ او قبلها بسنة (٣٢٨ ـ ٣٢٩ هـ).

يعتبر كتاب (الكافي)، من حيث الصحة والإتقان، ذا اهمية كبرىٰ واهم الكتب الشيعية المرواة.

لقد عانىٰ الكثير في تأليف هذا الكتاب اثناء الرحلات المتعبة. مجموع

احاديث هذا الكتاب يبلغ ١٦١٩٩ حديثاً، يعني اكثر من كل أحاديث (الصحاح الستة)[1].

هذا الكتاب يقسم إلى ثلاثة أقسام؛ الأول في أصول العقائد، الثاني في الاحكام والفروع، الثالث في المواعظ والاخلاق.

قسم الأصول نموذج واضح عن علوم ومعارف اهل البيت وسند حي عن الإمامة وخلافتهم لرسول الله (ص)، وفي القسم يوجد الكثير من المسائل المتعلقة بالمعارف والعقائد موضّحة ومدروسة بشكل مقبول من قبل أئمتنا.

كتب المرحوم الكليني هذا الكتاب بناءاً علىٰ طلبِ بعض الشيعة[1]، وقد امضىٰ عشرين سنة في تأليفِه، كما نقله (النجاشي).

وللكليني كتب أخرىٰ ولكن للأسف قد أتىٰ مرور الزمانِ عليها.

٢ ـ الشيخ الصدوق، ٣٠٦ ـ ٣٨١: إن الشخصية الثانية التي قامت بجمع احاديث أهل البيت بعد الكليني هو؛ استاذ الحديث وشيخ الشيعة المرحوم (محمد بن بابويه) المعروف بـ (الصدوق).

ولد الصدوق عام ٣٠٦، وتوفي عام ٣٨١ هـ وترك آثاراً وتأليفاتٍ قيّمة.

كتابه (من لا يحضره الفقيه)، هو ثاني الكتب الأربعة، وكالكافي مرجع الفقهاء الشيعة ومصدراً للأحاديث.

عندما كان الشيخ الصدوق في رحلةٍ إلى بلخ لأخذ الحديث ونشر العلومِ والمعارفِ طلب منه احد الشخصيات الشيعية الكبيرة هناك واسمه (الشريف ابو عبد الله نعمت) أن يؤلِّفَ كتاباً على منوال كتاب (من لا يحضره الطِبيب) لطبيب عصرِهم المعروف أبي بكر الرازي، وأن يجعل اسم الكتاب (من لا يحضره الفقيه).

---

(١) لؤلؤة البحرين ص ٢٣٨.

(٢) الكافي ص ٨. رجال النجاشي ص ٢٦٦.

هدف الكتاب، كما هو مبين من اسمه، هو جمع الروايات والاحاديث الاسلامية المتعلقة بالأحكام والفروع والتي يطمئن إليها الشيخ الصدوق نفسه، لكي يكون في متناول من لا يمكنه الاتصال بالشيخ او بالعلماء الآخرين، ويعمل وفقه.

هذا الكتاب يحتوي على ٥٩٦٣ حديثاً، ويعتبر الوثيقة والسند الحديثي الثاني للعلماء والفقهاء.

٣ ـ الشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ): ولد العالم الكبير وواضع اسس جامعة الشيعة في النجف، المرحوم شيخ الطائفة محمد بن حسن الطوسي عام ٣٨٥ هـ في طوس، وفي عام ٤٠٨ هـ توجّه إلى بغداد لإكمال دراسته، وانخرط في حلقات دروس العالمين المشهورين من علماء الشيعة في القرنِ الخامس الهجري المرحوم الشيخ المفيد، والسيد مرتضىٰ علم الهدىٰ واستفاد منهما كثيراً. وبعد وفاة المرحوم السيد مرتضى عام ٤٣٧ هـ انتقلت إليه الرئاسة العلمية ومرجعية الشيعة. ويكفي دليلاً على عظمتِه ومكانته العلمية أن الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) رغم مخالفاتِهِ الكثيرة للمرحوم الشيخ الطوسي، فإنه خصص له كرسياً خاصاً للدرس.

إن نجاح الشيخ بين علماء الاسلام لا مثيل له، وقد ترك كتباً قيّمة وثمينة في التفسير، والكلام، والفقه، والأصول، والحديث، وسائر العلوم الاسلامية، ويكفي دليلاً على قوةِ فكرِهِ وسعةِ اطلاعِهِ كتابه التفسيري المسمىٰ (التبيان).

وكتب (تهذيب الأحكام) بناء على طلب تلاميذ حوزتِهِ الدراسية كشرحٍ على رسالة استاذِهِ (المفيد). وهذا الكتاب هو ثالث الكتبِ الأربعة المعروفة للشيعة. وهو في هذا الكتاب جَمَعَ الأحاديثَ التي لم يوفق المرحوم الكليني والمرحوم الصدوق من جمعها، جمعها من كتب الشيعة التي كتبت على يد تلاميذ الأئمة المعصومين في زمنهم، وضعها تحت اسم (تهذيب الاحكام). ويحتوي الكتاب علىٰ (١٣٥٩٠) حديثاً، في ٣٩٣ باباً.

رابع الكتب الأربعة هو كتاب (الاستبصار)، من مؤلفاتِ الشيخ الطوسي ايضاً. وقد صَبَّ جهودَهُ على توضيح وشرح الأخبار التي تبدو، منذ الوهلة الأولىٰ،

صعبة الفهم على محدّث او مجتهد، وكثيراً مـا يحدث أن يشعـر باختـلاف بين خبرين. كما إنه سعىٰ بفكرهِ العميق واطّلاعه الواسع، في هذا الكتاب، أن يزيل أي نـوع من انواعِ الغمـوض عن الأحاديث. والكتـاب يحتوي علىٰ ٩٢٥ بـابـاً و ٦٥٣١ حديثاً.

هذه هي كتب الشيعة الأربعة التي كتبت على يد ثلاث شخصيات كبيرة، كل منهم اسمُهُ (محمد).

* * *

ماذا ترىٰ في جمع بعض روايات كتاب (الكافي) في كتاب باسم (صحيح الكافي) وحذف اقسام اخرىٰ من (الحسن) و (الموثق) و (الضعيف)؟

الجواب:

إن مثل هذا الجمع للروايات من (الكافي) والكتب الأخرىٰ ليس عملاً مفيداً ولا صالحاً، ويتوضَّحُ ذلك ببيان بعض النقاط:

١ ـ ما هو (الحديث الصحيح) في اصطلاح القدماء؟

(الحديث الصحيح) في اصطلاح المحدثين القدماء يختلف معناه تماماً عن لدىٰ المحدثين المتأخرين من اصطلاح.

(الحديث الصحيح) في اصطلاح القدماء هو الحديث الذي يقترن داخلياً بـ(سند الرواية)، وخارجياً بصدورِهِ عن المعصومين عليهم السلام.

والآن ما هو المقصود بـ(القرائن الخارجية)؟ ليس هنا مجال توضيح ذلك، ومن لهم معرفة بهذا الاصطلاح فإنهم يعرفون واقعية مثل هذه القرائن تماماً.

وفي اصطلاح القدماء أن صحة الحديث يعني الاطمئنان والتأكد من صدور الرواية عن المعصومين (ع)، مهما كان هذا التأكيد، إنْ كان حائزاً علىٰ الثقة لدىٰ رواة ذلك الحديث، أو معلول سلسلة من قرائن تؤيد صدور الحديث عن معصوم وتصادق عليه تماماً.

إن هذا الاصطلاح يغلب ايضاً على محادثاتِنا اليومية، فالجميع يستخدمون مثل هذا الاصطلاح في التقارير الأساسية. أحياناً نحصل علىٰ صحة التقرير من

صدقِ والوثوق من (المُقرِّر) نفسِه، واحياناً تثبت، سلسلة من القرائن الموجودة صحة واستحكام التقرير، ونحن، في الصورتين، نؤيد صحة وقوة التقرير.

في العصور القديمة كان الكثير من الفقهاء يجعلون هذا الاصطلاح مبنىً لإستنباطِهم وإفتائهم، ويعملون وفق روايات هي بنظرهم ورأيهم موثوقة.

وكان هذا هو الاصطلاح الرائج لدىٰ فقهاء الشيعة حتىٰ القرن السابع حول الرواية الصحيحة. وكلما كان اصطلاح (حديث صحيح) يَرِدُ في بيانِهم او كتاباتهم فإنه لن يخطر على ذهنهم غير الحديث الثقة، وهم ألَّفوا كتبهم الفقهية والاستنباطية علىٰ هذا الأساس. ومن لهم معرفة، ولو قليلة، بكتب القدماء، يعرفون وجود هذا الاصطلاح وإتساعِهِ في بيانهم[1].

الآن وقد تعرفنا علىٰ اصطلاح القدماء حول (الحديث الصحيح) يجدرُ بِنا أنْ نلمَ باصطلاح المتأخرين في هذا الصدد.

٢ ـ (الحديث الصحيح) في اصطلاح المتأخرين:

إن اسلوب وطريقة فقهاء الشيعة في وصف الرواية بـ(الصحة) كان يعتمد حتى القرن السابع على اصطلاح القدماء، وكانوا يعملون وفق ذلك، ولم يكونوا يهتمون إن كانت صحة الرواية تحصل لديهم عن طريق الوثوق بالراوي، وإنما كانوا يأخذون بنظر الاعتبار القرائن الخارجة عن الحديث، وبعد إحراز الثقة والاطمئنان بالمصدر فإنهم كانوا يعملون وفقه.

ولكن في القرن السابع وما بعده، ولأسباب (تخرجُ عن هذا المختصر) ترك هذا الاصطلاح إلىٰ حدٍّ ما، وقُسّمت الاحاديثُ الاسلامية، طبقاً لأساسِ اعتبار الراوي، إلى أربعةِ اقسام، وهي:

١ ـ الصحيح. ٢ ـ الموثق. ٣ ـالحسن. ٤ ـ الضعيف.

---

(١) للاطلاع اكثر يراجع (عدة الأصول) ج ١ فصل في ذكر القرائن التي تدل على صحة اخبار الأحاد.

والمحور في هذا التقسيم عاملان: ١ ـ المذهب. ٢ ـ وثوق الراوي. وإليكم توضيح ذلك.

أ ـ الحديث الصحيح: هو الحديث الذي يكون رواته إماميين عادلين.

ب ـ الحديث الموثق: هو الحديث الذي يكون رواتُهُ او أحدهم غير إمامي، ولكن الجميع عادلون في مذهبهم، او علىٰ الأقل صادقون.

ج ـ الحديث الحسن: هو الحديث الذي يكون رواته اماميين، ولكن علماء الرجال لم يصرحوا بعدالتهم، إلّا انهم اثنوا عليهم في نفس الوقت.

د ـ الحديث الضعيف: هو الحديث الذي يفتقد للأقسام الثلاثة حيث يكون الراوي، او الرواة للحديث، مجهولين، أو معروفين ولكن (مُهمَلُون) ـ ولم يجرِ عنهم وصفٌ بالعدالة ـ او أن يكون الراوي (معطوفاً) به.

والآن فإن الاصطلاح الشائع هو الاصطلاح الثاني، كما ذكرناه للقرّاء الكرام، اما الشيء الجدير بالذكر ويُشكل قسماً من اعتراضنا على كتاب (صحيح الكافي) هو إن فقهاء الشيعة ومنذ اليوم الذي أوجدَ فيه احمد بن طاووس الحلي (المتوفىٰ عام ٧٦٣ هـ) هذا الاصطلاح، وتوسّع الاصطلاح علىٰ يد تلميذه العلامة الحلي (المتوفىٰ عام ٧٢٦ هـ) ليس فقط انهم كانوا يعملون بالحديث الصحيح فقط، وإنما بالأحاديث (الموثّقة)، وحتى بالأحاديث (الحسنة) ـ ولكن بشروط ـ، وهذا ما يمكن الحصول عليه بمراجعة الكتب الفقهية الاستدلالية المكتوبة منذ عهد ابن طاووس والعلامة الحلي وحتىٰ العصر الحاضر. ولم يقم مشاهير الفقهاء الذين يشكلون مراجع الفتوىٰ، وهم نموذج للفقه، بترك الأحاديث الموثقة والحسنة التي تشكل قسماً من الروايات الاخلاقية والاحتماعية لنا، ابداً، وإنما كانوا يستندون إليها دائماً، كما أن المراجع المعاصرين يفتون علىٰ هذا الأساس ايضاً.

إن معنىٰ (الحديث الضعيف) ليس دائماً حديثاً باطلاً وكاذباً، ولكن، وكما ذكرنا، من الممكن أن يكون ضعف الحديث سببه عدم معرفة الراوي، وربما كان هذا الشخص من الأشخاص الصادقين والعادلين. او ربما عُرِفَ الراوي ولكن لم يَرِدْ عنه مدح او ذم. ومثل هذا الحديث، في مثل هذه الظروف، ليس وحده حُجّة،

ولكن احياناً وعن طريق قرائن خارجية يمكن الاعتماد عليه. واذا لم تؤيده قرائن فإنه سيكون حديثاً لا يعتمد عليه. وأحد اهم اعمال الاستنباط هو أن يقوم الفقيه بالتحقيق حول (الحديث الضعيف)، ويسعىٰ قدر المستطاع إلى تصحيحه، ولولا الخوف من إطالة الحديث لجئنا بنموذج او نماذج في هذا الصدد.

إن الشيء الذي نكرره مرةً اخرىٰ هو أن (الحديث الضعيف) لا يعني (حديثاً كاذباً)، وكثيراً ما يحدث أن يعتمد عليه من خلال قرائن، خاصة اذا كانت صحة (ضعف الحديث) تعود إلى جهل الراوي او عدم معرفته وعدم تصريح علماء الرجال بذمِه أو مدحه.

وبملاحظة هذه المقدمة، نسعى الآن إلى حدٍّ ما، إلىٰ بيان واقع الاعتراض على كتاب (صحيح الكافي) ونوضّح أن هذا الكتاب ليس مفيداً كثيراً.

٣ ـ هذا الكتاب لا جدوىٰ منه:

ما هو الهدف من جمعِ الروايات الصحيحة في كتاب؟! فإذا كان الهدف هو أن يتعرف القرّاء على احاديث يرويها الإماميون، فإن هذا العمل لا يحتاج إلى تأليف كتاب مستقل، بل يكفي للوصولِ إلى هذا الهدف الاشارة إلى ارقام الاحاديث الصحيحة في كل باب، ولحسن الحظ فإن كتاب (الكافي) للكليني مطبوع بشكل مطلوب مع ذكر ارقام الأحاديث، فقد استطاع الكاتب ببضع اوراق تحت عنوان (ملحقات الكافي) أن يؤدي هذا العمل.

لا شك إنه لم يكن لديه مثل هذا الهدف، وإلاّ فإنه كان سيؤدي العمل كما ذُكِر، بل إنه كان يهدف لشيء آخر نوضِّحُهُ الآن.

المقصود من تأليف الكتاب[1] هو أن من بين احاديث (الكافي) ـ البالغة اكثر من ستة عشر الف حديث ـ فإن الأحاديث الصحيحة هي المقبولة، ويجب حذف الاقسام الثلاثة الأخرىٰ.

---

(١) المقصود هو كتاب (صحيح الكافي) ـ المترجم.

مثل هذا الهدف، رغم انه قد تمَّ بتأليف الكتاب، إلّا أن الهدف الأساس لا يعدو الخطأ ابداً. لأنه، وكما ذكرنا، أن حديث (موثوق الصدور) كان معمولاً به لدىٰ القدماء، وكذلك لدىٰ المتأخرين كانت اقسام الحديث الثلاثة، في حالةِ تثبت القرائن صدورها عن المعصوم، هو مقبول تماماً ولذا فإن تأليف مثل هذا الكتاب بماذا ينفع؟! لأن المستنبط والمجتهد او اي شخص مراجع لكتاب الكافي لا يمكنه في النهاية من الاستغناء عن كتاب (الكافي) الأصلي، ولا بد له أن يضع هذا الكتاب إلى جوار كتاب (صحيح الكافي) ولذا فإن هذا الكتاب (اي صحيح الكافي) لا جدوىٰ منه ولا اثر له.

٤ ـ الاختلاف بين عمل العلامة المجلسي وعمل المؤلِّف[1]:

العجيب أن المؤلِّف يقيس عمله بعمل المرحوم المجلسي وامثاله، وان العملين متشابهان، بينما الاختلاف كبير بينهما، فعمل المرحوم العلامة المجلسي منطقي تماماً ومفيد وعملي، ولكن عمل المؤلِّف يفتقد للجانب العملي وليس له أي اثر. إن العلامة المجلسي في شرحِهِ الشريف على كتاب (الكافي) والمسمىٰ (مرآة العقول) اورد مجموعة احاديث (الكافي) وعيّن نوع الحديث وصحيحه وشرحها كلَّها، ولم يقم بأدنىٰ حذف في الأحاديث، واما مؤلّف كتاب (صحيح الكافي) فقد حذف ثلاثة أقسام من الأحاديث، اكثرها مقبولة ومستند عليها من قبل فقهاء القرون العشرة الأخيرة، وجمع قسماً قليلاً من الأحاديث، فماذا يمكن أن يُسمىٰ هذا العمل؟! هل يُسمى خدمةً للحديث؟! وهل يمكن تثمين عمل كاتب حذفَ قسماً مهماً من احاديث الشيعة، رواتُها موثّقون وقد مُدحوا وأُثنيَ عليهم؟

وهنا نَلْفِتُ النظر إلى أنه لم يقم أحدٌ من فقهاء الشيعة الكبار المحدثين ذوي المكانة الرفيعة بمعارضة نقد الأحاديث في حالةِ فصلِها، والحقيقة أن تأسيس علم الدراية والرجال وجد لهذا الهدف، ولو أن هذا الشخص قام بنقد علمي بعيداً عن الآراء الشخصية الضيقة، لما اعترض عليه إنسان يفهم الموضوع.

---

(١) المقصود مؤلف (صحيح الكافي) ـ المترجم.

٥ ـ نقد الحديث مطابقةً للذوق والرأي الشخصي:

إن مؤلف كتاب (صحيح الكافي) يعتبر عمله في مستوىٰ عمل العلامة المجلسي وصاحبِ المعالم، وبنحوٍ الكليني نفسِه. ولكن الحق أن اسلوبَ عملِهِ في فصل الصحيح عن غير الصحيح لا يستقيم على اساس عمل الشخصيات الثلاثة المذكورين. وقسمٌ من الاعتراض عليه هو ما نذكرُهُ فيما يلي:

إن مقياس عمل اولئك في فصل الاحاديث الصحيحة هو سند الرواية واساس الوثوق بالراوي. أما هو فله اسلوب أشارَ إليه في المقابلةِ المنشورةِ له في مجلة (كيهان الثقافي) ـ السنة الثالثة، العدد السابع ـ، كما انه صرحَ بذلك في مقدمة كتاب (صحيح الكافي)، واسلوبه في فصل الحديث الصحيح عن غير الصحيح ليس (السند) فقط بل انه يأخذ نص الحديث بنظر الاعتبار. فإذا كان المضمون لا يتناسب مع ذوقه، فإنه يسميه حديثاً مزيفاً وموضوعاً وخاطئاً، ويبدأ بحذفِهِ من الكتاب، كنموذج نذكر ما يلي:

المحدثون الاسلاميون، بشكل قريب من التواتر نقلوا عن الأئمة المعصومين: إذا نقل شخص عملاً استحبابياً عن إمام معصوم وقام به شخص بنفس النيّة، فإن الله تعالىٰ يعطيه ثواب ذلك العمل، حتىٰ ولو لم يكن المعصوم قد قال ذلك الكلام.

هذا المضمون، وعن طرق صحيحة، وصلنا عن الأئمة المعصومين وقد وردت رواياتُهُ في مقدمة (وسائل الشيعة) ـ ابواب مقدمات العبادات، الباب الثامن عشر ـ ونص احدها، وسنده صحيح، هو «مَنْ سمع شيئاً من الثواب علىٰ شيءٍ فصنعه كان له وإن لم يكن على ما بلغه».

ولكنه اعتبر هذا الحديث في مقدمة (صحيح الكافي) من الأكاذيب، بأي دليل؟! يجب أن يُسألَ عن سببِه، ربما تصور أن وجود هذه الأحاديث سببٌ لدفع الآخرين إلى وَضْعِ الأحاديث، إذن فإن هذا النوع من الحديث ـ بزعمِهِ ـ لا يمكن أن يكون صحيحاً.

فهل صحيح أن يتم حذف احاديث هذا الباب من كتب الحديث بهذا المقياس الفكري؟!.. إنه غَفَلَ عن نقطتين:

اولاً: إن الإنسان الذي يقوم بانجاز عملٍ بهدف ثواب، من ناحية عقلية، هو إنسان مؤمنٌ حقاً، ليس فقط أن الأوامر المؤكدة لله تبارك وتعالىٰ دفعت به لإنجاز الأعمال، بل إنه مطيع لدرجة أن استحباب عملٍ يؤدي به إلى إطاعةِ انجاز ذلك العمل. إن مثل هذا الشخص في ظلِ هذا العمل ـ الذي يسمىٰ (إنقياداً) أي اسمىٰ من (الطاعة) ـ هو عقلياً مُصيب، كما أن شخصاً (متاجراً) ـ الذي يرىٰ عملاً حراماً ويؤديه حتىٰ ولو لم يكن ذلك العمل حراماً ـ هو عند العقل يستحق المؤاخذة.

ثانياً: علّة تشريع هذا القانون هو أن الشارعَ الاقدس لإحاطتِهِ بالأمور يعلم انه لو اكتفي بالعمل بالمستحبات واجتناب المكروهات طبقاً للخبر الصحيح ـ بإصطلاح المتأخرين ـ ربما لم يصل قسمٌ إلىٰ يد الآخرين، لذا توسعوا قليلاً في هذا القسم وازالوا القيودَ، في العمل بالمستحبات واجتناب المكروهات، من الفرائض والمحرمات.

ولا يوجد هنا مجال للتوسع، وإلّا لأوردنا نماذج كثيرة، ليتضح أنه استخدمَ ذوقه الشخصي في نقد الاحاديث، وهناك الكثير من الروايات الصحيحة اعتبرها مشايخ الشيعة صحيحة مثل العلامة المجلسي لم يوردها في كتابه، بل لَوّح بانها كاذبة.

٦ ـ محاكمة في غرفة مغلقة:

التحقيق حول اي موضوع، يعني محاكمة حول ذلك الموضوع، والقاضي عليه أن يضع امام المشاهدين اصول وقوانين القضاء وكلَّ ما يتعلق بمحاكمة المتهم، لكي يبرىء نفسه من أي نوع من انواع الأغراض الشخصية، ومحاكمة في غرفة مغلقة بدون وجود شهود ومشاهدين واصول التحقيق ليس عملاً صحيحاً.

إن حكمه حول احاديث الكافي، اشبه ما يكون بحكم القاضي في محاكمةٍ في غرفةٍ مغلقة دون شاهد وناظر ودون الاستفادة من أصول القضاء.

كان عليه اولاً أن يبيّن في مقدمة كتاب (صحيح الكافي) الأصول التي تميز الحق عن الباطل، ويُشَخِّص مقياس معرفةِ الحديث الصحيح عن الباطل. إن هذه الجملة حول مثل هذه المحاكمة المهمة لا تكفي: «لقد انتخبتُ بملاحـظة آراء الفقهاء العظام وخلال المراجعات اللازمة والمقايسة مع الكتاب والسنة».

إذا كان المقياسُ في التشخيص الصحيح عن غيرِهِ آراء الفقهاء العظام، إذن يجب عدم حذف الاحاديث الكثيرة التي اوردها العلامة المجلسي في (مرآة العقول) او مؤلف (منتقىٰ الجُمان) من كتاب (الكافي) لانها صحيحة.

وكما ذكرنا فإن مقياسَهُ لا يعدو سلسلة من الآراء الشخصية، ـ او بتعبير آخر؛ فكرْ خاص ـ إذ اعتبر الكثير من الأحاديث غير صحيحة، والى الله المشتكىٰ.

٧ ـ خطأ تاريخي:

ذكر المؤرخون انه عندما حكم بالموت علىٰ عبد الكريم بن أبي العوجـاء قال: «اقتلوني، فإنني قد انجزت عملي، اختلقت أربعـة الآف حديث، حـرمت حلالكم، وحللت حرامكم».

إن الكاتب المحترم استدل بهذا الحديث في مقدمة (صحيح الكافي) وفي كتاب (معرفة الحديث) ص ٤١، في أن الزنادقة حرفوا في احاديث الشيعة، وقد اشار إلىٰ ذلك في مقابلتِه مع المجلة، بينما أن الذين نقلوا هذه القصة قالوا إنه (ربُيبُ) حماد بن سلمة، الذي كان من كبار محدثي أهل السّنّة ولم يكن له ولد، فهو قد تبنىٰ ابن أبي العوجاء وشخصاً آخر اسمُهُ (زيد)، وهذان الشخصان حرّفا في كتب الحديث التي الّفها حماد وفعلوا ما لا يجب أن يفعلوه، وكمثال راجعوا كتاب (الموضوعات) لأبن الجوزي ص ٣٧.

ثم ما ارتباط هذه القصة بأحاديث الشيعة حتىٰ يورد ذلك في كل مكان بصورة مكبّرة، ويعتبره أحد اسباب وجود الاحاديث الباطلة في احاديث الشيعة؟ يجب أن يُسألَ هو عن ذلك.

إن مصيبة كتابات مؤلِّف (صحيح الكافي) إنما هي من مفاهيمِهِ الخاطئة عن التاريخ والرجال. فلو انه قام وبالمقياس الصحيح بفصل الاحاديث، لاحذفها، لكان عمله مفيداً ويستحق التقدير، ولكن مع الأسف فإن آراءه الشخصية أدت به إلى أن يعتبر القسم الاعظم من احاديث الكافي غير مُحبّذة.

نقصر الحديث هنا، ونتمنىٰ لجميع خادمي القرآن الكريم والاحاديث التوفيق.

* * *

كيف يستفيد الاشخاص العاديون من الأحاديث؟

ما هي الشروط اذا أرادَ شخصٌ عادي أن يستفيد من الأحاديث الاسلامية؟

الجواب:

لا شك أن احاديث النبي (ص) واحاديث ابنائِهِ الاطهار (ع) المتسلسلة عن جدِهم العظيم هي الركن الثاني للاسلام ومُبيّنة لركنِهِ الأول القرآنِ الكريم. فلو اننا تركنا هذين الركنين فإنه لن يبق مفهوم للاسلام. وهذه الحقيقة واضحة للذين يسعون في المعارف والحقائق الاسلامية.

الاستفادة من الحديث كالإستفادةِ من القرآن الكريم لها شروط، تحدث عنها المحققون الاسلاميون في بدايةِ كتاباتِهم التفسيرية والحديثية بالتفصيل.

طرحُ جميع هذه الشروط فعلاً يخرج عن دائرة بحثنا،لأن من يمتلكون هذه الشروط إنما يستحقون للياقتهم الاستفادة من هذين المنبعين الاسلاميين الأصيلين، واذا تعرضوا للخطأ، فإن خطأهم سيكون جزئياً، وطبعاً تكون قابلة للغفران. اما الحديث فهو عن الشخص الذي لم يتلق دروساً في العلوم الدينية إلى درجة تمكنه من الحصول على هذه الشروط ومع ذلك يريد الاستفادة من (الحديث). فهو، كما يقال، شخص عادي في المسائل الاسلامية وغير مدرك لها ولكنه يحب أن يستفيد من الكلماتِ النورانية لأئمةِ الدين؛ فعلىٰ مثل هذا الشخص أن يراعي النقاط التالية:

١ ـ محدودية الموضوع:

الاحاديث الاسلامية بحر، وهي تضم الموضوعات المختلفة: كالإلهيات، والاجتماعيات، والاخلاقيات، والاحكام الشرعية.

إن مثل هذا الشخص يجب عليه أن ينتخب موضوعاً تكون شروطه سهلة وبسيطة كالأحاديث الاجتماعية والاخلاقية، وليس الفقهية التي تحتاج احاديثها إلى شروط كثيرة لا تتوفر لدىٰ مثل هذا الشخص.

٢ ـ انتخاب الكتاب المعتبر:

عندما نثمن الاحاديث الاسلامية كالقرآن الكريم، فإن هذا لا يعني أن نثمن كل كتاب في الحديث، وننسب حديثَهُ إلى معصومٍ، وإنما أن نتلمس بأنفسنا اعتبارَ الكتاب، او بالرجوع إلى علماء ومحققي الحديث، وعندما نتعرف علىٰ مثل هذا الشرط عند ذلك نبدأ بالاستفادة.

وهنا نشير إلى اسماء بعض كتب الحديث من حيث هي فن معرفة الحديث تعتبر من الكتب المهمة، وعلى مثل هذا الشخص أن يستفيد من رواياتها الاخلاقية والاجتماعية:

أ ـ نهج البلاغة: تأليف السيد الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ) الذي يضم كلام الإمام علي بن أبي طالب (ع).

ب ـ (الكافي): تأليف الشيخ الكليني (المتوفىٰ عام ٣٢٩ هـ) في ٨ مجلدات.

ج ـ خصال الشيخ الصدوق: (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ).

وكذلك الكتب المعتبرة التي هي من الوثائق الاسلامية الكبيرة.

٣ ـ معرفة قواعد اللغة العربية:

لغة ديننا، هي اللغة العربية، وهي اللغة المشتركة بين جميع المسلمين، وهي لغة كتابنا السماوي (القرآن الكريم) والأحاديث الاسلامية طبعاً، والاستفادة الإجمالية منوطة بمعرفة هذه اللغة وقواعدها، وإلاّ لما امكن الاستفادة المباشرة من (الحديث).

واذا لم يكن شخص يعرف اللغة العربية وقواعدها واراد الاستفادة من الاحاديث الاسلامية فعليه أن يستفيد من التراجم الصحيحة لمترجمين أمناء

وصادقين يعرفـون اللغة العـربية وخصـوصيات (الحـديث). تحصيل هـذا الشرط صعب، غالباً، وما اكثر التراجم الضعيفة والحرة الموجودة في الفارسية.

٤ ـ الحزم والإحتياط:

عاشق الاحاديث الاسلامية وبعد اجتياز هذه المراحـل يجب عليه أن لا يفقـد الحـزم والاحتياط، وعليـه أن يـراجـع المتخصصين في حـالات الشـك والغمـوض ويناقش معهم مشكلات الأحاديث.

مع ملاحظة الشروط الأربعة فإن الأشخاص يستطيعون الاستفادة من الأحاديث الاسلامية (في القسم الخاص).

* * *

ما هي السياسة الخارجية في الحكومة الاسلامية؟

الجواب:

تصوّر المتغربون الذين مصدر ثقافتهم هو الثقافة الغربية تصوّروا أن الغرب هو مؤسس (العلاقات الخارجية) بين دول العالم، وأنه لم تكن هناك حقوق بإسم (الحقوق الدولية). إن هذه الأفكار الفجّة جاءت من نظراتِهم السطحية. إن من يقلب صفحات التاريخ يتعرف علىٰ سلسلة من التقاليد والعادات والروابط والقوانين التي بإمكانها أن تكون تعريفاً للحقوق الدولية، او العلاقات الخارجية لدول ذلك العهد علىٰ مستوىٰ امكانياتها.

لقد ظهر الاسلام منذ اليوم الأول بشكل دين جامع لكل شؤون الحياة الفردية والاجتماعية، ولم يغفل عن هذا الموضوع لدىٰ وضعِ حكومته، ووضع مباديء في مجال الحقوق الدولية في برنامج حكومتِه.

إننا لا نستطيع ترسيم جميع خطوط السياسة الخارجية للاسلام في هذا المجال الضيق والصفحات المحدودة. إن شرح جميع خطوط الحقوق الدولية بشكل موسع منوط بدراسةِ جميع الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، وجميع المعاهدات التي عقدها الرسول الأكرم (ص) مع الدول ورؤساء قبائل ذلك العهد، ومثل هذا البحث يخرج عن نطاق هذا البحث المختصر.

إن الهدف في هذا البحث هو إشارة عابرة إلىٰ قسمٍ من الخطوط والأصول التي رسمها الاسلام في مجال السياسة الخارجية. وبإمكان هذه الخطوط، إلى حدٍّ ما، أن تبين مباديء السياسة الخارجية للاسلام في العصر الحاضر.

يجب ملاحظة أن الاسلام، بحكم كونه خاتم الأديان، فهو يطرح مباديء

واصول جميع المواضيع، واما كيفية تنفيذ هذه المبادىء والاصول فتقعُ علىٰ عاتق رجال السياسة الاسلامية، وعليهم أن ينفذوها بالأساليب المناسبة لكل زمان.

وكما أن الأصل واللّب يحظيان بأهمية خاصة فإن السطح الخارجي والرداء الذي يغطيه له أيضاً اهمية كبرىٰ.

وكثيراً ما يُلاحظُ أن شيئاً حياتياً يُعرضَ عَرضاً لا يتناسب مع روح العصر وشروطه، يُعتبرُ غير صحيح، ولا يقبله المجتمع، بينما لو عرض مُشابهه عرضاً صحيحاً فإن المفكرين ينحازون إليه.

وهنا نذكر مبادىء، بإمكانِ أي مبدأ منها أن يرسم برنامج الاسلام، ونحن سنطرح كل مبدأ بصورة مختصرة.

١ ـ ملاك العلاقات الودية والعدائية:

يتصور احياناً أن الابحاث المتعلقة بالسياسةِ الخارجية تتلخص في قضايا الحرب والسلام، ولذا فإن هذين الموضوعين يبرزان اكثر من المواضيع الأخرى في الحقوق الدولية، بينما دائرة الحقوق الدولية اوسع من كلا الموضوعَيْن.

على اية حال، إن الاسلام، في علاقاتِهِ مع الدول الأجنبية ليس ذا بُعد واحد، أي انه ليس وراء الحرب دائماً، وليس من حماة السلام لدرجة يؤدي إلى فنائِهِ، بل انه يأخذ بنظر الاعتبار في حفظ علاقاتِهِ مع الدول الأجنبية، كيفية المعاملة وموقفها من دولة الاسلام، ويتصرف وفق ذلك.

إن القرآن الكريم أوضح هذين الموقفَين في آيتين من سورة الممتحنة ويعرفنا على اسلوبه قُبال الشعوب غير الاسلامية.

ففي موضع يأمرنا أن نسلك طريق الخير والعدالة (حسن الجوار وحفظ الحقوق المتبادلة) مع المجموعات والدول الأجنبية، هذا في حالةِ عدم قيام هذه الدول والشعوب بالتآمر علىٰ الحكومةِ الاسلامية ولا تتعرض لحدودها وفي هذه الحالة يقول الله عز وجل:

ـ ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المُقسطين﴾[1].

ولكن هناك مجموعة متآمرة تسعىٰ دائماً إلى إسقاط الحكومةِ الاسلامية ومحو آثار الاسلام، والتعرض لحدود الوطن الاسلامي وتشريد مجموعة من المسلمين من بيوتهم، إن هؤلاء يُبينون بعملهم انهم أعداء للمسلمين ويحقدون عليهم. لذا يجب مقاتلة هذه الفئة وكسر شوكتها، حيث يقول عز من قائل:

ـ ﴿إنما ينهاكُمُ الله عن الذين قاتلوكُمُ في الدينِ وأخرجُوكم من ديارِكُمْ وظاهَرُوا علىٰ إخراجِكم أَنْ تولَّوْهُمْ ومَنْ يتولَّهُمْ فأولئِك هم الظالمون﴾[2].

هاتان الآيتان نموذجان يوضحان المنهج السليم في كيفية التصرف مع الدول الأخرى.

٢ ـ للحصول علىٰ بيئة حرة:

الاسلام يمنع أي فرض للعقيدة، وأن الدين فكرة يجب أن تدخل فضاء العقل بكل حريةٍ وعن طريق التفكر، ومع ذلك فإنه في حالةِ الحصولِ على الحرية لنشر الاسلام وانقاذ المستضعفين من التسلط، يسلكُ طريق جهاد التحرير او الجهاد الابتدائي بدل السلام والمسالمة.

ولو أن المستكبرين يقضون علىٰ أي نوع من انواع الحرية لتبليغ الاسلام، ويمنعون وصول كلام الله تعالىٰ ورسالة النبي (ص) واوامره إلى آذان الشعوب، في هذه الحالة يبدأ الاسلامُ الجهادَ التعرضي[3] للحصول علىٰ الحرية، ولا يصغي لفكرة (عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرىٰ)، لأن الاسلام ليس مدرسة فلسفية تُكتب وتوضع في زاويةِ المكتبات دون التعرض للغبار، بل يجب أن تبلّغ هذه الرسالة في بيئةٍ حرة لكي ينخرط الناسُ فيها بملىء حريتهم ورضاهم.

---

(١) سورة الممتحنة الآية (٨).

(٢) سورة الممتحنة الآية (٩).

(٣) جهاد هجومي.

وعندما يتعرض الرؤساء وتقف القوىٰ الكبرىٰ لمنع نفوذ الاسلام إلىٰ حدودهم يبدأ الجهاد التعرضي ضد الطواغيت، شرح ذلك موجود في الكتب الفقهية.

٣ ـ الجهاد من أجل انقاذ الأشخاص من التسلط:

الموقف الآخر الذي يبدأ فيه الاسلام جهاده التحرري هو عندما يطلب المستضعفون الرازحون تحت تسلط الطواغيت حماية المسلمين، في هذه الحالة وحيث أن الحكومة الاسلامية تعتبر حامية مستضعفي العالم، فلا بد من تلبية ندائهم، كتابنا السماوي يأمرُ في هذه الحالة:

ـ ﴿وما لَكُمْ لا تُقاتِلون في سبيلِ الله والمستضعفين من الرجالِ والنساءِ والوِلْدانِ الذين يقولُون ربَّنا أَخرِجْنا من هذه القرية الظالمِ أهلُها واجْعَلْ لنا من لَدُنْكَ ولياً وآجْعَلْ لنا من لَّدُنْك نصيراً﴾[1].

ربما، لدىٰ البعض، يعتبر مثل هذا (التعرّض)[2] تدخلاً في شؤون الدول الأخرىٰ، ولكن يجب أن يعلموا ان الاسلام ليس ظاهرة مادية ولا يمكن أن يبقىٰ دون مبالاة أمام رفاه وحرية الشعوب الأخرىٰ، وأن يكون نجاح شعبه هو آخر ما يطلبه، وإنما حرية وانقاذ الإنسان الرازح تحت التسلط هدف آخر من الأهدافِ التي يرمي إليها ولا ينفصل عن اهدافِ المسلمين. وهنا تبرز معالمُ الصلح والصفاء، والحرب والقتال في السياسة الاسلامية الخارجية. ونحن جميعاً نعلم أن فقهاء الاسلام قسّموا الجهاد ضد العدو إلى نوعين:

١ ـ الجهاد الدفاعي.

٢ ـ الجهاد التعرّضي (الهجومي ـ او جهاد التحرير الابتدائي).

إن الجهاد، عُرّف اولاً، بأنه دفاع عن حياة ومال وحيثية الاسلام، وهذا النوع من الجهاد شائعٌ بين جميع الشعوب، وهنا يكون جواب العدو المهاجم بالأسلحةِ

---

(١) سورة النساء الآية (٧٥).

(٢) **الهجوم** ـ المترجم.

الساخنة، واما في الجهاد الهجومي (التعرضي) فإنه لا يحدث هجوم من جانب العدو، ولكن الحاكم الاسلامي ومن أجل إعدادِ البيئة الحرة لتبليغ الدين ولإنقاذ المستضعفين من التسلط، وبعد إنذار العدو وإتمام الحجةِ عليه بالطرق الدبلوماسية المعقولة وشرح الاهداف، يبدأ الهجوم، وذلك من أجل تلك الاهداف وليس للتوسع على حساب الدول.

ولذا، وبعد الوصول إلى الأهداف، فإنه لا يُتدخلُ في الشؤون الداخلية والتقاليد والعادات والمعتقدات التي يعترف الاسلام بها رسمياً، ولا يحصل شيء سوى وضع بضعة اشخاص على رأس الأمور لكي لا تتكرر المؤامرات ويُقضى على الحرية. وافضل دليل على هذه المعاملة ما حصل في تاريخ الفتوحات الاسلامية خاصة في الشامات ومصر.

* * *

كيف توضع القوانين في الحكومة الاسلامية؟

الجواب:

إن اتساع الحياة الاجتماعية للإنسان على سطح الأرض، وانتهاء مرحلة الحياة الفردية في الغابات والصحاري، يدل على ان الانسان يرغب في الحياة الاجتماعية ليتغلب، بالتعاون مع الآخرين على المصاعب.

من جهة اخرىٰ، إن الانسان موجود (مغرور) و (حب الذات) لديه أمرغريزي، فهو يريد أن يحوز علىٰ كل شيء، واذا حدث وخضع للقراراتِ الاجتماعية الثقيلة فإنما ذلك لاضطرارِهِ وللضـرورة، واذا لم يكن وجود لهـذه الضرورة، لمـا كفَّ الإنسان، في الغالب عن طبيعةِ الإحتكار، والدليل على ذلك انه كلما سنحت لديه الفرصة فإنه لا يحجم عن تضييع حقوق الآخرين.

ولهذا فإن جميع العلماء يتفقون علىٰ أن هناك ضرورة لوضع قوانين صحيحة لتشكيل مجتمع إنساني صحيح، ليتضح، في ظلالها، حقوق الاشخاص وواجباتهم في الحياة الاجتماعية، وهذه القوانين هي القوانين الاجتماعية التي تشكل الأرضية لمجتمع إنساني.

ولنرَ الآن من الذي عليه أن يضع اساس هذه الخطة الممتازة؟

يجب القول بصورةٍ اجمالية: إن المشرع (واضع القانون) منْ أجل أن يوصلَ المجتمع إلى الكمال عن طريق تنظيم البرامج الفردية والاجتماعية، ومن خلال تعييّن واجبات الأفراد يسعىٰ إلىٰ تأمينِ حقوقِهم الجسميةِ والنفسية، ولذا يجب أن يتوفر لدى المشرع الشرطان التاليان:

١ ـ المشرع (واضع القوانين) يجب أن يكون مُتَفَرِّساً في معرفة الآخرين:

لو كان الهدف من وضع القوانين تأمين الحاجات والضرورات الجسمية والنفسية للإنسان، إذن لوجب عليه أن يكون واقفاً علىٰ رموز واسرار جسم ونفس الإنسان بشكل دقيق. إن المشرع اشبه ما يكون بوصفةِ الطبيب، فإنها تكون كاملة ودقيقة إذا كان الطبيب مُلِماً بوضع المريض ووضعِهِ المعنوي من جميع النواحي، وتكون الوصفة مطابقة لما بالمريض، او بعبارة اخرىٰ انه يجب أن يكون المشرع خبيراً بمعرفةِ الآخرين والمجتمع معرفةً كاملة، وعندما يكون خبيراً بمعرفةِ الإنسان فإنه سيطَّلع علىٰ الغرائز والعواطف الإنسانية، ويقيس المشاعر والغرائز بشكلٍ كامل، ثم يقود المجتمع.

ويكون خبيراً بالمجتمع ليعرف واجبات الأفراد في المجتمع ويطَّلعَ علىٰ مصالح ومفاسد أعمال الافراد وردود فعل الحياة الاجتماعية وردود الفعل في الحياة الاجتماعية والروابط والعلاقاتِ الإنسانية.

٢ ـ أن يكون مبرءاً من أي نوع من انواع الاستغلال:

لكي يكون المشرع واقعياً ويحفظ مصالح الافراد فمن الضروري أن يبتعد عن اي نوع من انواع (حب الذات) و (الاستغلال) لدىٰ تدوينِهِ للقانون كما أن غريزة (الغرور) يُسدل حجاباً ضخماً امام انظار المشرع. والإنسان مهما كان عادلاً، وواقعياً، ومنصفاً، فإنه لا ارادياً يقع تحت تأثير مشاعر (الاستغلال) و (حب الذات).

ولنرَ الآن اين يجتمع هذان الشرطان بشكل كامل؟

لا شك أنه لو كان مفروضاً أن يكون المشرع خبيراً في الطبيعةِ الإنسانية وافراد البشر، فإنه لا يوجد من هو اكثر خبرةً من الله عز وجل ولا يوجد أحد اكثر إطلاعاً على مخلوقِهِ من خالقِه. والحقيقة أن القرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة: ﴿**الا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللطيفُ الخبير**﴾[1].

---

(١) سورة الملك الآية (١٤).

إن الله (سبحانه وتعالىٰ) خالق الذرات، والخلايا التي لا تعد، ومركّب القطعات المختلفة في الإنسان، بالتأكيد هو اعلمُ اكثر من الاخرين باحتياجات مخلوقِةِ الخفية والعلنية، ومصالحِهِ ومفاسدِهِ، وهو بعلمِهِ الواسع له اطلاعٌ كامل بعلاقات الأفراد وحركات اتصال القِطع ووظائفها مما يُشكل انسجاماً للمجتمع، ويعلم بالحقوق التي تستحقها مكانة كل إنسان.

الشرط الثاني، الابتعاد عن اي نوع من انواع (الاستغلال) لدىٰ وضع القانون، والله سبحانه وتعالىٰ هو وحده في هذا المقام ولا احد غيره، وهو عز وجل الوحيد الذي لا مصلحة له في المجتمع ولا يبغي نفعاً، وهو المُبَرىٰ من الغرائز خاصة غريزة (الغرور)، بينما جميع افراد البشر مبتلون بهذه الغريزة التي هي آفة وضع القوانين الصحيحة، والإنسان مهما سعىٰ أن يتخلص من قبضة هذه الغريزة إلّا انه يبتلىٰ بها ويقع فريسةً لها.

وكما قال جان جاك روسو: لإكتشاف او ايجاد افضل القوانين لصالح الشعوب يستوجب وجود عقلٍ كلي يرىٰ جميع الشهوات الإنسانية بشرط أن لا يحس هو، ولا تكون له رابطة بالطبيعة ولكنه يعرفها جيداً، ولا ترتبط سعادتُه بنا، ولكن يكون حاضراً ويساعدنا في سعادتنا، وفي النهاية يكتفي بافتخارات تظهر فيما بعد وبمرور الزمن، اي يخدمُ خلال قرن ويحصل على النتيجة في قرنٍ آخر.

بعبارة اخرىٰ يجب أن لا يكون هناك نفع للمشرع عند وضع القانون، لكي لا يضع حجاباً أمام بصيرته يمنعه عن تشخيص منافع ومصالح الآخرين، وإلّا فإنه مهما اراد تطبيق العدل يقع فريسة مشاعر (الاستغلال) و(حب الذات) وينحرف عن الصراط المستقيم للعدل.

أ ـ كيفية وضع القوانين في الحكومة الاسلامية:

من وجهةِ نظر القرآن الكريم فإن القوة المقننة، فردية كانت او جماعية، ووضعَ القوانين ليس الشارع فيها غير الله تبارك وتعالىٰ، والباقون من فقهاء ومجتهدين ليسوا سوىٰ خبراء في معرفة القوانين، يوضحون، بالرجوع إلى منابع القانون، الأحكامَ والقوانين الإلهية.

بدارسةِ الآيات القرآنية يثبت لنا بوضوح أن التقنين والتشريع يرتبط بالله عز وجل. في النظام التوحيدي رأي اي إنسان لا يعتبر حجةً بحق أحد، ولا يحق لأحد أن يفرض رأيه علىٰ شخص او علىٰ المجتمع، ويُجبر الناس علىٰ تنفيذِ ذلك.

من وجهةِ نظر النظام التوحيدي وبحكم حديث الرسول الأكرم (ص) **«الناس سواسية كأسنان المشط»** ولذا فلا مبرر هناك لكي يقوم شخص او لجنة بوضع قانون مزوّر لصالح فردٍ او مجموعة، او لضررِ فرد آخر ومجموعةٍ أخرىٰ، ثم يجبر الناس على اتباع هذا القانون.

من وجهةِ نظر النظام التوحيدي فإن اسمىٰ مظهر للمساواة هو فيما قاله رسول الله (ص): **«الناسُ أمام الحق سواء»**. إن القانون يُنفَّذ بحق جميع الأفراد، بإلغاءِ جميع الامتيازات. إن الاسلام يخالفُ بشدة نظام الطبقات الظالم الذي يجعل مجموعة يفكرون فوق القانون، ومجموعة يشملهم القانون.

هناك آيات كثيرة تعتبر التقنين لله تبارك وتعالى وحده ولا يسمح لأي أحد أن يدخل حدود الحق الخاصة بالله عز وجل، وسنأتي بنماذج.

آيات هذا القسم تدل على انه لا يحق لأحد غير الله تعالىٰ وضع القوانين والحكم، مثلاً:

﴿ما تَعبُدُون من دُونهِ إلاّ اسماءً سميتمُوها أنتُمْ وآباؤكم ما انزلَ الله بها من سلطانٍ إنِ الحكمُ إلاّ لله أمَرَ ألاّ تعبُدوا إلاّ إيّاهُ ذلك الدينُ القيمُ ولكِنَّ اكثرَ الناسِ لا يعلمون﴾[1].

جملة (إن الحكمُ إلاّ لله) جاء في موضعين من سورة يوسف احدهما في هذه الآية، والآخر في الآية ٦٧ وهي:

- **﴿وقالَ يا بَنِيَّ لا تدخُلُوا من بابٍ واحدٍ وادْخُلوا من أبوابٍ متفرقةٍ وما أُغني عنكم من الله من شيء إنِ الحكمُ إلاّ لله عليه توكلتُ وعليه فلْيتوكلِ المتوكلون﴾**.

---

(١) سورة يوسف الآية (٤٠).

(الحكم) تعني احياناً الحكمَ التكويني والخَلْقي في أن مجموع العالم في قبضتِه المقتدرة وتدبيرِه.

والمقصود من (إن الحكمُ) في الآية الثانية وبقية جمل الآية تؤيد ذلك.

لأن يعقوب بينما يدل أبناءه للوصول إلى الهدف ويبين طريقَ النجاح ويقول «ادخلوا من ابـواب متفـرقـة» فـوراً يقـول: ﴿وما اغني عنكم من الله من شيء إن الحكمُ إلاّ لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾.

إن لحن الآية تدل على أن هدف الآية هو بيان حكومته والحكم التكويني لله عز وجل، حيث يُشار إليه في موضعٍ آخر بجملة ﴿له ملكُ السمواتِ والأرض﴾[1] ومقصود (يعقوب) هو أن جميع الأعمال في العالم، ومنها النجاح والإخفاق بيده تبارك وتعالىٰ.

واما المقصود من ذلك في الآيةِ الأولىٰ، فهو الحكم التشريعي، أي ان الله عز وجل تلك المنزلة التي يحق له فيها أن يأمر وينهي، يُحلل ويحرّم، ولذا يقول مباشرة ﴿أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه﴾، وكأن بعد جملة ﴿إن الحكمُ إلاّ لله﴾ يوجد أحدٌ يسأل: الآن ومقامُ حكم التشريع لله، فما أمرُهُ بالنسبةِ للعبادة؟ يأتي الجواب فوراً ﴿أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه﴾.

ولذا فإن المقصود من ﴿إن الحكم إلاّ لله﴾ هي الحكومة التي تكون نتيجة او اساس السلطة التشريعية والقوة التقنينية. ومثل هذا المقام ينحصر لله سبحانه ولا يحق لأي أحد أن يتدخل في هذا المقام ودون سمـاح منه يضع قانوناً وحكماً ويُعيّن واجباً.

في الحقيقة يجب أن يُلاحظ انه لا يمكن اداء حكم مهما كان ظالماً وطاغوتياً دون ضابط وقانون، واذا تجاوزنا حياة الغاب، ولا يمكن تسميتها او وضعها بانها حياة إنسان، فإن أي حضارة ومجتمع، حتىٰ ولو كان بعيداً عن النظام التوحيدي فإنه

---

(١) سورة الحديد الآية (٢).

يحتاج إلى ضابط وقانون. ولو أن هذه الآيات تحصر الحكم بالله عز وجل، طبعاً فإن ارضية ذلك أي التشريع والتقنين، سيكون لله تعالىٰ.

وبعبارة أخرىٰ، إن روحَ الحكومة وجمالها وقبحها، تتجلىٰ في القوانين المتحكمة بها، وعليه فإنه سيكون بعيداً عن الحقيقة أن يكون الحكمُ لله عز وجل ويكون تقنين القوانين وضوابطها في يد البشر.

ب ـ القوانين الثابتة والمتغيّرة:

وهنا يُطرحُ سؤالٌ معروف، وهو: إذا لم يكن هناك مشرعٌ غير الله، وقانون غير قانون الوحي الإلهي، الواردة في الكتاب والسُّنة، في هذه الحالة كيف يمكن إدارةُ مجتمع متحوّل بالقوانين السماوية الثابتة؟ المجتمع المتحرك النشط يحتاجُ إلى قوانين متغيّرة متجاوبة، بينما القوانين الإلهية ثابتة ولا تتغيّر.

الجواب:

في الدراسة المتعلقة بـ(خاتمية) الدين ثبت ان الاسلام له نوعان من القوانين:

١ ـ القوانين الثابتة أو الأبدية التي لا يمكن أن يحدث فيها تغير.

٢ ـ المبادىء والقرارات المتغيّرة والمتحوّلة التي تتغير وتبدل تبعاً مع تغيير الشروط والمقتضيات.

الآن ومع أن آيات القرآن الكريم تثبتُ بوضوح التوحيد التشريعي، فما هو وضع السلطة التشريعية حول هذا القسم من القرارات؟!

في هذا القسم من المقررات التي يتبدل فيه بمرور الزمن الشكل واللباس احياناً تستوجب الظروف أن تتدخل الحكومة تدخلاً ودياً وتعقد علاقات صداقة وتوسع التقارب السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، واحياناً تستوجب الظروف أن تقطع علاقاتها او على الأقل تحرم المسائل الاقتصادية والثقافية إلى مدة معينة، ولكن هذه المتغيرات تكون بشكل تنفيذ القانون وليس في القانون، وإلاّ فإن اصل القانون لا يتغير ولا يتبدل ابداً. وعلى الحاكم الاسلامي أن يحفظ ويصون

المصالح الاسلامية ومكانة المسلمين، ولا يسمح أن يقع الوطن الاسلامي تحت سيطرة الكفار والمستعمرين، فالقرآن الكريم يقول: **﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾**[1] المهم هو حفظ كيان الاسلام، وقد يكون في مجال قطع العلاقات، وقد يكون في تمتين اواصر هذه العلاقات.

وكذلك في مسألة تقوية البنية الدفاعية الاسلامية، فلدينا مبدأ عام اوضحه القرآن الكريم: **﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة..﴾**[2].

إن هذا القانون الذي يدل علىٰ تفوق الجيش الاسلامي على بقية جيوش العالم، لا يتغيّر ولا يتبدل ابداً، وانما الشيء الذي يتغيّر هو اسلوب تنفيذ ذلك في العهود المختلفة. في الماضي كان تفوق الجيش الاسلامي يتمثل بالحصول على القوس والنشّاب والسيف والرمح. واما الآن فإن هذا الأمر قد اتخذ شكلاً آخر، ويجب أن يتزود الجيش الاسلامي بأحدث الأسلحة للقواتِ البرية والبحرية والجوية.

النتيجة هي أنِ التشريع الإلهي ليس بيد عباد الله ابداً، حتى في هذا القسم من القرارات فإن اساس القانون وروحه قد توضّحا واما الشكل واللباس فتحت اختيار وتصرف الحاكم الاسلامي.

ج ـ دور الجهاد واستنباط الاحكام:

الاجتهاد يعني السعي العلمي بالاسلوب الصحيح لدرك قرارات الاسلام، بالاستفادة من القرآن الكريم، والروايات، والإجماع والعقل. إن الاجتهاد والتفقه اللذين يسميانِ بالقوة المحركة للاسلام، هما احد الاسباب التي خَلَّدت الاسلام. لأنه عن هذا الطريق يمكن استخراج أي حكم في أي موضوع من القرآن الكريم والروايات، ولذا وعن هذا الطريق ايضاً يمكن الاستغناء عن قوانين الآخرين.

---

(١) سورة النساء الآية (١٤١).

(٢) سورة الأنفال الآية (٦٠).

إن الاشخاص الذين لهم اطلاع علىٰ تاريخ الفقه الاسلامي، يعلمون أن الاجتهاد حتىٰ في زمن النبي الأكرم (ص) وسائر الأئمة (ع) كان موجوداً، فكيف بالأزمنةِ التالية!!. طبعاً يجب أن تعرف ان الاجتهاد في ذلك الزمن كان يختلف كثيراً عن عصرِنا.

كان الاجتهاد في ذلك الزمن واضحاً، ويشتمل في الاغلب، على نقل الاحاديث وحفظها. كما كانت آيات القرآن التي تُسَهِّل فهم الاحاديث وتُبسطها كثيرة، وفي المواضع التي كان المسلم يجد غموضاً فإنه كان يستطيع أن يسأل النبي الأكرم (ص) او الإمام عليّاً (ع) لكي يزول الغموض، والشك والترديد عن نفسِه، ولكن كلما ابتعدنا عن ذلك الزمن، وعلى إثر الاختلافات في الآراء والروايات، وايضاً لحالة الشك في بعض الرواة، فإن الإجتهاد أخذَ لنفسِهِ جانباً فنياً، وازدادت حاجة الأُمة الاسلامية إلى الاجتهاد واتسعت دائرتُه.

ولكي نعرف أن الاجتهاد كان موجوداً بين اصحاب النبي (ص). يكفي أن نلاحظ، بين الروايات الكثيرة، الروايتين التاليتين:

١ ـ عندما أُرسل (معاذ بن جبل) من قبل رسول الله (ص) إلىٰ اليمن سأله رسول الله (ص) عن المصادر التي يعتمد عليها في حكمِهِ.

فقال: آيات القرآن الكريم.

فسأله (ص): وإن لم تجد آيةً في الموضوع الذي تريد الحكم فيه؟

قال: الاحاديث التي سمعتها منك والتي احفظها.

فسأله (ص): وإن لم تجد حديثاً سمعت به بالموضوع ماذا تفعل؟

قال: اجتهد.

وهذا يعني الاستفادة من جميع آيات القرآن الكريم والروايات التي هي محفوظة عندي استنبطُ حكماً بالموضوع.

ففرح الرسول الأكرم (ص).

٢ ـ قال الإمام الباقر (ع) لـ (ابان بن تغلب) وهو احد اصحابِهِ العلماء

الفقهاء: اجلس يا ابان في مسجد المدينة، وأفتِ النـاس، إنني أحب أن يكون مثلك بين اصحابي[1].

من الواضح أن القصد من الفتوىٰ ليس فقط نقل الروايات، بل المقصود أن يفتي في كل موضوع خاص يرد في آية او موضوع، طبقاً لتلك الآية او الرواية، واما اذا لم يذكر ذلك الموضوع في آية او رواية عليه أن يستنبط من الآيات والروايات العامة، والقواعد العامة الصادرة عن الامام عليه السلام حكماً ويفتي طبقاً لذلك، وكما قال الأئمة عليهم السلام:

«علينا إلقاء الاصول وعليكم التفريع».

د ـ مكانة المجتهدين والفقهاء في النظام الاسلامي:

الفقيه هو مستخرج القوانين الإلهية، ويستنبط احكام الله تعالىٰ من المنابع الأربعة ويضعها تحت تصرف الناس. إن الفقيه في النظام الاسلامي ليس مُقنناً، فهو لا يضعُ قانوناً ولا يُبطل قانوناً، ولكن بما أن معرفة القوانين الإلهية من مصادرها تحتـاج إلى تخصص وصلاحيـة علمية، فـإن المجتهد اثـر اكتسـابـه لسلسلةٍ من الصـلاحيات بـإمكانـه أن يستنبط الاحكـام الإلهيـة من الكتـاب والسُّنّـة والعقـل والإجماع، ويُريح الآخرين من مشقاتٍ كثيرة.

إن واجب المجتهد يتلخص في معرفة القانون واستنباط الاحكام من وثائقها، إن (الاجتهـاد) هو وسيلة لمعـرفة القـانون، وعن طـريقِه يمكن معـرفة الحق من الباطل، والقانون من اللاقانون.

وقد حظيت هذه المسألة بأهميـة كبيرة في فقـه الشيعة اكثـر من المذاهب الأخرىٰ، وفقهاء الشيعة لا يعتبرون أنفسَهم ذوي مكانة إلّا معرفتهم بالاحكام الإلهية واستنباط القوانين الإلهية من خلال الدلائل الموجودة كما انهم يعتبرون (الاجتهاد) وسيلة تشخيص وسعي لمعرفة واجبات العباد.

---

(١) بتصرف عن الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٤٧.

إن (الاجتهاد) وسيلة معرفة وليس من مصادر القانون.

إن فقهاء الشيعة يعتبرون؛ الأدلةَ الأربعة، خاصةً (سُنّة) الرسول (ص) الواصلة عن طريق أئمة اهل البيت وسُنّة الأئمة بدليل عصمتهم والحائزة على التأييد الإلهي، يعتبرون كل ذلك كافياً لاستخراج الأحكام الإلهية لقضايا المجتمع التي تتزايد يوماً بعد آخر، وقد ثبت صدق ذلك خلال القرون الاسلامية الأربعة عشر. وفي هذا الصدد يكفي أن نعلم انه يوجد في أحدِ المؤلفاتِ الجامعة للحديث باسم (وسائل الشيعة) حوالي ثمانية وثلاثين الف حديث فقهي، وإذا ألحقنا كتاباً آخر لجمع الحديث بأسم (مستدرك الوسائل) لَوَضَح اتساع المصادر الفقهية الاسلامية للشيعة بشكل كامل، خاصةً أنه يوجد بين هذه الأحاديث سلسلة من القوانين العامة ومبادىء بإمكانها أن تكون جواباً للكثير من الاحتياجات.

فقهاء المذاهب الأربعة، وكذلك المذاهب الفقهية الاخرىٰ، ومنها المذاهب التي كانت موجودة قبل مؤسيسها او بعدهم وُجِدَت، الجميع يعتبرون (الاجتهاد) من مصادر الحكم الإلهي، وبدلاً من أن يستفيدوا منه كأداةٍ للمعرفة يعتبرونه مصدراً للحكم، ويضعون (الاجتهاد) إلى جانب الأدلة الأربعة المعروفة (الكتاب، السُّنة، الإجماع، والعقل)، ودليلهم في نظريتهم هذه هو؛ ان وثائق الأدلة الأربعة لا تحوي اجوبةً للحوادث اللامتناهية، والمصادر المتناهية لا يمكن أن تكون جواباً على الحوادث المتزايدة واللامتناهية، ولذا يجب الاستفادة من (الاجتهاد) باعتباره (مصدراً)، طبعاً ليس كل اجتهاد، وإنما الاجتهاد الذي يعتمد علىٰ سلسلة من المحاسبات والمقايسات، كالقياس والاستحسان والمَصالح والمفاسد.

العالمُ المصري الكبير في كتاب (الوحي المحمدي) يقول إن الأحاديث الفقهية لا تتجاوز خمسمائة حديث[1]، فهل يمكن، في هذه الحالة، أن نتوقَعَ أن تكفي السُّنة النبوية مع المصادر الثلاثة الأخرىٰ لتشمل الحوادث اللامتناهية؟

---

(١) الوحي المحمدي ص ٢٥٠، طبعاً المقصود في المصدر المحدود لأهل السُّنّة.

يقـول ابن رشد في الاستـدلال على استحكام القيـاس: (إن الوقـائـع بين اشخاص الأناس غير متناهية والنصوص والأفعال والاقرارات (تقـرير النبي (ص)) متناهية ومحال أن يقابل ما لا يتناهىٰ بما يتناهى)[1].

إن هذا التعبير من عالم كبير مثل (ابن رشد) جعل الآخرين ايضاً يقبلوه كمبدأ موضوعي. الكاتب السوري المعاصر (احمد مصطفى الزرقاء) مؤلف الكتاب الثمين (المدخل الفقهي العام) يوسّع عبارة ابن رشد ويقول:

- «ولا يخفى ان نصوص الكتاب والسُّنة محدودة متناهية والحوادث الواقعة والمتوقعة غير متناهية فلا سبيل إلى اعطاء الحوادث والمعاملات الجديدة منازلها واحكامها في فقه الشريعة إلاّ علىٰ طريق الإجتهاد بالرأي»[2].

تصويب وتخطئة:

يوجد، في اصول الفقه الاسلامي، اصطلاحان هما (تصويب) و (تخطئة). اصطلاح (تصويب) للأشاعرة من أهل السُّنة، واصطلاح (تخطئة) للشيعة.

والمقصود من هذين الاصـطلاحين هو؛ هـل أن كل مجتهـد (مصيب) في استنباطِه ووصلَ إلى الواقع أو أن بعض آرائِهِ، من الممكن أن تصيب عين الحقيقة والبعض الآخر تخالفها؟!

إذا كـان (الحكم) في مسألـة واردة في الكتاب والسُّنـة والشريعـة أبـرزت حكمها، فإن الجميع يعتبرون أنفسهم (مخطئين) لأن حكم الله تعالىٰ واحد في هذه الصورة، والمستنبطان اللذان يخالف أحدهما الآخر لا يمكن أن يكونا مُصيبين، ومن المؤكد أن أحدهما قد اخطأ في فهم الموضوع ولذا حكمُهُ خاطىء ولا يطابق الواقع.

---

(١) بداية المجتهد ـ ج ١ ص ٢.
(٢) المدخل الفقهي العام ج ١ ص ٧٧

طبعاً هذا عندما يكون الحكم غير وارد في المصادر الفقهية المحدودة (طبعاً من وجهة نظر فقهاء أهل السُّنة). وبهذا الخصوص فإن فقه السُّنة يعتقد أن تشريع احكام هذه الحوادث متروكة للمجتهدين والفقهاء، الذين يسعون بالبحث، مع ملاحظة المبادىء والمباني الخاصة التي تتلخص كلها في (القياس) و (الاستحسان) و (المصالح والمفاسد) و (سد الذرايع)، بتشريع الأحكام الإلهية، وفي هذه الحالة فإن (التخطئة) لا معنىً لها، لانه طالما كان المجتهد على رأيِهِ فإن الحكم الإلهي هو هو ولا واقع إلّا تشخيص المجتهد له.

الخلاصة إن (التصويب) و (التخطئة) في (الاحكام المنصوصة) لا معنىً لهما ولا مفهوم، ولا يمكن اعتبار أية فرقة او مجموعة (مصوّبة) وأن آراء كل مجتهد وفقيه هي عين الحقيقة، وإنما يكون (التصويب) عندما يكون حكم الحادثة غير موجود في المصادر المحدودة، وترك تشخيصه لفقهاء العصر ضمن سلسلة محاسبات وقياسات. في هذه الحالة فإن رأي كل مجتهد سيكون عين الحقيقة، ويصبح الاجتهاد، في هذه الظروف، من مصادر الاحكام وليس من أدواتها.

لقد أوضح الشيخ الطوسي في كتاب (عدّة الاصول) مسألة الاختلاف في (التصويب والتخطئة) ويقول: إن ابا علي وابا هاشم وابا الحسن واكثر المتكلمين وفقهاء اهل السُّنة (مصوّبة).

ثم يُعيّن موضع النزاع ويقول:

ـ «واعلم أن الأصلَ في هذه المسألة القول بالقياس والعمل باخبار الاحاد، لأن ما طريقه التواتر وظواهر القرآن، فلا خلاف بين أهل العلم أن الحق فيما هو معلوم في ذلك»[1].

هذه العبارة توضح القصد من (تصويب) وأن مكان هذا الرأي هو حيث لا يوجد دليل من الشرع عنه. لأن القياس وبعض اقسام الخبر الواحد (وليس جميع

---

(١) عدة الأصول ج ٢ ص ١١٣ ـ ١١٤.

اخبار الآحاد) لا يعتبر حجةً لدىٰ الشيخ الطوسي. وقد جاء الإثنان كمثالٍ علىٰ ذلك.

المعرفة تصدق عندما يكون لها، خارج محيط المعرفة، واقع في الكتاب والسُّنة، ومراتبِ العلم الإلهي مثل (اللوح المحفوظ). ولكن عندما لا تكون هناك حقيقة في محيط الفكر وحدود مساعيه فإن الإجتهاد يتبدل من (اداة معرفة) إلى (مصدر معرفة)، ويتبدل الفقيه من خبير قوانين إلى مُقنن.

بينما الحالة في فقه الشيعة، في موضوع الاجتهاد، والتصويب والتخطئة، على صورةٍ اخرىٰ. ففي هذا الفقه فإن جميع احكام هذه الحوادث والوقائع، اعم عن تلك التي وقعت او التي يُتوقّع أن تقع، مُبيّنة في المصادر الاسلامية الموسعة، كما أن الشريعة الإلهية موجودة بشكل كامل تحت تصرف الفقهاء والمجتهدين الذين عليهم أن يجتهدوا او يسعوا لاستخراج الأحكام. طبعاً انهم في هذا الطريق يصيبون احياناً، ويخطئون احياناً أخرىٰ، ولكنهم معذورون، لأن حقَّ التقنين والتشريع، حتىٰ في ظلال سلسلة من المباني المستنبطة مثل (القياس) و(الاستحسان) لم يُعهدْ إلى أحد.

هـ ـ ما هو دور مجلس الشورىٰ الاسلامي؟

إن واجب مجلس الشورىٰ الاسلامي هو التخطيط والبرمجة في ظلِ القوانين الاسلامية، لتخرج هذه القوانين من الشكل الكلي إلىٰ الشكل الجزئي، وكلما كانت الثقافة والحضارة متقدمة كانت البرامج للمجتمع واحتياجاتِهِ المتزايدة والمتنوعة اكثر جدّية.

وبما انه من المحتمل أن يقوم النواب بوضع البرامج التي تتجاوز الخطوط الاصلية للاسلام وتكون قوانينهم مخالفة لتلك الخطوط، لذا يجب أن يكون هناك مجموعة من فقهاء الاسلام المعروفين الى جانب المجلس يدرسون قوانين ولوائح المجلس ويبينون مَدىٰ موافقتها للشرع. وتسمىٰ هذه المجموعة في نظام الجمهورية الاسلامية بإسم (مجلس نگهبان مجلس حراس الدستور أو الشرع).

و ـ كيف تحل مشكلة الاختلاف في الفتاوى في الحكومة الاسلامية؟ :

الاجتهاد في الفقه، في الوقت الذي هو سبب بقاء الشريعة والبحث فيها، هو ايضاً سبب ظهور الاختلافات والتشتت، والآن يأتي هذا السؤال: كيف يحل الاختلاف في الفتاوى في الجمهورية الاسلامية؟ خاصةً وأن باب الاجتهاد (دون أن يقيد المجتهد نفسَهُ بمذهب خاص كالحنفي او الشافعي) مفتوح وواسع في فقه الشيعة، ومن الممكن أن يكون الرأي المستنبط مخالفاً لجميع آراء اصحاب الرأي وحتىٰ علماء الفقه المعروفين. إن مثل هذا الاجتهاد الواسع يوجد الاختلاف، وطبعاً يخلق المشاكل في حياة الناس، وفي مشاريع الدولة والقضاء. هذه المشكلة كيف تحل في النظام الاسلامي؟

الجواب:

حديثنا يتعلق بالمرحلة التي يكون النظام الاسلامي مستقراً وقد خمدت الفتن والمؤامرات، ولا توجد هناك حالات اضطرارية، وهذه الحالات خارجة عن موضوع بحثنا.

إن مواضع الضرورة، من حيث الكمية والكيفية، مختلفة ومتنوعة وطريقة حلها تابعة للشروط المتحكمة بها، ولهذا فإن حديثنا هنا سيكون عن (النظام المستقر) الذي يخلو من أي اضطرار.

من الممكن أن يظهر اختلاف الفتوىٰ في ثلاث مراحل:

١ ـ العلاقات وحياة الناس.

٢ ـ القضاء وإصدار الحكم.

٣ ـ تخطيط الدولة.

المرحلة الأولىٰ: لا شك أن فقه الشيعة يعتبر باب الاجتهاد المطلق مفتوحاً، وأن تقليد المجتهد الحي واجب، وهذا الأمر جعل من فقه الشيعة فقهاً متكاملاً متقدماً ويكون مجيباً لحاجات كل عصر ووجوب تقليد الميت (ابتداءً) يقلل من ازدهارِ الفقه والسيرِ نحو التكامل.

إن مشاهير فقهاء الشيعة ليس فقط يوجبون تقليد المرجع الحي بل يعتبرون تقليـد (الأعلم) ـ اعلم الاشخاص في استنبـاط الاحكـام من مصـادرهـا ـ واجبـاً ويدفعون الناس نحو تقليد (الأعلم والأفقه)، وغالباً ما يعرفُ الاعلم والأفقه من قبل الأشخاص المتخصصين، ويُهتمُّ به، وفي النتيجة فإن اكثر الناس من حيث اختلاف الفتوىٰ لن يواجهوا مشكلة، وتتمركز المرجعية العامة في شخص واحد. وحتىٰ في المرحلة التي يتوجّه فيه الناسُ إلى المراجع المختلفين بما يريدون الفتـوىٰ عليه فإنهم لن يواجهوا ايضاً أية مشاكل، لأن الاختلاف على قضايا الناس قليلة جداً، وإذا كان يوجد اختلاف في اعماق الذهن، فإن المراجع المشهورين في (رسائلهم العملية) لا يعيرون ذلك الاختلاف أدنىٰ أهمية، وفي النتيجة فإن الكثير من الأعمال العبادية والعملية للمسلمين تطرق إليها جميعُ الفقهـاء. واما في القضـايا الفـردية والخاصة، فإن كل شخص يستطيع مراجعة مرجع تقليده لتوضيح أمره.

والحقيقة أن الاختلاف في الفتوىٰ، بشهادة التاريخ، لم يخلق مشكلة في حياة الناس. وبمـلاحظة هـذه المسألـة فإن مشكلة كبيـرة لن تظهـر. واذا برزت مشكلة، فإنها لن تكون لها أهمية مقابل المنافع الكبيرة للاجتهاد الذي يميل إلى الفقه والشريعة الباحثة بشكل خاص ويتطابق ذلك مع جميع الحضارات.

على المفكرين الكبار أن يصرّوا على بقاءِ هذا الباب مفتوحاً، وأن يوسّعوه على مساحةٍ اكبر.

المرحلة الثانية ـ من الممكن أن يُتصوّر أن اختلاف فتاوى الطبقة الأولى من المراجع يخلق مشكلة امام الجهاز القضـائي، لأن القاضي يحتـار امام اختـلاف الفتاوى، في أن يأخذ برأي أي مجتهد، مثلاً إنه يدين المتهم ام يبرىء ساحتَه؟ وإذا أدان فأي فتوىٰ يجعل ملاكاً له في كمية وكيفية الحكم؟

ولكن هذه المشكلة، مع وجود المعايير القضائية في فقه الشيعة تزول تماماً، لأن مشكلة الفتوىٰ في الجهاز القضائي يزول لوجود شرط (الاجتهاد) لدىٰ القاضي، فالقاضي يجب أن يكـون في فقه الشيعـة فقيهاً ومستنبـطاً ويصدر حكمـه، دون المراجعة إلىٰ (القانون المدوّن)، لاستخراجـهِ للحكم من المصادر الاستـدلالية.

والشيء الوحيد الذي يحدث هنا هو أنه من الممكن أن يكون اجتهاد القاضي في قضيتين متشابهتين تماماً مختلفاً، ولكن هذا المحذور ليس مهماً:

اولاً - إذا دُرست القضية في لجنة من القضاة جميعهم من المجتهدين المستنبطين، طبعاً فإنهم سيحولون دون إتساع الاختلاف، فتتشابه احكام القضايا المتشابهة في جميع المحاكم القضائية في البلاد.

ثانياً - إن هذا المحذور، حتىٰ اذا كُتب للقضاة (قانون مدوّن) فإنه يزول، لأنه في تطبيق ذلك القانون لا يمكن اجتناب اختلاف الرأي.

في الحقيقة أن تدوين القانون للقضاة هو نوع من التقليد لمحاكم الغرب وعدم أخذ (الاجتهاد) لدىٰ القاضي بنظر الاعتبار، وهذا ما لا ينسجم مع مباني فقه الشيعة. لأن القضية إما أن تكون حقوقية أو جزائية، أي انها إما تتعلق بقضايا مالية وحقوقية، او تتعلق بالحدود والتعذيرات. وحول الموضوع الأول فإنه يجب على القاضي أن يُبدي رأيه طبقاً لإجتهادِه واذا وافق القانون المدوّن مع رأيه فهو أفضل، وإلّا فإنه عليه أن يُصور رأيه طبقاً لإجتهاده، ويُحرم عليه الفتوىٰ خلافاً لتشخيصِه.

وحول الموضوع الثاني، أن (الحدود) والأحكام الجزائية مُعينة في الاسلام والاختلاف حولها قليل ونادر، ولذا فإن تدوين قانون واحد يعتبر لزوم ما لا يلزم، لأن اجتهاد القاضي يُغنيه عن مراجعة مثل هذا القانون المدوّن.

وحول (التعذيرات) من وجهة نظر الفقه الاسلامي، فإن الكيفية والكمية والتنبيه منوطة بتشخيص القاضي، وباصطلاح الفقهاء موكولة بـ (علىٰ ما يراه الحاكمُ من المصلحة). وفي هذه الحالة فلا حاجة للإمتناع عن اختلاف الرأي في (التعذيرات) أن يؤلَّف قانون مدون ويوضع تحت تصرف القضاة.

إن هذا الموضوع هو إحدىٰ النقاط المضيئة في الفقه الاسلامي، أن يترك كيفية تنبيه المذنبين إلى تشخيص القاضي، وأن لا يعاقب جميع المجرمين الذين يكون جُرمُهُم واحداً بعصا واحدة، إذ ربما يُصلَح مجرمٌ بتوبيخ واحد، بينما مَجرم آخر، بنفس الجريمة، لا يتم اصلاحُهُ بخمسين جَلدة.

إن الإصرار، في مجال التعذيرات، أن يكون هناك قانون واحد يعمل وفقه جميع القضاة، لا ينطبق مع المبدء المذكور الذي يتفق عليه جميع الفقهاء الكبار في الاسلام.

إن الإصرار علىٰ تدوين قانون واحد في المحاكم الحقوقية والجزائية إنما من اجل تجاهل الاجتهاد المطلق للقاضي، أو من اجل ضروريات تستوجب إزالة مشاكل الافراد عن طريق غير المجتهدين، ولأن هؤلاء يفتقدون للإجتهاد طبعاً لا بد أن يوضع تحت تصرفهم قانون مدوّن.

نعم إن تدوين القانون يعتبر للقضاة بمثابة (مرجع)، لا اشكال فيه ولكي يعمل القضاة طبقاً له، وهو برنامج ولباس للعمل، والمهم هو رأي القاضي وتشخيصه وليس لباس العمل.

المرحلة الثالثة: اختلاف الفتاوىٰ في تخطيط الدولة باشكالِهِ، وكذلك في عمل النواب في مجلس الشورىٰ الاسلامي، فإنه لن يخلق مشكلة. لأنه:

اولاً ـ إن الاحكام الإلهية، من الطهارات وحتىٰ الدّيات، تخرج عن دائرة اللوائح والمشاريع وتصديق النواب. لأن هذه الأنواع من الاحكام ترتبط بفقهاء الاسلام، ولا مجال فيه لإبداء الرأي من قبل الآخرين. مثلاً انه لا يمكن المصادقة على احكام البيع والرّبا والقصاص والدّيات لأن الحكم الإلهي في أُفق أعلىٰ من أن يخضع لتصويب عبادِ الله.

ثانياً ـ تخطيط النواب في المجال الثقافي والاقتصادي والسياسي، وكذلك اصدار الأحكام الرسمية، يجب أن يكون في إطار القوانين الإلهية العامة. وتشخيص موافقتها او مخالفتها منوط بالفقهاء المشرفين على ما يصادق عليه المجلس. إن مسؤولية هذا العمل تقع على فقهاء لجنة أو شورىٰ الحراس على القانون، وطبعاً يجب أن يكون هؤلاء مجتهدين بالإطلاق ولهم اطلاع كامل علىٰ المباني الفقهية، ويصادقوا على الأحكام، وأن تكون هذه القوانين مطابقة لمعايير الشرع، وكذلكَ يكونون هم ايضاً قد احرزوا الموازين الشرعية شخصياً، وأن لا يتبعوا في هذا المجال رأي مجتهد آخر.

بهذا يتضح أن اختلاف الفتوىٰ، في غير الضروريات، لا يُحدث مشكلة.

طبعاً إن ما يصادق عليه المجلس يجب أن تكون على شكل (قانون مُدَوَّن)، وبتعبير أصح (قرارات مدؤنة) وتُرسل إلى مراكزِ التنفيذ ويعمل وفقه الجميع.

ز ـ كيف يتم تعين المذهب الرسمي في الحكومة الاسلامية؟

يُتساءلُ احياناً عن جمهورية واحدة مثل الجمهورية الاسلامية في ايران، واحياناً (الجمهوريات الاسلامية المتحدة) يعني عندما نزول الحدود الموجودة وتنضوي تحت لواء واحد جميع الاقطار الاسلامية.

جواب الوجه الثاني خارج عن بحثنا، لأنه لا يجوز ابداء الرأي بصورةٍ قاطعة علىٰ هذا الموضوع ما لم تتهيء الأرضية للحكومةِ الواحدة ويحدث مثل هذا الانسجام والوحدة، بل يمكن بيان وجهة النظر إذا اتضح نوعية مثل هذه الحكومة.

طبعاً السؤال عن ارضية الجمهورية الواحدة التي أُسست الآن في ايران، ولا شك أن جميع المذاهب (الفقهية) بتصريح من الدستور هي محترمة ولأبنائها الحق في انتخاب الفقه الذي يريدون.

من جانب آخر، إن الشؤون الاقتصادية والثقافية والسياسية للحكومة تحتاج إلى اساس فكري لتقيس اعمالها طبقاً له وتجعلها تسير على خطٍ واحد. فصادرات وواردات الدولة لا يمكن أن تنسجم دون نظامٍ فقهي. طبعاً يجب أن يكون هناك مذهب فقهي يتحكم بذلك، وبما أن الدولة منبثقة من الأمة، فإن مذهب الأكثرية هو الحاكم وهو ملاك العمل، ويعني المذهب الرسمي.

ولكن بما أن اختلاف الفتوىٰ في (الاحوال الشخصية) موجود في جميع المذاهب الفقهية، وكل مجموعة تتبع مذهبها في المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والأرث، فإن القانون يعترف رسمياً بجيمع هذه المذاهب في تلك القضايا.

ولا بد أن يكون القضاة الكبار من المذاهب الرسمية، لكي يحكم كل قاضي وفقاً لدعاوى مراجعيه ووفقَ فقههم، ولحسن الحظ فإن للقوانين الحقوقية والجزائية

في الاسلام ـ في قضايا الابتلاء ـ من المشتركات ما لا تخلق أية مشاكل في اختلاف الفتاوى في المذاهب الفقهية.

ح ـ حقوق الأقلية في الحكومةِ الاسلاميةِ:

لا يوجد دين او حكومة في الدنيا، مثل الاسلام، يضمن حريةِ الاقليات، ويحافظ على شرفها وحقوقها الوطنية. فأي دين وأي قانون، مثل الاسلام، يضع وزناً واحتراماً للأقليات؟

إن الاسلام يؤمّن العدالة الإجتماعية الكاملة في البلد الاسلامي ليس فقط للمسلمين بل لجميع ساكني ارضهِ رغم اختلاف المذهب والعنصر واللغة واللون. وهذه إحدىٰ المزايا الكبيرة في عالم الإنسانية حيث لا يوجد، غير الاسلام، من يُحقق هذا الهدف.

فالاقليات الدينية بعقدِ اتفاقية (الذمّة) والحصول على تبعيةِ البلد يستطيع من العيش حراً في البلد الاسلامي ويستفيد من الحقوق الاجتماعية والأمنية في الداخل والخارج كجميع المسلمين.

١ ـ ما هي شروط الذْمّة؟

إن الشروط التي ينعقد فيها (الذمة) واتفاقية (الحماية)، هي ثلاثة، وتُفسخ هذه الاتفاقية بإنتفاء احد الشروط:

١ ـ أن لا يعمل (اهل الذمة) خلاف الاتفاقية، مثلاً اثناء الحرب عليهم أن لا يتعاونوا مع المشركين واعداء الاسلام، ويتآمروا ضد الاسلام ومصالح المسلمين.

٢ ـ يجب أن يتعهد (اهل الذمة) بالإلتزام بالاحكام الجزائية للاسلام التي تُطبق عليهم.

٣ ـ أن يقبلوا بدفع مبلغ كجزية (ضـريبة) للحكومةِ الاسلامية سنوياً.

هذه الشروط الثلاثة، هي الشروط الأصلية لـ(عقـد الذمّـة)، اما الشـروط الاخرىٰ التي يجب أن يُعمل على أساسِها من اللازم ذكرها في العقد. وبموجب هذه الاتفاقية، ومن الناحية الشرعية، يكون لهم حق على المسلمين. ويتمتعـون

بحماية الدولة الكاملة، ويكونون محفوظين ومصونين من كل نوع من انواع الأذىٰ، كما انهم يكونون أحراراً في القيام بمراسمهم الدينية.

إن هذا التسامح بالنسبةِ لأهل الكتاب (اليهود، النصارىٰ والمجوس) الذين يُسمونَ عند المسلمين (اهل الذمّة والمعاهدة) مبنيٌّ علىٰ نوعٍ من (المعايشة السلمية). في الواقع مع وجود المحدودية لأهل الذمة في الحكومةالاسلامية، إلّا أن الاسلام يضمن لهم الحرية والراحة إلىٰ الحد الممكن، وهذا واجب الحكومةِ الاسلامية أن يحترم مال وحياة وشرف اهل الذمة وأن لا تدع احداً يتجاوز حقوقهم.

من وجهة نظر الاسلام أن ناموس الاقليات الدينية الذين هم في ذمة الاسلام ولهم معاهدة حماية مع المسلمين، هو كناموس المسلمين أنفسِهم محترم ومصون.

عندما علم الامام علي (ع) أن عدداً من العصاة قاموا بأمر من معاوية بالهجوم على إحدىٰ مدن العراق واعتدوا على مال وحياة وناموس الناس فيها تأثر كثيراً وقال:

ـ «لقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل علىٰ المرأة المسلمة، والأخرىٰ المعاهَدَةِ فينتزع حِجلَها وقُلْبَها وقلائدها وَرِعاثَهَا، ما تمتنِعُ منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلْمٌ ولا أريق لهم دم»[1].

وفي رأي امير المؤمنين الامام علي (ع) أن ناموس المسلمين وأهل الذمة محترم لدرجة يقول:

ـ «فلو أن امْرَأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً»[2].

٢ ـ هل الجزية ضريبة عادلة؟

(الجزية) لماذا؟ إن الجزية نوع من انواع المساعدة من طرف أهل الذمة الى الدولة الاسلامية مقابل مسؤولية تأمين الأمن الذي تتعهد به. والجزية هي ضريبة

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ٢٧.

للدولة التي تأخذها من المسلمين تحت اسماء مختلفة: زكاة، خُمس، صدقات، وغير ذلك، ولذا فإن الأشخاص العاجزين، المجانين، الأطفال والنساء معافون من دفع الجزية، لأن الجزية ضريبة على المدخولات. يقول الامام الصادق (ع): «جرت السُّنّة أن لا تؤخذ الجزية من المعتوه ولا من المغلوب علىٰ عقله»[1].

ليس للجزية مقدار ثابت أو مُعين، فهي على قدر استطاعهِ اهل الذمة. سُئل الامام جعفر الصادق (ع) عن مقادر الجزية فقال:

- «**ذلك إلى الإمام يأخذ من كل إنسانٍ منهم ما شاء علىٰ قدر ماله وما يُطيق**»[2]. يقول جرجي زيدان في كتابه (تاريخ الحضارة الاسلامية):

- «كان الروم عندما يفتحون بلداً يفرضون على اهلها الضرائب، وكان مقدارها اكثر مما قرره المسلمون من جزية، مثلاً عندما فتح الروم بلدَ الغال (فرنسا الحالية) جعلوا مبلغ تسع إلى عشر ليرات ضريبة على كل شخص سنوياً، وهذا المبلغ يوازي سبع اضعاف الجزية التي وضعها المسلمون، وكانت ضرائبهم تؤخذ من جميع الطبقات والاشخاص بدون استثناء وحتىٰ الغلمان والعبيد لم يكونوا معافين من الضرائب».

من هذا الحكم يُصبح معلوماً أن حال أهل الذمة تراعىٰ في الجزية، مما يدل على المداراة الكاملة والمسالمة والعفو لدىٰ المسلمين.

يقول (محمد بن مسلم): «سألتُ الامام الصادق (ع) ماذا يجب أن يدفع اهل الذمة لكي يحفظ مالهم ودمهم؟ فقال: خراج «اذا كان صاحب اراضي مزروعة» واذا اخذت منهم الجزية فإنهم لن يدفعوا خراجاً، واذا دفعوا خراجاً لن يدفعوا الجزية»[3].

يصبح معلوماً من هذه الرواية أن أهل الذمة عليهم أن يدفعوا الخراج او

---

(١) وسائل الشيعة ج ١١، ابواب جهاد العدو باب ٥١ حديث ١ ص ١٠٠.
(٢) وسائل الشيعة ج ١١، ابواب جهاد العدو. باب ٦٨ حديث ١ ص ١١٤.
(٣) وسائل الشيعة ج ١١، كتاب الجهاد، باب ٦٨، حديث ٣ ص ١١٤.

الجزية، ولذا لا يجوز على الحكومة الاسلامية أن تأخذ من الاقليات الدينية إلّا إحدىٰ الضريبتين: الجزية او الخراج، كما سأل محمد بن مسلم من الإمام محمد الباقر (ع): هل يؤخذ من أهل الذمة غير الجزية ضريبة علىٰ أموالهم وماشيتهم؟ قال (ع): لا.

وعليه فإن مقدار الجزية تعتبر قليلة جداً مقابل المسؤوليات التي تقوم بها الحكومة الاسلامية. واهل الذمة لقاء دفع مبلغ سنوي اضافة إلى تمتعهم بالأمنِ الكامل فهم معافون من واجبات الدفاع والشؤون العسكرية، كما انهم معافون من الضرائب التي يدفعها المسلمون، طبقاً لقانون الاسلام، تحت اسماء مختلفة.

إن مسؤوليات المسلمين امام الحكومة الاسلامية هي اكثر وأصعب بمراتب عن أهل الذمة، فالواجب على المسلمين أن يدفعوا الخُمس والزكاة والصدقات للحكومة، ولدىٰ الضرورة يؤدون الخدمة العسكرية، بينما أهل الذمة، ولقاء مبلغ زهيد، يتمتعون بجميع مزايا الحكومة الاسلامية ويكونون سواسية مع المسلمين، بينما تكون مسؤولية الحكومة من حيث تأمين الأمن وايجاد وسائل الرفاه عامة للجميع.

٣ ـ الاعتراف بحقوق الأقليات:

يذكر القرآن الكريم بصراحة سياسة الاسلام العامة حول رعاية حقوق الشعوب والمذاهب الاخرىٰ فيقول:

﴿لا ينهاكمِ الله عنِ الذين لم يُقاتلوكُمْ في الدينِ ولم يُخرِجوكم من ديارِكم أنْ تَبرُّوهم وتُقْسِطُوا إليهم إنَّ الله يُحِبُ المقسطين﴾(١).

وهذا يعني أن الاقليات الدينية إن لم يعلنوا عليكم حرباً دينية ولم يضايقوكم ولم يخرجوكم من دياركم فإنه يتوجب عليكم أن تعاملوهم بالعدل والخير، وهكذا فإن الاسلام يسمح أن يعيش مخالفو الاسلام والاقليات الدينية في المجتمع

---

(١) سورة الممتحنة الآية (٨).

الاسلامي وأن يتمتعوا بالحقوق الإنسانية، ولكن بشرط عدم ايجاد المشاكل للاسلام والمسلمين وأن لا يعملوا ضدهم، يقول القرآن الكريم في آية اخرىٰ:

- **﴿إنما ينهاكمُ الله عن الذين قاتلوكم في الدينِ وأَخرجوكُمْ من ديارِكُم وظاهَرُوا علىٰ إخراجِكم أن تولَّوْهُمْ ومَنْ يتولَّهمْ فأولئك هُمُ الظالمون﴾**[1].

إن السياسة العامة للاسلام قبال الاقليات الدينية ومخالفي الاسلام تعتمد هاتين الآيتين، فما دامت الأقلية مسالمة ولم تعتدِ على حقوق الأكثرية ولم تقم ضد الاسلام والمسلمين ولم تتآمر، فإنهم أحرار في البلد الاسلامي، ومن واجب المسلمين أن يتعاملوا معهم بالعدل والخير، ولكن اذا عملوا ضد الاسلام والمسلمين وتعاهدوا في ذلك مع الدول الأخرىٰ، فمن واجب المسلمين أن يمنعوا نشاطهم ولا يعتبروهم اصدقاء.

نعم، إن الحرية واحترام الاقليات الدينية في الاسلام أساسٌ، فإذا كان احد أهل الذمة قام بعمل جائز في شرعهم ولكنه حرام في الشرعِ الاسلامي، مثلاً شرب المسكرات، في الحكومة الاسلامية، فلا يحق لأحدٍ أن يتعرض له ما دام لم يتظاهر بذلك، ولكن اذا تظاهر بذلك فإنه يتعرض للقانون لنقضِهِ قانون الحماية.

اما إذا قام بعمل محرم في دينهِ كالزنا واللواط وغيره فإنه امام القانون لا يفرق عن المسلم، وللقاضي أن يُقيم عليه الحدّ، او يسلمه إلى أُمتِه لكي يُعاقب طبقاً لقانونهم الديني. نقرأ في الفقه الاسلامي: إذا ترافع ذمّيان امام قاضٍ مسلم فإن القاضي مُخيّر في أن يطبق بحقهم الحكم الاسلامي او يعرض عنهما بموجب الآية الشريفة:

- **﴿فإنْ جاؤوك فاحكُمْ بينهم أوْ أعرِضْ عنهم﴾**[2].

---

(١) سورة الممتحنة الآية (٩).

(٢) سورة المائدة الآية (٤٢).

٤ ـ المعاملة الحسنة للمسلمين مع الاقليات الدينية:

يطلب الاسلام بإصرار من المسلمين أن يحترموا عهدهم في حماية اهل الذمة وأن يعاملوهم بالحسنىٰ، حيث يقول القرآن الكريم:

ـ **﴿ولا تُجادِلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالتي هي أحسنُ إلّا الذين ظلمُوا منهم وقُولُوا آمنّا بِالَّذي أُنزِل إلينا وأُنزِلَ إليكم..﴾**[1].

ويوصي الرسول الأكرم (ص) المسلمين بمداراة اهل الكتاب، وينقلُ حديث في هذا الباب عنه (ص):

ـ **«من ظلم معاهدا ومكنه فوق طاقتِه فأنا حجيجه يوم القيامة»**[2].

وفي مكان آخر يقول (ص):

ـ **«من آذىٰ ذمّياً فأنا خصمه، ومن كنتُ خصمه خصمته يوم القيامة»**[3].

* * *

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٦).

(٢) فتوح البلدان ص ١٦٧ طبعة مصر.

(٣) روح الدين الاسلامي، ص ٢٧٤.

العدلُ الإلهي والأطفال الاستثنائيون

يجري البحث في العلوم المختلفة حول الأطفال الاستثنائيين، وكل عالم ينظر إلىٰ الموضوع من زاوية خاصة ويدلي برأيهِ، والسؤال المهم في رأينا هو: ما هي جذور ظهور مثل هؤلاء البشر الناقصين في نظرِ الاسلام؟ وكيف يمكن انسجام ذلك مع العدل الإلهي؟!

الجواب:

اننا سنجيب هنا على السؤالين من وجهة نظر الاسلام. طبعاً سيُطرحُ في قسمٍ من البحث ما وَرَدَ في الكتب الاسلامية وصادق عليه العلم.

الأطفال الاستثنائيون هم تلك المجموعة ذات النقص العضوي والبدني أو ذوي الاختلال الفكري والنفسي. ولهذا يُسمىٰ هؤلاء الأطفال باسم (الأطفال الاستثنائيين) لأنهم يختلفون عن اغلب الناس، وكأن القانون الأولي بالنسبة لهم هو أن يكونوا أصحاء سالمين بينما هؤلاء يخرجون عن هذا القانون.

من وجهة نظر الفقه الاسلامي، إن مبدأ الخَلْق اولاً هو الصحة والسلامة، والنقص والمرض خلافُ للمبدأ الأول هذا. ولهذا السبب فإن المبدأ الأول في بيع البضاعة أن تكون سالمة لا عيب فيها، رغم أن اتفاقية البيع والشراء لا تحتوي علىٰ ذلك، او لم يُذكر علىٰ اللسان.

ويذكِّرنا القرآن الكريم أن خَلْقَ الإنسان يصل بالتدريج إلى التكامل، حيث يقول:

- ﴿. . ثم انشأناهُ خَلْقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1].

ويذكر القرآنُ الكريم ايضاً، في موضع آخر، ان الله سبحانه وتعالىٰ خَلَقَ الإنسان على أفضل وجه وشكل: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويم﴾[2].

إن هذه الآيات تدل أن مبدء خلق الإنسان هو أن يكون بلا عيب او نقص، واذا فقد إنسان هذا الكمال، فإن وجوده (استثنائي) في قانون الخَلْق.

ويذكرُ القرآن الكريم ايضاً أن الله عز وجل يخرج الإنسان من بطون الأمهات، دون أن يكون لهم أي علم، ثم يتعرفون على العالم الخارجي عن طريق اجهزة كالعين والأذن والفؤاد، وعن هذا الطريق يحصلون على معلومات:

- ﴿والله اخرجكم من بُطونِ امهاتِكم لا تَعلمون شيئاً وجَعَلَ لكُمُ السمعَ والأبصارَ والأفئدة لعلكم تشكُرُون﴾[3].

وتدل هذه الآية تلويحاً ان المبدأ الاساسي في خلق الإنسان هو وجود هذه الأجهزة، واذا فقد الإنسان مثل هذه الأجهزة، فمن الطبيعي أن يكون (إستثنائياً) في الخَلْق.

ويعرّف القرآنُ الكريم الإنسانَ باعتباره أعلىٰ المقتدرين والمتسلط على الأرض والبحر:

- ﴿ولقد كرّمنا بني آدمَ وحملناهُمْ في البرِ والبحرِ ورزقناهُمْ من الطيباتِ وفضّلناهُمُ علىٰ كثيرٍ ممَّنْ خَلَقْنا تفصيلاً﴾[4].

إن امثال هذه الآيات تدل على المكانة السامية للإنسان من حيث الجسم والروح والنفس. كما تدل على أن الاشخاص الناقصي الخلقة، في الجسم او النفس، هم بصورةٍ من الصور متخلفون عن قانون الخَلْق وطرّاح ذلك هو الله

---

(١) سورة المؤمنون الآية (١٤).

(٢) سورة التين، الآية (٤).

(٣) سورة النحل الآية (٧٨).

(٤) سورة الأسراء الآية (٧٠).

سبحانه وتعالىٰ. ولم يكن برنامج الخلق مبنياً علىٰ النقص، وأية ظاهرة مخالفة للكمال لها وجهة ثانوية واستثنائية.

يحظىٰ البحثُ حول الاستثناء، من جهاتٍ، على أهمية:

١ ـ ما هو عامل هذه النقائص والاستثناءات؟

٢ ـ كيف يمكن الحيلولة دون ظهور هذه الاستثناءات؟

٣ ـ هل تتنافىٰ هذه النواقص مع العدل الإلهي؟

٤ ـ في محيط التكليف فإن جميع ابناء البشر مسؤولون امام الله سبحانه وتعالىٰ، فهل مسؤولية هؤلاء تختلف عن بقية الناس أم تتساوىٰ؟.

البحثُ في هذه المجالات بامكانِه أن يكون مفيداً في مساعدة هؤلاء.

الاسلام وأسباب الاستثناء:

إن دراسة عوامل ظاهرة (الاستثناء) عند الإنسان، لها جوانبُ علمية، وقد استطاع علمُ اليوم أن يصل إلى معرفة قسمٍ من هذه العوامل، ويُشَخّص اسباب هذا النوع من الأبناء الاستثنائيين.

إن العلم البشري، وعلىٰ ضوء التجربة يعتبر الكحول، المخدرات، السجائر، الاتصالات الجنسية المحرمة، وإلى حدٍّ كبير الوراثة، مسببات لهذا النوع من الظواهر، ويصرّون علىٰ ذلك. ولكن مع الأسف أن هؤلاء الذين يعينون هذه الظواهر هم نصحاء مشفقون لا ضمان لكلامهم وبرامجهم، فهم يعيشون في مجتمع يشربون المشروبات الكحولية بدل الماء، والاتصالات الجنسية المحرمة لا تعتبر مخالفة قانونية، ولذا فإن اسباب ظهور هذا النوع من الظواهر الاستثنائية في الغرب تتلخص في العوامل المذكورة.

في الوقت الذي يصرُّ الغرب علىٰ هذه العوامل، إلّا أنَّ اسباب ظهور مثل هذه الإستثناءات لا تنحصر في العوامل المذكورة بدليل أن العالم الاسلامي الذي يوجد فيه قسمٌ من هذه العوامل لم يبق مصوناً من ظهور هذه العيوب والاستثناءات.

ولذا يجب القول: هناك سلسلة اخرىٰ من العـوامل تسبب في ظهـور مثل هؤلاء الأشخاص الاستثنائيين.

بالنسبةِ للأحاديث الاسلامية، هناك عوامل لهذا العمل تؤيدها العلوم في هذه الأيام، ولكن القسم الآخر لا يمكن تفسيرها بالعلوم المحدودة للإنسان ولذا يجب أن لا نترك هذا القسم بحجة أن هذا النوع من العوامل لم يعترف به العلمُ رسمياً.

الوحي وسيلة للمعرفة لا يمكن أن يُخطْىء، واذا كان صدور هذه الاحاديث من مقام الوحي، مؤكداً وثابتاً، فمن المسلم به أن العوامل المذكورة ستكون من اسباب ظهور الاشخاص ناقصي الخلقة.

في الحقيقة يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار أن العلم قام بحل قسم قليل من مجهولات الإنسان وازاح الستار عنها، بينما محيط جهل الإنسان الواسع اكثر إتساعاً من أن تتمكن اضواء العقل الضعيف من إنارتها.

مسكين ذلك الشخص الذي يفتخر بعلمهِ الناقص ومعرفتِهِ القليلة ويتجاهل تقارير المعلمين الإلهيين، ولذا فإن ما ذُكِرَ في تلك الاحاديث كأسباب لظهور هذا النوع من الظواهر، إنما هي تقارير يجب أن تستقر في محيطِ العلم، وربما تمكن العلم في المستقبل من كشفِ الستار عنها.

قسم من الأحاديث الاسلامية تدل علىٰ أن القسم الاعظم من هذه النقيصة تتعلق بجهل الوالدين بالنسبةِ لواجباتهما كأزواج وكيفية المقـاربة وتـربية الأبنـاء. بمعنىٰ أن هذه النقائص هي الثمن الذي يدفعه الآباء والأمهات لجهلهم. ونحن نشير الى قسم من هذه العوامل:

أ ـ سوء التغذية: تعتبر الاحاديثُ الاسلاميةُ سوءَ التغذية سبباً لظهور هذا النوع من النقائص، وأن حُسنَ التغذية نوعٌ من أنواع منع ذلك.

١ ـ قال النبي الأكرم (ص): (**أطعموا السفرجل فإنه يُحسن أولادكم**)[١].

---

(١) بحار الأنوار ج ٦٣ ص ١٧٦.

٢ ـ قال الإمام علي بن موسىٰ الرضا (ع): (**اطعموا احبالكم اللبان فإن يكن في بطنها غلام خرج زكي القلب، عالماً، شجاعاً، وإن يكن جارية حسن خلقها وخلقتها**)[١].

٣ ـ قال رسول الله (ص): «اطعموا نسائكم الحوامل اللبان فإنه يزيد في عقل الصبي»[٢].

٤ ـ حضرت امرأة أمام الإمام الصادق (ع) ومعها ابنها وكان ضعيفا، فسألها الإمام (ع): «**ما لي أرىٰ جسم ابنك نحيفاً؟ فقالت: هو عليك. فقال لها أسقه السويق فإنه يُنبت اللحم ويشد العظم**»[٣].

٥ ـ حضر رجل أمامَ الإمام الصادق وقال: (**يولد لنا المولود فيكون منه القلة والضعف**) فقال (ع): (**ما يمنعك من السويق فإنه يشد العظم ويُنبِتُ اللحم**)[٤].

هذه نماذج من سلسلة من الأحاديث التي تعتبر تغذية الأُم في فترةِ الحمل، وتغذية الطفل نفسه مؤثرةً في صحة وعافية الأطفال المولودين حديثاً ولذا فإن ما توجبُهُ الصحةُ اليوم في فترة الحمل للأمهات إنما هو واجب اسلامي يجب اتباعُهُ وكل ما يوصي به الاطباء من تعليمات لنمو الاطفال، وكل ذلك جزء من البرامج الاسلامية التي ذُكرت إجمالاً كنماذج في الاحاديث السابقة. واليوم وفي ظل تقدم العلوم الطبيعية فإن انواع الفيتامينات المكتشفة التي توضع تحت تصرف الأُمهات يمكن لها وبأمر وتعليمات الطبيب التغلب على قسمٍ من هذه المشاكل وتقليل نسبة الأطفال الاستثنائيين.

ب ـ الوراثة:

الوراثة مبدأ يحترمه الاسلامُ تماماً ويقبله، واذا كان علم (الجينيتيك) علماً جديداً في الغرب، فإن قانون الوراثة، بشكل كلي وعام، موجود في القرآن الكريم

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٣٤١.
(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٣٤١.
(٣) بحار ج ١٠١ ص ١٠٥.
(٤) بحار ج ١٠١ ص ٨٠.

والاحاديث الاسلامية، ويقبله الطب التقليدي (الطب الشعبي) والتجارب القديمة للناس. يقول القرآن الكريم:

- ﴿والبلدُ الطيبُ يَخرجُ نباتُهُ بإذْنِ ربِّهِ والذي خَبُثَ لا يخرجُ إلاّ نَكِدا﴾[1].

إن هذه الآية، التي هي نموذج، إشارة إلى قانون الوراثة، وأن صحة (سلامة ومرض) الوالدين مؤثرة في نمو الطفل تماماً.

اعطىٰ أمير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب (ع) سيفاً بيد ابنه محمد بن الحنفية في معركة الجمل وطلب منه أن يهجم علىٰ قلب الجيش، وعندما وجد ابنَهُ ضعيفاً اقترب منه وربت بقبضةِ سيفهِ على كتف ابنهِ وقال: إنه العرق الذي ورثَهُ عن أمّهِ[2].

بملاحظة الآيات والروايات الواردة عن قضية الوراثة، يمكن القول بالتأكيد؛ إن هذه النقائص تتعلق بالوالدين وتظهر في الأبناء، ونحن نورد نماذج على ذلك:

١ ـ قال أمير المؤمنين الامام علي (ع): **(إياكم وتزويج الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع)**[3].

٢ ـ قال الرسول الأكرم (ص): **(لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً)**[4].

ج ـ المقاربة في أيام العذر:

يعتبر الاسلام فترة الحيض، فترة نقاهة، ونوعاً من عدم الراحة، والحاجة إلى الاستراحة، بينما هذه الفترة من حياة المرأة في الكتاباتِ المنسوبة إلىٰ بعض الشرائع السماوية فُسِّرتْ بشكل سيء، لدرجة أن تلك المجموعة تعتبر المرأة في

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٨).

(٢) حرب البصرة ـ تأليف الشيخ المفيد.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٥٦.

(٤) المحجة البيضاء ج ٣ ص ٩٤

فترة الحيض كائناً غير (نظيف) ويجب أن تَعزل في الطعام والحياة وكأنها حيوان نجس، بينما يعتبر الاسلام هذه الحالة، فترة نقاهة، ويقول:

- **﴿. .يسألونك عن المحيضِ قل هُو أذىً فاعتزلوا النسـاءَ في المحيضِ ولا تقرَبوهُنَّ حتىٰ يَطْهُرْنَ﴾**[1].

إن التلقيح في فترة الحيض مسألة بعيدة ولكن ليست مستحيلة، ولذا ليس بعيداً أن يتم التلقيح عند المقاربة في فترة الحيض، ولكن يجب ملاحظة أن مثل هذا الطفل (الذي تم تكوينه في فترة الحيض) لن يكون طفلاً صالحاً سالماً، لأن الأب وضع بذرةً في أرضٍ غير مستعدة ومتعفّنة. يقول الامام الصادق (ع): **«ترىٰ هؤلاء المشوهين خلقهم قال قلت نعم قال: هؤلاء الذين آباؤهم يأتون نساءهم في الطمث»**[2].

وفي حديث عن رسول الله (ص): **(وكره رسول الله للرجـل أن يغشىٰ إمرأتـه وهي حائض فان غشيها وخرج الولد مجنوناً أو أبرصاً فلا يلومن إلّا نفسه)**[3].

د ـ آداب المقاربة:

إن مقاربة المرأة والرجل استجابةٌ فطرية، وبما أن هذا العمل شيءُ طبيعي وغريزى فإن الاسلام قد وضع له آداباً والتخلّفُ عنها سببٌ لإنحراف الأبناء.

ورغم أن العلم البشري لم يقف على الكثير من اسرارِ هذا النوع من الآداب وأوامرها، ولكن هناك بالتوصلِ إلى اكتشافٍ بتقدم العلم. وقد وردت هذا الآداب واعمالها في كتب الحديث، خاصةً (وسائل الشيعة) المجلد الرابع عشر.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٢٢).

(٢) المحجة البيضاء ج ٣ ص ١١٣.

(٣) بحار الأنوار ج ١٠٠ ص ٢٨٣.

النقص العضوي وجهل الوالدين:

إن هذا البحث الواسع يسوقنا نحو جذور ظهور النقص العضوي والتخلف العقلي لدىٰ الأطفال، ويوضّح لنا أن العامل الأساس في بروز القسم الأعظم من النقص في الخلقة يعود إلى الوالدين، ولو انهما كانا علىٰ علم بالأسباب، وخاصة بالحيلولة دونها، لأنخفض مستوىٰ حجم النقص في المواليد والاطفال.

إن تأثير الاسباب الطبيعية بحد ذاتها مسألة لا يمكن البحث فيها ولا تتعلق بما نتمناه نحن، ونحن إنْ اردنا أن نعرف او لا نعرف فإن لكل علّة طبيعية نتيجة خاصة. إن (عدسة) العين دقيقة ولكن اذا اصابتها حجارة صغيرة فإنها تُدمر، مهما كانت هذه العين لمعصومٍ أو مجرم، لطفل او رجل، لعالم او جاهل.

سلبُ هذه الخصيّصة من الحجارة مخالفٌ للنظام الذي يجري عليه العالم، فطلب أن لا تتأذىٰ العين لدىٰ الاشخاص الأبرياء عند اصابتها بجسم خشن هو طلب يتسم بالجهل بمبادىء الخَلْقْ. إن القسم الأعظم من بلايا الاطفال المعلولين هو جهل الآباء والأمهات بمبادىء الخَلْق وقوانينها، فهم يتصوّرون أن واجبهم ينحصر في (بذر البذور)، بينما واجبهم يبدأ منذ لحظة انتخاب (الزوج) وحتىٰ تقديم ثمرة زواجهم إلى المجتمع. وفي هذه المرحلة، يستطيعون أن يتغلبوا علىٰ قسمٍ من حالات الاضطراب هذه، وذلك بالخضوع للاشراف الطبي ورعاية التعاليم الدينية.

علىٰ اية حال إن المراقبة الواسعة والمستمرة تؤثر كثيراً في التقليل من حدوث نقص في الخلقة. انكم تغرسون (شتلةً) في الأرض لكي تصبح شجرة وتُثمر، ولكن هذا (الغرس) غير كافٍ، بل يجب أن يرافق ذلك السقي واعطاء السماد ورعاية البستاني، وإلّا فإن الشجرة لن تصل إلى كمال نموها.

إن الجنين في الرحم كالشجرة، ويجب أن يبذل جهوداً مكثفةً ومراقبةً كاملة، فالوالدان منذ أن يعقدا عقد الزواج عليهما أن يعملا على تربية أطفال سالمين، وليعلما أن نواميس الخلق وقوانين الخلقة لن تتبدل لجهلهم. مثلاً عندما لا تتطابق دماؤهما، أو أن احد الوالدين يكون مصاباً بالسل او بمرضٍ عفوني، او لم تقم الأم

بمراقبة الجنين في رحمها، فهي سواء أرادت أم لم ترد، فإن آثـاراً سيئة ستقـع للجنين.

في الماضي لم تسلم إلا القليل، من البساتين من الآفات، ولكن منذ أن عرفَ الإنسان نواميس الخلقة وعرف لغة الطبيعة استطاع التغلب علىٰ الكثير من الآفات والبلايا التي كانت تصيب الأشجار والفواكه.

وفي الحقيقة إن الخسائر والأضرار الإنسانية والحيوانية والنباتية سببها لامبالاة البشر، او الجهل بنـواميس الخلقة وقـوانين الطبيعـة، ويجب أن لا نحسب هذه الخسائر والأضرار على انها من الله تبارك وتعالىٰ.

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق العالم بأصح اسلوب وافضل الظروف وجعل كل شيء على أحسن وجهٍ حيث يقول عز وجل **﴿الذي أحسنَ كل شيء خلقه﴾**[1].

إننا نحن الذين نلقي بفلذ اكبادنا، بعدم الرعاية، في البلايا والآفات.

إن مكتشف القوة الكهربائية في باطن الأجسام، قدّم اعظم خدمةٍ للمجتمع الإنساني، ولكن عندما لا يتمكن أحدٌ من استغلال هذه الطاقة، ومن إتخاذ الرعاية اللازمة، فلا يمكن أن يُلام أديسون بأنه هدىٰ البشر الى هذه الموهبةِ الطبيعية.

الناقصون والعدل الإلهي:

أحد أهم المسائل في هذا البحث، هو ايجاد التوافق بين مثل هذه (الخلقة) والعدل الإلهي من الممكن أن يقال: صحيحِ أن بعض الآباء والأمهـات بعدم اهتمامهم بقوانين الخَلْق وشروط الحياة الصحيحة يدفعون ابناءهم نحـو البلايـا، ولكن هناك فئة بريئة لا تعلم شيئاً وتجهل نـواميس الخلقة يتعـرضون لمثـل هذه الحوادث. في هذه الحالة ألم يكن ضررريا، منذ اليوم الأول، أن يخلق الاشخاص عالمين بظروف الحياة، وبدل من أن يزيلوا الجهل بالتدريج، يكونون عالمين، منذ اليوم الأول، بخصوصيات العالم؟

---

(١) سورة السجدة الآية (٧).

الجواب:

أنْ يعلم الإنسان بالمباديء والقوانين الحاكمة على العالم عن طريق الغيب، ودون تحصيل العلوم، والتعرف على علل الآفات والأضرار، مخالفٌ لسنن الخَلْق، ولا مبرر إزالة هذه السُّنة في مورد أن يكون لدىٰ الوالدين منذ اليوم الأول لظهور آفة النسل هذه. واذا كان لا بد أن يكون البشر في مأمنٍ من كل شيء، فلماذا لا يكون لديه علمٌ بعللِ جميع الحوادث الضارة، ويدفع عن نفسِه الآثار السيئة للزلازل والفيضانات؟!

ثم انه لا يكفي أن يعلم الإنسان كيفية ازالةِ النقائص الخاصة، لأن الآباء والأمهات العالِمين بفساد النسل، لا يتورعون عن ارتكابِ الخطيئة بشربِهم للمشروبات الكحولية بدل الماء رغم علمهم بآثارها السيئة علىٰ النسل.

العمل الوحيد الذي يعود لصاحب العالَم هو معاقبة مسببي هذه الجرائم، ومعاملة المعلولين بالعطف عن طريق التشريع والتقنين، ولحسن الحظ فإن هذا العمل قد تم في التشريع الاسلامي بالنسبة لهذه الطبقة، وهنا يجب أن لا نَغفل عن نقطتين:

١ ـ إن قانون العلة والمعلول وتأثير العلل الطبيعية، هو بنفع الإنسان بنسبة ٩٩٪، ويشكل اساسَ حياتِه، واذا حدث وكان في ضررِهِ في موضع فهذا لا يدل على انه قانون سيء ومضر، واذا كان الإنسانُ له علم الغيب لاستطاع أن يجعل جميع قوانين الخَلْق تعمل لصالحِهِ، ولقضىٰ على شذوذ الخلقة، ولوصلَ إلىٰ صفة أحسن الخالقين في الواقع، ولكن منح مثل ذلك لجميع الناس خلافٌ للمصالح والسُّنن الإلهية.

٢ ـ يكون العلم والمعرفة كمالاً من الكمالات للإنسان إذا كانا نتيجة للجهود والمساعي. فإذا ولد الإنسان وكان عالماً منذ اليوم الأول لتمكن أن يمنع جميع النقائص (وإن لم يكن ذلك جذرياً)، ولكن في هذه الحالة فإن مثل هذا العلم لا يعتبر كمالاً.

تخفيف التكاليف:

التكليف فرع القدرة والقوة، وشعائر الدين الاسلامي هي الآية: **﴿لا يُكلف الله نفساً إلاّ وسْعَها﴾**[1]، إن هذه الآية ونظائرها تنسجم مع العقل، وتدل علىٰ أن الأشخاص المعلولين والاستثنائيين لا يمكن أن يكونوا متساويين مع الاشخاص السالمين في (التكليف) لأنهم لا يملكون قدرة السالمين. القرآن الكريم يوضح هذا الموضوع في آيةٍ حيث يقول:

- **﴿ليس علىٰ الأعمىٰ حَرَج ولا علىٰ الاعرجِ حَرَج ولا علىٰ المريضِ حَرَج﴾**[2].

عندما يصل فقهاء الاسلام، في باب التكليف، إلى هذه الفئة ومشابههم يعلنون ان تكاليف هذه الفئة تختلف عن تكاليف الفئة القادرة، وأن عليهم أن يؤدوا الواجبات حسب قدرتهم واستطاعتهم.

هذا الموضوع له ابحاث واسعة في الفقه الاسلامي، ومن له علاقة بهذا الصدد بإمكانهم أن يراجعوا ابواب الوضوء، الغسل، اوقات الصلاة، كيفية اقامة الصلاة والصوم، الحج، والجهاد. في جميع هذه الأبواب يصطلح جميع الفقهاء على تسمية هذه الفئة بإسم (ذوي الأعذار) ويضعون لهم تكاليف خاصة تنسجم مع قدرتهم واستطاعتهم.

واجبات المجتمع مقابل هذه الفئة:

ليس فقط أن الاسلام يعفي هذه الفئة من بعض التكاليف، بل يدعو المجتمع لمساعدتهم لأن اكثرهم ضحايا جهل المجتمع. ولمعرفة مثل هذه الدعوة سنذكر سلسلةً من الأحاديث نختتم بها البحث:

١ ـ قال رسول الله (ص): **«من قاد أعمى اربعين خطوة غفر له ما تقدم من ذنبه»**[3].

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٦).

(٢) سورة النور الآية (٦١).

(٣) نهج الفصاحة ص ٥٩٧.

٢ ـ قال رسول الله (ص): «**من اعان ضعيفا في بدنهِ على أمرِه اعانه الله على أمرِه، ونصب له في القيامة ملائكة يعينونه علىٰ قطع تلك الأهوال وعبور تلك الخنادق من النار، حتىٰ لا يُصيبَهُ من دخانها، وعلىٰ سمومها، وعلىٰ عبور الصراط إلى الجنةِ سالماً آمناً. ومن اعان ضعيفاً في فهمِهِ ومعرفتِهِ فعلَّمَهُ حجته علىٰ خصم الدين طُلاب الباطل، أعانه الله عند سَكَراتِ الموت علىٰ شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ والإقرار بما يتصل بهما والاعتقادِ له حتىٰ يكون خروجُهُ من الدنيا ورجوعُهُ إلىٰ الله عز وجل علىٰ افضل اعمالِهِ وأجلّ احوالِهِ، فيُحيىٰ عند ذلك بروح وريحان ويُبشرُ بأن ربَّهُ عنه راض وعليه غيرُ غضبان**»[1].

إن جملة (من أعان ضعيفاً في بدنه..) يتعلق بالتمريض وامثاله.

وجملة (من أعان ضعيفاً في فهمِه..) يتعلق بالمساعداتِ التعليمية، طبعاً يشمل مساعدة الاشخاص الاستثنائيين والمتخلفين.

٣ ـ قال النبي (ص): «**من خدم أخاهُ اخدمه الله من الولِدانِ المُخلدين، واسكنه مع اوليائِه الطاهرين، ومن حمل أخاه المؤمن علىٰ راحلةٍ حَمَلَهُ الله على ناقةٍ من نوقِ الجنة وباهىٰ به الملائكة المقربين يوم القيامة**»[2].

٤ ـ قال الإمام الصادق (ع): «**المؤمنونَ خَدَمٌ بعضُهم لبعضٍ، قيل وكيف يكونون خدماً بعضُهم لبعضٍ؟ قال: يُفيد بعضُهم بعضاً**»[3].

٥ ـ قال اميرُ المؤمنين (ع): قال رسول الله (ص): «**من قاد ضريراً اربعين خطوة علىٰ أرضٍ سهلة لا يفي بقدر إبرة من جميعِهِ طِلاعُ الأرضِ ذهباً. فإن كان فيما قاده مَهْلِكة جَوزهُ عنها وجد ذلك في ميزانِ حسناتِهِ يوم القيامة اوسعَ من الدنيا مائة ألف مرة ورجَحَ بسيئاتِهِ كُلها ومَحَقها وانزلَهُ في أعلىٰ الجَنان وغُرفِها**»[4].

---

(١) بحار الأنوار ـ ج ٧٥ ص ٢١.

(٢) المكاسب المحرمة ـ للشيخ الانصاري ص ٦٠.

(٣) المحجة البيضاء ج ٣ ص ٣٥٧.

(٤) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ١٥.

في الختام نُشير إلى اننا قد أوردنا في هذا القسم، ما يمكن أن يوضح جوانب هذا السؤال. وهذا السؤال فرعٌ من بحثٍ حول (المصائب) و (البلايا) التي تتعرض للإنسان وهو موجود في الكتب الفلسفية والكلامية بشكل واسع.

* * *

لماذا وصلت الشيوعية إلى الطريق المسدود؟

منذ مدة وأنباء المحافل العلمية والسياسية تنبىء أن الشيوعية قد وصلت إلى الطريق المسدود من الناحية الفكرية والعلمية، والفلسفية والإقتصادية، ويصرح قادة الشيوعية في الاتحادِ السوفيتي بأنه يجب اعادة النظر في جميع المبادىء الماركسية، وقد حدثت الآن، مع مجيء غورباتشوف إلى الحكم، متغيرات عميقة في النظام السياسي والاقتصادي لذلك البلد. الرجاء أن تتفضلوا بتوضيحٍ في هذا المجال.

الجواب:

النظرية المادية ليست نظريةً جديدة ظهرت اليوم او بالأمس في المجتمع البشري، بل إن هذه النظرية، التي تعتبر الوجود والمادة والطبيعة متساوية، هي نظرية قديمة. ففي الوقت الذي كان اكثر الناس، في جميع الحضارات، من المؤمنين بالله تبارك وتعالىٰ، ولكن كانت بينهم مجموعة لم تكن لتقتنع بأدلةِ المؤمنين، ولهذا كانوا يغطون في وادي الضلال والشك والحيرة. ومع هذا لم تكن (المادية) ـ حتى القرن الثامن عشر ـ تُدرّس كفلسفة أو علم، ولم تخرج عن دائرة الشك في وجود العالم المجرد من المادة والعالم الآخر، إلىٰ أن أخذت الماديةُ المنطق الديالكتيكي من هيغل، وكأنها حصلت على حربةٍ حادة تستطيع بها أن تقف امام المنطق القوي للإلهيين، وتبرز حضورها في المحافل الفلسفية والعلمية.

ولكن رغم ما بذله مفكرو هذه المجموعة من جهود خدّاعة، فإنهم لم يتمكنوا أن يظهروا مدرسةً فلسفية يمكن أن يُطلق عليها اسم (مدرسة فلسفية). بل أنهم اظهروا عدم الإهتمام أمام كتل الأسئلة، وكأن ليس هناك من يعترض عليهم، وانهم ليسوا مسؤولين بالإجابة علىٰ هذه الأسئلة.

والآن نشير إلى بعض هذه الاعتراضات التي تبيّن ضعف اساسَ المدرسة المادية:

١ ـ مبدأ (الوجود يساوي المادة) يفتقد للبرهان:

إن اساس (المادية) هو اعتبار الوجود مساوياً للمادة، وإنكار ما وراء المادة والطبيعة. فهل يوجد، لحد الآن، شخص مادي يقيم دليلاً فلسفياً على إنحصار الوجود في المادة؟ أم أنه يكتفي بالدليل الطفولي بأن (عدم وجود الدليل هو دليل عدم الوجود)؟

إن المدرسة التي اساسها (الوجود يُساوي المادة) وتفتقد للدليل والبرهان الفلسفي، كيف تستطيع إرواء عطش الشباب الواقعيين بدون ضجة وفوضىٰ حزبية؟

إن قضية مساواة الوجود مع المادة، ليست قضية علمية يمكن اثباتها، كباقي القضايا العلمية، عن طريق التجربة، إن مختبر أي محقق اعجز من أن يجيب على مثل هذا السؤال. إنها قضية شمولية عالمية فلسفية يجب أن يجيب عليها العقل ويحكم عليها.

إن أقوىٰ أدلة الماديين حول نفي وجود (الروح) و (النفس) في مادة الإنسان، هو إنه لا وجودَ لهما لدىٰ تشريح الجسم علىٰ يد الجراحين. إن هذا الاستدلال، في رأي فيلسوف له إطلاع علىٰ المسائل الفلسفية وطرقِ إثباتها، ضعيف لدرجة أنه لا يسمح لنفسِهِ أن يُطلق عليها إسم (دليل).

٢ ـ لم يثبت لحد الآن أي مبدأ من مبادىء الديالكتيك بالبرهان الفلسفي:

إن المبادىء الأربعة للديالكتيك التي هي عماد الماديين في القرن المعاصر، وتريد تفسير العالم في جميع الأبعاد (الطبيعة، الفكر، المجتمع، والتاريخ) فبالإضافة إلى خواء هذه المبادىء في مجال تفسير وتعليل (الطبيعة)، فإن أياً من هذه المباديء لم يقم عليه دليلٌ او برهان فلسفي، ولكن رغم ذلك فإنه بقي كمبدءٍ مُسلّمٍ به في كتاباتِهم الفلسفية والحزبية. بينما يليق بمدرسةٍ فلسفية اولاً أن تثبت

اصولها الفكرية في جوٍ بعيدٍ عن أي نوع من انواع النزاعات الحزبية والسياسية، وبعد ذلك تبدأ باستنتاجِها وتعليلها. ولكن مع الأسف أنه تم الإكتفاء بمثال واحد في جميع كتاباتِهم لإثبات هـذه المبادىء، وبمـلاحظة هـذا المثال في عـددٍ من المواضع، في جميع عالم المادة، أعتُبِر بمثابة قانون فلسفي عالمي شامل وقاطع. مثلاً حول مبدأ (الحركـة) و(أن كل شيءٍ في تغيّـر) اكتفىٰ (ستالين) في رسـالة (المادية الديالكتيكية) بفتوىٰ، كما اكتفىٰ (اناسيف) بأمثلة. ولكنهم اذا كانوا علىٰ معرفةٍ بالفلسفةِ الاسلامية لتعرفوا علىٰ حقيقة (الحركة) وبرهان (مساواة المادة) مع (الحركة) ـ وليس الوجود مع الحركة ـ ولما ساووا (الحركة) مع (التغيّر) لأن (التغيّر) غير (الحركة)، إذ يلزم (الكمال) في (الحركة) ويجب أن تحسب الحالة الثـانية بالنسبة للحالةِ السابقة (كمالاً)، بينما الوضع ليس كذلك في (التغيّر). ليس فقط أن هذا هو مبدأ الحركة الذي ظهر لدىٰ هؤلاء المساكين كمبدءٍ مسلّم به، وإنما هم هكذا بالنسبةِ لجميع المبادىء الأخرىٰ. مثلاً حول مبدأ (التضاد) فَهُم يقولون؛ إنه يوجد في كل جزءٍ من اجزاء الطبيعة قوتان متخاصمتان، وفي النهاية تنتصر الثانية علىٰ الأولىٰ وتخلقُ حركة في الطبيعة، وفي النتيجة ليس فقط أن هذا التحوّل في الطبيعة جاء على اساس الخصام هذا، وإنما تحولات المجتمعات مبنيةٌ على هذا الاساس ايضاً. إن واضع مثل هذا المبدأ باعتباره شـاملاً، الـذي يريـد أن يفسر العالم، من المنظومة إلى ما وائها وحتىٰ الذرّة، وفقاً لهذا المبـدأ، ما هـو دليله الفلسفي لهذا المبدأ؟ هل أن هاتين القوتين المتخاصمتين في الذرّة، او في بذرةِ الشجرة، تكفي للإعتماد عليها لإعلان هذا المبدأ مبدأً عالمياً؟! لا يمكن ابداً، بدون دليل فلسفي، تفسير التحوّل والحـركة في العـوالم البعيدة عن طـريق هذا (التضاد). بل لا يمكن تعليل الكثير من الظواهر القريبة عن هذا الطريق، فهل أن الماء يتكون من عنصري الأوكسجين والهيدروجين عن طـريق (التجاذب) ام عن طريق (التضاد)؟ وما هو اساس ظهور الجنين الحاصل من إلتقاء مني الرجل وبويض المرأة؟ فهل هو حاصل من التخاصم ام المعاشقة والتجاذب؟ كذلك هي مبادىء الديالكتيك لا جذورَ لها سوىٰ الأمثلة.

٣ ـ الماركسية تحفر قبرها مع مبدأ التضاد:

افترضوا أن جميع هذه المبادىء مصنوعة من الفولاذ، كما يقول لينين، إذن فما هو تكليف مبادىء الديالكتيك، او الفلسفة المادية التحولية (المادية الديالكتيكية) امام مبدأي (التغيير والتبديل إلىٰ الضد)؟ فهل تتبدل الماركسية إلى ضدِها وهو اكمل منها ام لا؟ في الحالة الأولىٰ فإنها تقضي علىٰ مدرستها بيدها، وفي الحالةِ الثانية فإن (الديالكتيك) ليست عالمية شاملة فتخرج من جملةِ القضايا الفلسفية.

٤ ـ تقديس ماركس كنبي:

اكبر عيوب مفكري هذه المدرسة انهم يتعاملون مع هذه المبادىء معاملتهم مع (الوحي السماوي)، وبينما هم ينكرون النبوة والوحي إلّا انهم يقدسون ماركس إلى مستوىٰ (نبي) ويعتبرون مدرسته بمثابة (وحي سماوي) لدرجة يقول ستالين:

ـ «ان المباديء الديالكتيكية مصنوعة من فولاذ ولا يمكن أن يؤثر عليها مرور الزمن».

في الغالب يقوم الماركسيون بدراسةِ القضايا في محيط مغلق ويغلقون اسماعهم عن منطق معارضيهم. مثلاً حول النظرية الماركسية، وظهور الأديان والاعتقاد بما وراء الطبيعة هناك نقدٌ مستدل من قبل الإلهيين، ولكن مع الأسف إن هذه المجموعة تكرر نفس كلام استاذِهم الأزلي (فويرباخ) الذي اعلنَ عنه في القرن التاسع عشر، ويتعصبون في هذا المجال لدرجة يعتبرون جميع الأديان العوبة بيد اصحاب رؤوس الأموال وحماة الإقطاع، وكأنهم لم يقرأوا ورقة من صفحات تعاليم الأنبياء وأولياء الحق. بل إنهم يضعون امثالَ هؤلاء الرجال السماويين الذين كانوا دائماً إلى جانب المظلومين والمحرومين، في مستوىٰ الجبارين..

ثم يظهر من بين هؤلاء، أشخاصٌ معدودين أمثال (روجيه غارودي) الذي أمضىٰ ٣٦ سنة في عضوية الحزب الشيوعي الفرنسي، منها ٢٤ سنة في (اللجنة المركزية للحزب)، يمزقُ الستار ويتوجه إلى العرفان الاسلامي، ويمدح الاسلام

وبرامجِه الهادية للرجال الكبار، ثم يُعلن بـ (انني مسلم) وأن الاسلام هو مستقر المستقبل ويعرّف الاسلام بأنه (ايمان وقانون الحياة) و (الطريق الوحيد لخلاص الإنسان) وينشر كتاباً بإسم (الاسلام: مستقر المستقبل).

٥ ـ لم يبق من الماركسية سوىٰ الجلد:

ربما يُتصور أن طلب إعادة النظر في بعض القضايا للشيوعيين، هو دليل علىٰ واقعيتهم واستسلامهم امام النظريات العلمية الجديدة. ولكن يجب أن يُلاحظ أن طلبَ اعادة النظر، الذي كان سارياً منذ زمن ماركس بين منظّري هذه المدرسة وحتىٰ الآن، له سبب آخر وليس بسبب العودة إلى (الحق) و (الحقيقة)، وإنما لأنه لا يمكن الحفاظ على النظرية بدون ذلك. ولهذا فهي تريد جذب الجماهير بشعارها ولتحافظ على شعارها من جهة، ومن جهةٍ اخرىٰ إظهار نفسها كفلسفةٍ علمية تعتمد علىٰ مستجداتِ العلوم لتحفظ شعارها المسبب للجمود، ومدرستها، وانها تواكب العلوم الجديدة، فتطرح مسألة (إعادة النظر)، ولكن اذا نظرنا إلى الشيوعية وإعادة النظر لديها في مختلف الأبعاد خاصةً المجتمع والتاريخ فإننا نجد انه لن يبقىٰ منها سوىٰ الجلد.

٦ ـ الماركسية ليست (جامعاً) و (مانعاً):

أحد اعمدة المدارس الفكرية انها (جامعة) و (مانعة) بـأصولها واساليبها، والماركسية تفتقد لذلك، وهي تدعي الضوابط والبرامج التي لا يدخلها نقص، ولا يمكن المساس بها، ولحسن الحظ أن الزمن أثبت بطلان هذا الإدعاء.

* * *



الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

تنـويه

نتوجه بالشكر للأخ عادل عبد العزيز على ترجمته لهذا الكتاب، وكذلك الإخوة الذين ساهموا في مراجعته واستخراج مصادره، ونسأل المولى جل وعلا أن يسددنا في طريق اعلاء كلمته ونشر معارف دينه الحنيف.